الجزء الثاني

1990 – 1964

obeikandl.com

obeikandl.com

15

سيد قدري

1964 ـ 1971

كان الحكم على مانديلا بالسجن المؤبد اختباراً لتصميمه أكثر خطورة من سنتيه السابقتين في السجون جنوب إفريقية. لقد أصبح الآن مقطوعاً عن العالم وهو في أوجه، في سن السادسة والأربعين، وبلا نهاية تلوح في الأفق. إنه لم يكن يوماً زاهداً مثل غاندي أو لينين، وفي رسائله كان دائماً يحن إلى مباهج سويتو أو الترانسكي، كان يحن إلى الطعام، والطبيعة والنساء والموسيقى. والآن تنكمش الطبيعة المشرقة والشخصيات، في المسرح الخاوي والوحيد المحصور في زنزانته وفي الباحة العامة.

لكن هناك عزاء قوي في أنه لم يكن وحيداً. فقد كان معه بعض أصدقائه الخلص الذين كان بعضهم يدعم معنويات وعزم بعض، ويطورون عمقاً أكبر وفهماً للذات. في عصر يميل معظم سياسييه إلى نسيان مثالياتهم المبكرة، سعياً وراء السلطة، كان مانديلا مجبراً على التعمق في سبر مبادئه وأفكاره. وفي عالم السجن المصغر المجرد من جميع زخارف السياسة ـ من منابر وأبواق، وصحف وحشود، وبزات أنيقة ـ محشوراً مع زملائه كل يوم، كان قادراً، على حد تعبيره، على الابتعاد عن نفسه، ليرى نفسه كما يراه الآخرون.[1] تعلم أن يضبط مزاجه وإرادته القوية، وأن يجمع تفكيره ويقنع، وأن يمد نفوذه وسلطته ليس على السجناء الآخرين فحسب وإنما على السجانين.

بين السجناء السود وحراسهم البيض كان ميزان النفوذ يتغير باستمرار

داخل العالم المغلق. لكن، بالتدريج، رسخ السجناء نفوذهم ومانديلا قائدهم، بما لديهم من دافع وتكاتف أكثر من السجانين. كانت هناك تشابهات كثيرة مع سجناء سياسيين آخرين من القرن العشرين ـ غاندي في الهند، أو بعض أعضاء الجيش الجمهوري الأيرلندي ـ لكن الرسائل، وسجلات السجن وذكريات سجناء جزيرة روبين على مدى العشرين سنة التالية تقدم سجلاً فريداً للسياسة النفسية في سجن يستطيع السجناء فيه في النهاية السيطرة على حراسهم.

بقي السجناء السبعة عدة أيام في سجن بريتورية المحلي، وما زالوا مبتهجين للنجاة من حكم الإعدام. وفي الواحدة من صباح 12 حزيران (يونيو) 1964 قيل لهم أن يحزموا أمتعتهم لأنهم سينطلقون فوراً إلى جزيرة روبين.

كبلت أيدي الستة الآخرين بالأصفاد وربطت أرجلهم بالحديد مثل العبيد، أما مانديلا فلم يقيد.[2] ودفعوا داخل شاحنة تابعة للشرطة واقتيدوا إلى المطار العسكري. ورحلوا بطائرة عسكرية قديمة غير مدفأة من طراز داكوتا، حطت بعد الفجر مباشرة على مدرج جزيرة باردة تعصف بها الرياح يحيط به حرس مسلح.

أصبحت جزيرة روبين مكاناً أكثر همجية عما كان عندما حل به مانديلا منذ سنتين. وقد جهز ليستقبل كثيراً من سجناء الأمد الطويل، وأعيد تنظيمه وفق مبادئ الأبارثيد الصارمة. حيث كان جميع السجانين من البيض، المصممين على فرض تفوقهم العرقي. وكانت هناك بعض /الممارسات/ الوحشية ـ كما كان السجانون يسمون هجماتهم ـ فقد قاموا مؤخراً بالتهجم على السجناء السياسيين بالضرب، الذي أسفر عن إصابة أحد ناشطي المؤتمر الوطني الإفريقي، وهو أندرو ماغوندو Andrew Magondo بجراح خطيرة.[3]

بدأ مانديلا ثانية بمجابهة. كانت هذه المرة حول مسألة الثياب، التي كان يراها دائماً جزءاً من كرامته لن يتخلى عنه. وزود السبعة ببنطلونات (كاكية) قصيرة متماثلة ـ وهو الزي الموحد /للولد المحلي/ ـ باستثناء كاثرادا الذي

منحوه بنطلوناً طويلاً، لكونه هندياً. احتج مانديلا على البنطلون القصير، وبعد بضعة أيام وجد بنطلوناً طويلاً ملقى في زنزانته فكتب: «لم أفرح بأية بزة من ثلاث قطع فرحي بذاك البنطال». ولكن عندما حرم البنطلون الطويل على بقية السجناء احتج ثانية، وتركهم يأخذون بنطلونه. ولم يرتدوا جميعاً بنطلونات طويلة إلا بعد مرور ثلاث سنوات.[4]

عومل مانديلا بحرص أكثر من الآخرين. وشك أن سلطات السجن وضعت في اعتبارها أصدقاءه المهمين وارتباطاته الملكية.[5] فلم يقيد وهو على متن الطائرة، ولدى وصوله إلى الجزيرة، خصص بطعام حمية بسبب وضعه الصحي. وسمح له بمتابعة دراسته بالمراسلة للحصول على درجة الإجازة في الحقوق من جامعة لندن. وكانت تصله كتب الحقوق عن طريق السفارة البريطانية، حيث كان دافيد أستور يرتب ذلك في لندن. وقد كتب إلى السفير: «سأفعل كل ما بوسعي لأبرر ثقته بي».[6] وسرعان ما أعطي مانديلا طاولة وكرسياً في زنزانته على الرغم من أنه لم يكن مسموحاً له ببعض الكتب الحساسة.[7] ولدى منحه كل هذه المزايا شعر بالحاجة إلى البقاء قريباً من زملائه أكثر من ذي قبل.

وبعد بضعة أيام في بناء السجن القديم. نقل الرجال السبعة في 24 حزيران (يونيو) ـ اليوم الذي يسبق يوم الاحتجاج التقليدي في المؤتمر الوطني الإفريقي ـ وأخذوا بالسيارة إلى بناء جديد فارغ قد أنجز بناؤه حديثاً. مثلث جديد بني حول باحة صخرية، ثلاثة أطراف منها تضم زنزانات صغيرة، والجهة الرابعة عبارة عن جدار عال يسير على ممر ضيق أعلاه سجان يحمل بندقية. أعطوا جميعاً زنزانات متماثلة على أحد الجوانب المسمى قسم العزل أو القسم ب. كانت زنزانة مانديلا تبلغ ثمان أقدام طولاً بسبع أقدام عرضاً، لها نافذة صغيرة ثبتت عليها قضبان، تشرف على الباحة، وكانت الزنزانة مجهزة بحصير من القش وثلاث بطانيات رقيقة. هذه الزنزانة ستكون بيته لمدة ثمانية عشر عاماً.

في البداية توقع السجناء ومحاموهم أنهم سيبقون في السجن عشرة أعوام كحد أقصى.[8] وعلى الطريق إلى جزيرة روبين من بريتورية. أكد لهم الضابط المحقق الشاب الودود الملازم فان وايك أن الرأي العام العالمي سيخرجهم من السجن خلال خمس سنوات: «ستكون البنات بانتظاركم».[9]

وقد ذكر مانديلا أن بعض السجناء كانوا يسألون جادين إن كانوا سيمضون عيد الميلاد هناك[10]! لكنهم سرعان ما اضطروا إلى مواجهة حقيقة أنهم سيبقون في جزيرة روبين فترة طويلة. وأن حياتهم ستكون «كئيبة بلا خلاص».[11] كان هناك وجه من الوحشية لم يكن يعرفه من قبل. حيث قال فيما بعد: «لن تعرف مدى قسوة الإنسان على الإنسان حتى تمكث في أحد سجون جنوب إفريقية مع سجانين بيض وسجناء سود»[12]، فقد حرموا من المذياع أو الصحف. وفي البداية لم يكن مسموحاً لهم بكتابة أو تلقي أكثر من رسالة واحدة لا يتجاوز عدد كلماتها الخمسمئة، كل ستة أشهر. كان مسموحاً لهم بمراسلة دائرة أسرتهم المباشرة، وقد طمس الرقيب بعض فقرات من رسالة ويني الأولى لمانديلا. وكانت المقاطع المراقبة من الرسائل ترسل إلى مأمور السجون لتعطي فكرة عن خلفية السجين السياسية، بينما بعض الرسائل من السجناء التي تحتوي ما يفترض أنه معلومات سياسية فقد كانت تحتبس وتفحص ثم تودع سجلات السجن، مما يعكس عناد وتفاهة المراقبة.[13]

بقي السجناء السياسيون واثقين ثقة فائقة بقوة قضيتهم وأفكارهم، على نقيض كامل لسجناء القانون العادي في الزنزانات الأخرى. وقد قال مانديلا بعد إطلاق سراحه: «الأمر الذي كان مهماً هو حقيقة أن الأفكار التي أرسلنا بسببها إلى جزيرة روبين لن تموت أبداً. ولذلك كنا قادرين على اجتياز بعض التجارب الأكثر قسوة التي يستطيع الكائن البشري أن يخلفها وراءه. خاصة في أحد سجون جنوب إفريقية حيث يختار السجانون من بين الذين كانوا دائماً يعاملون السود كما لو أنهم خرق بالية».[14] يذكر سيسولو: «لم نفقد الثقة أبداً. وإذا

أعدنا التفكير في تجربة ريفونية وجدنا أن الأفكار السياسية التي رفعناها يمكن متابعتها سواء كنا أحياء أو أمواتاً. كنا مؤمنين بالأفكار». [15] وقال كاثرادا: «إذا دخلت السجن بروح سلبية فإن كل دقيقة تصبح سعيراً. لم يكن أحد ليتصور أن مانديلا سيصبح رئيساً، ولكننا كنا نعرف أننا سنفوز». [16] وعلى الرغم من النكسات، كان مانديلا مقتنعاً، كما كتب في عام 1975: «إنني خلال مدة حياتي سأخرج إلى ضوء الشمس وسأمشي ثابت الخطوة». [17] وقال ماك ماهاراج: «إن الإنسان يستطيع التكيف مع أبشع الظروف إذا شعر أنه ليس وحده. وإذا شعر أنه يتمتع بالدعم فيما يفعله». [18] وكان ماهاراج قد وصل إلى جزيرة روبين في أوائل عام 1965.

بعد أسبوعين في الجزيرة حظي السجناء باتصال قصير مثير للشجون مع البر الرئيس عندما سمح لمحامييهم برام فيشر وجويل جوف بزيارتهم، ليسألاهم ثانية إذا كانوا يرغبون بالاستئناف. وقد رفضوا جميعاً. إذ اعتقدوا أن محاكمة ثانية ستكون هبوطاً مفاجئاً. فيما كان مانديلا واثقاً من أن الاستئناف لن ينجح في كل الأحوال. [19] وقد كان سعيداً لرؤية فيشر ثانية، لكنه وقع في حيرة، إذ عندما سأل فيشر عن زوجه مولي أشاح بوجهه. وبعد مغادرة المحاميين قيل له إن مولي قد قتلت بحادث سيارة. وسمح له بكتابة رسالة تعزية، لكن السجن لم يودعها البريد. [20] بعد ذلك بفترة قصيرة لجأ فيشر - إسمه الحركي شورتي (القصير) - إلى العمل في الخفاء، وعندما قام جورج بيزوس، محامي مانديلا الآخر، بزيارة الجزيرة، أشار له مانديلا بإحدى يديه مستفسراً فيما ترك يده الأخرى منخفضة بمعنى «ماذا حدث لشورتي/ القصير؟». [21]

كان نمط حياة السجناء اليومي قاسياً بشكل متعمد، كجزء من عقابهم. حيث كانوا يوقظون في الخامسة والنصف لينظفوا زنزاناتهم ويغتسلوا ويحلقوا بالماء البارد وبدلو معدني. وكانوا يتناولون إفطارهم في الباحة، من برميل مملوء

بحساء الذرة، كان مانديلا غالباً ما يجده غير صالح للأكل، ويقدمون معه شراباً من الذرة المشوية المنقوعة في ماء ساخن. وكان أحد السجانين يقوم بالتفتيش، وكان عليهم أن يرفعوا قبعاتهم له. ثم يعملوا حتى منتصف النهار في الباحة الباردة في منتصف الشتاء، حيث يجلسون في صفوف يضربون الصخر بالمطارق لتحويله إلى حصى! فيما السجانون يراقبونهم. كان عقاباً حرياً به (كما كتب نيفيل ألكساندر في تقريره) أن يدفع أكثر الرجال رباطة جأش إلى حالة من الغضب.. إذ يضطر إلى الجلوس تحت الشمس بلا حراك (لمدة أشهر في البداية) دون السماح له بالحديث مع جاره، وكان ذلك هو الجحيم على الأرض.[22]

في منتصف النهار كانوا يتناولون مزيداً من أكواز الذرة المسلوقة. ثم يعملون حتى الرابعة، حيث يغتسلون لمدة نصف ساعة بالماء البارد في حمام، وهناك يستطيعون تبادل بضع كلمات. ثم يتناولون العشاء، من الذرة أيضاً، أحياناً مع خضار ذابلة أو قطعة لحم، في زنزاناتهم. في الثانية يقوم سجان الليل بدورية في الممرات ليتأكد من أنهم لا يقرؤون أو يكتبون، على الرغم من أنهم كانوا يستطيعون أن يهمس بعضهم لبعض أحياناً، وسرعان ما سمح للسجناء الذين يتابعون دراستهم بالقراءة حتى وقت متأخر. كانت كل زنزانة مزودة بمصباح كهربائي وحيد من فئة أربعين واط، حيث يترك السجناء مع أسرتهم العارية وأفكارهم الموحشة حتى الصباح.

في كانون الثاني (يناير) 1965 بدؤوا عملاً أكثر مشقة في مقلع الكلس، الذي سيكون مركز حياة مانديلا اليومية في السنوات القليلة القادمة. هناك كان عليهم أن يعزقوا الصخر ليصلوا إلى طبقات الكلس، الذي كانوا بعد ذلك يستخرجونه بمعول ورفش. كان المكان، موقع عمل، لا يرحم، لا مهرب فيه أو وقاية من برد الشتاء أو الحر القائظ في منتصف الصيف. وقد قال السجان جميس غريغوري James Gregory: «كنت أحمد الله دائماً لأني لم أكن مجبراً

على دخول تلك الحفرة، لقد كانت فرناً حقيقياً. في الصيف كانت الجدران تصد أية نسمة مرطبة تتسلل من المحيط. لم يقتصر الأمر على أنهم كانوا يحرقون من الأعلى بأشعة الشمس، وإنما أيضاً داخل المقلع حيث كانت أشعة الشمس ترتد عن الحجر الأبيض، وتنعكس على عيونهم وتحرقها». [23] منعت عنهم النظارات الشمسية لثلاث سنوات. وكثير منهم تعرضت أجفانهم للأذى. منع كاثرادا من استخدام نظارات الشمس، لأنه بموجب رسالة من مفوض السجون، كان ينتمي إلى ذلك الصنف من الناس الذي يريد أن يكون فوق رفاقه باستخدامه نظارة شمس وحمله مظلة مطوية وحقيبة أوراق. [24] وبعد ثلاث سنوات سمح لهم بنظارات شمسية إذا دفعوا ثمنها. ولم تشف عينا مانديلا أبداً، وحتى بعد إجراء عملية لهما كان يقرأ بصعوبة.

كان مانديلا يفضل الجهد والهواء الطلق والإطلالات على الطبيعة في المقلع أكثر من الباحة المحصورة. وسرعان ما أصبح بإمكان السجناء العمل بوتيرتهم الخاصة لمدة قصيرة بمساعدة أغاني عمل إفريقية أصبحت نضالاً سياسياً. وعام 1965 انضم إليهم في المقلع ثلاثمئة مجرم، بدأوا يضايقونهم ـ بموافقة السجانين حتماً ـ بأغنية عمل ساخرة. / بيفوناني أي ريفونية/ (ماذا كنت تريد في ريفونية؟) رد السجناء السياسيون بأغاني العمل الخاصة بهم، التي أصبحت أكثر جرأة. وكان بينها أغنية كزوسية تقول: «عمل الرجل الأبيض لا يكتمل أبداً: أمسك ركبتيك»، بمعنى توخ البطء، لكن أحد السجانين، وهو جوردان، كان يفهم الكزوسية، فمنع الغناء. [25]

كان مانديلا في عالم صغير جداً ومغلق. فالسجناء السياسيون الثلاثون الغرباء في قسم العزل لم يكونوا ليتصل بعضهم ببعض إلا عندما يغتسلون، أو يتناولون وجبات الطعام، أو في المقلع. لكنهم كانوا معزولين عن بقية السجن. وتقلصت الأبهة المتغيرة لحياتهم مع أسرهم وزملائهم وجماعاتهم إلى مشهد مصغر من مسرحية طال عرضها، وتعاد.. قال مانديلا، الذي كان دائم

الإحساس بأنه على مسرح: «كان الجمهور الوحيد هو نحن ومضطهدينا».[26] وقال إيدي دانيال: «كنا عالماً من ثلاثين شخصاً».[27]

في قلب هذا العالم كان هناك الرجال السبعة القادمون من ريفونية، الذين يعرفون بعضهم بعضاً منذ عشرة أو عشرين عاماً، ومن ضمنهم مانديلا وصديقاه موضع ثقته سيسولو وكاثرادا، وكان سيسولو يكبره بستة أعوام، وما يزال معلم مانديلا الرئيس. وقد قال فيكيل بام، وهو واحد من السجناء الشباب: «كان نيلسون يعرف أن سيسولو في الحقيقة هو الذي قولبه بأكثر من طريقة. لا أعرف واحداً لا يقبل وولتر كقائد».[28] كتب مانديلا في السجن عن مدى إعجابه برؤية سيسولو الواضحة وحكمته وسهولة مناله وانفتاحه على الأفكار الجديدة، وبساطته وحبه للطبيعة. وقد شارك مانديلا سيسولو في بعض عاداته مثل عبارة «ما تسميه..» وقد ساعد سيسولو في تعليم مانديلا كيف يرى الجانب الأفضل في كل شخص ـ الأمر الذي قد يثير غضب المزيد من زملائه الميالين إلى القتال ـ ولكن في أي وضع خطير كان سيسولو في المقدمة.[29] قال بام عنه: «كان حملاً في البيت، ولكن وقت المطاردة كان ليثاً. كان ليناً في شخصه، لكنه لم يكن ليناً أبداً مع المبدأ».[30]

كاثرادا، أصغر السبعة بفارق كبير، والهندي الوحيد بينهم، كان صامداً بالقدر نفسه، وكان غيرياً وهادئ النفس ربما بسبب سالفته الإسلامية. كان شيوعياً منذ أيام الدراسة، لكنه كان يسخر من العقديين (الدوغماتيين)، وكان مانديلا يستمتع بحضور بديهته المذهل، كان دائماً مخلصاً لمانديلا وكان يناديه / مدالا/ (أي الكبير)، بدافع الاحترام، لكنه، مثل سيسولو، كان يشعر أنه حر في النقد وكان مانديلا يعتبرهما مرآتين يستطيع من خلالهما أنه يرى نفسه بصدق.[31]

غوفان مبيكي كان الأكبر سناً والأفضل ثقافة. كان ضخم الجثة له ابتسامة بريئة وصوت واعظ رنان. ولما كان ابن مزارع مسيحي فقد تلقى تعليمه في

المدارس التبشيرية وسمي باسم أول مدير للوفديل، ويليام غوفان.[32] ومثل مانديلا ذهب إلى هيلدتاون وفورت هير، أصبح بعدها صاحب حانوت، ومدرساً، وصحفياً، ومنظراً سياسياً، وجد في الماركسية ديناً جديداً، وهضم التاريخ والسياسة الاقتصادية بنكهة ماركسية قوية. كان عناده قادراً على إحراج زملائه، كما فعل عندما ألزمهم بعملية ماي بوي، وكان أسلوبه التدريسي مناقضاً لطرح مانديلا المتسائل. وقد قال سيسولو: «كانت النزعة القتالية لديه نظرية، في الوقت الذي كنا مضطرين للواقعية في تقييم وضعنا».[33]

كان ريموند مهلابا قريباً من مبيكي، وكان من الكيب الشرقي، ابن رجل شرطة، ومن أوائل الذين انضموا بشجاعة إلى حملة التحدي. كان مانديلا يحب طرحه الواقعي لكونه / ابن الأرض/[34] كان أكثر تمهلاً من مبيكي وسواه في المشاركة في نقاش سياسي، وأصبح مانديلا يقدر طرحه التصالحي. فقد كان متأثراً بتعليمه التبشيري، وقد سر كاثرادا مرة عندما سمع مهلابا يفقد أعصابه مع أحد السجانين ويناديه: «أنت أيها الـ.. الفاشي». وقال كاثرادا: «أبناء البعثات التبشرية هؤلاء يفضلون العنف على الكلام البذيء».[35]

كان السجينان الريفونيان الآخران أندرو بلانجيني والياس موتسوليدي، من نقابات الطبقة العاملة قد ضحيا بأسباب عيشهما من أجل النضال. وكانا أقل التصاقاً بمؤامرات ريفونية، وتوقعا أن يخلى سبيلهما. وكلاهما ينتمي إلى بيئة فقيرة جداً، وقد ثقفا نفسيهما. وقد تحمل مانديلا بعض المشقة لأجل المساعدة في تعليم أطفال الياس.

أما الأعضاء الآخرون في المؤتمر الوطني الإفريقي المودعون في قسم إفرادي فقد حوكموا في محاكم أخرى. وكان بينهم دينيس بروتوس Dennis Brutus وهو شاعر من بورت اليزابيث، واثنان من المحاربين القدماء في قضية الخيانة هما جورج بيك George Peake وهو من مروجي حملة الملونين من كيب تاون، وبيلي نير Billy Nair وهو مخرب هندي شجاع من دوربان. كان نير

قد أمضى أربعة أشهر في الجزيرة، وقد جعلته المعاملة الرديئة عدوانيا جداً. وعندما انضم إلى قسم العزل صادقه مانديلا وأقنعه بأن يهدأ. تأثر نير بأسلوب مانديلا الرزين، لكنه وجده دائماً متكتماً تكتماً يدعو إلى الجنون بشأن حياته الخاصة.[36]

أوائل عام 1965 وصلت مجموعة من المقاتلين الفدائيين إلى قسم العزل. وقد أصدرت الأحكام بحقهم في أعقاب ما سمي «محاكمات ريفونية الصغيرة». وكان بينهم ويلتون مكواي Wilton Mkayi، وهو نقابي من بورت اليزابيث ترأس حربة الأمة (إم. كي) بعد اعتقالات ريفونية. ولالو تشيبا Laloo Chiba وهو خياط سابق سيثبت أن لديه مهارات لا تقدر بثمن في نسخ الوثائق بخط دقيق جداً، وماك ماهاراج، وهو هندي رفيع الثقافة من دوربان أصبح واحداً من حلفاء مانديلا الموثوقين. كان شخصاً نحيلاً له لحية عنز كبيرة، وقد تلقى تعليمه في مدرسة لندن للاقتصاد بالإضافة إلى جامعة ناتال، كان ماهاراج يجمع حدة الذهن إلى الشجاعة الكبيرة. وقد قاوم التعذيب القاسي. وفي جزيرة روبين سيعيش فترة من اليأس عام 1970 عندما كان في الخامسة والثلاثين، لكنه استعاد صحته المعنوية ليبدأ بالتآمر من أجل مخططات جديدة للهرب.[37]

اختلط أعضاء المؤتمر الوطني الإفريقي مع سجناء من أحزاب سياسية أخرى، مما أتاح لمانديلا فرصة فريدة لمعرفتهم معرفة أفضل. وكان قراراً غير عادي ذلك الذي اتخذته الحكومة باحتجاز جميع السجناء السياسيين في الجزيرة. وقد قال لي فيما بعد الجنرال ويليمز Willemse، أحد الضباط المسؤولين في جزيرة روبين: «إن بعض الناس قالوا إن من الأفضل توزيع السجناء على 165 سجناً في البلاد. ولكن سيكون هناك تأثير سلبي بنشر نفوذهم. وكان من الأفضل أن يبقوا تحت المراقبة».[38] وقال سجين من المؤتمر الإفريقي العام وهو ديكغانغ موسكيني: «اعتقدوا أننا مادة سامة جداً حتمت وضعنا في قارورة واحدة. وكان لذلك فعل السحر».[39]

اعتقد مانديلا أن تلك كانت من أكبر أخطاء الحكومة، لأنها سمحت للأحزاب المنافسة أن تجد أرضية مشتركة. لم تكن موجودة خارج السجن.[40] وسرعان ما أصبحت جزيرة روبين مخبراً سياسياً أو ورشة.

في البداية كان سجناء المؤتمر الإفريقي العام، وهو الهيئة المنافسة الرئيسة للمؤتمر الوطني الإفريقي، هم الأغلبية. وقد احتجز رئيسهم المؤسس روبرت سوبوكوي في بيت منفصل في الجزيرة حتى عام 1969 ـ عزلة قاسية أسهمت في إفقاده الإحساس بالزمان والمكان فيما بعد ـ لكن الآخرين كان الاحتكاك بهم ممكناً أكثر فأكثر. بدأ كثير من أعضاء المؤتمر الإفريقي العام بشجب حاد لسجناء المؤتمر الوطني الإفريقي، وكان بينهم هنود وملونون. وقد قال كويدي مكاليبي الذي وصل عام 1966: «كنا نرى الأمور فقط من زاوية لون بشرة الفرد. ثم أتينا إلى جزيرة روبين. كان الوضع غريباً! لأننا الآن لأول مرة، ربطنا في حزمة واحدة مع المؤتمر الوطني الإفريقي، الذي كنا نعتقد صادقين بأنهم جميعاً ماركسيون. الأمر الذي جعلنا نكون في موقف المغالي في التعصب». ولن ينسى مكاليبي أبداً تماسه الأول مع سيسولو، إذ قال سيسولو: «أنا من منطقتك نفسها، ومانديلا أيضاً من منطقتك. ومانديلا يحب أن يتحدث معك. أنا أعرف موقفك، ولكن هذا ليس المكان المناسب لنعرب عن تبايننا».[41]

وجد مانديلا معظم سجناء المؤتمر الإفريقي العام يفتقدون الشعور بالأمان «معادين للشيوعية ومعادين للهنود عداءً لا يعرف الخجل».[42] اعتقد كاثرادا أنهم «بلا لون، ومتعصبون، ضيقو الأفق وعنصريون»، ولديهم «مركبات نقص كبيرة جداً».[43] لكن مانديلا كان مصمماً على إقامة حوار وأن يجهز أرضية للوحدة فيما بعد خارجاً. فأجرى محادثات مع زيف موثوبنغ Zeph Mothopeng وهو أستاذ سابق ثابت في مبادئه، كان من مؤسسي المؤتمر الإفريقي العام، لكن لم تترك المحادثات أثراً كبيراً قبل أن يغادر موثوبنغ

الجزيرة عام 1967. وأحرز مانديلا نجاحاً أكثر مع خلف موثوبنغ كلارنس ماكويتو Clarence Makwetu الذي أصبح رئيساً للمؤتمر الإفريقي العام فيما بعد، والذي وجده أكثر توازناً ومنطقاً، لكن الحوار تداعى بعد أن غادر ماكويتو وخلفه جون بوكيلا John Pokela.[44] كان معظم سجناء المؤتمر الإفريقي العام يفضلون الاحتفاظ بخلافاتهم مع سجناء المؤتمر الوطني الإفريقي، لكن كثيرين أصبحوا يحترمون آراءهم وقيادتهم.

واجه مانديلا نقاشات ثقافية مجردة أكثر مع التروتسكيين من حركة الوحدة، مناوئيه القدامى. وكان أكثرهم وضوحاً هو نيفيل ألكساندر Neville Alexander، وهو أكاديمي ملون من جامعة كيب تاون يحمل درجة الدكتوراه من توبينجن في ألمانية، الذي تعلم منه مانديلا الكثير.[45]

بقي ألكساندر بعيداً عن الاحتجاج النشط إلى أن تهور بالانضمام إلى جماعة صغيرة متطرفة من المتآمرين هم نادي يوتشي تشان وحكم عليه بتهمة الإفساد وحيازة منشورات عن أعمال التخريب، وأرسل مع خمسة آخرين إلى جزيرة روبين عام 1964. كتب كاثرادا لأحد الأصدقاء عام 1972: «شباب يوتشي تشان المساكين (جميعهم) لم يستفيقوا على حقيقة السياسة إلا مع صدمة اعتقالهم وسجنهم. وبعامة كان طرحهم فجاً ومثالياً».[46]

كان ألكساندر رجلاً صغير الحجم، شاباً وسريع الغضب، كما وصف نفسه فيما بعد، وكان اختلافه الجذري عن مانديلا الأكبر سناً والذي يتحدث ببطء ملفت الانتباه. شعر مانديلا أن ألكساندر متضايق من طوله، «وأنه أحياناً كان يريد أن يرميه بحصاة»، ولكنه اكتشف أنه يستطيع نزع سلاحه بابتسامة.

بدأ ألكساندر برأي وضيع عن المؤتمر الوطني الإفريقي لكونه كياناً عرقياً عزل نفسه عن الحركات الهندية والملونة. لكنه رحب بفرصة الحوار مع مانديلا نفسه. وخلال سنة تحاورا حوار رجل لرجل، لمدة تربو على ثلاثين ساعة حول المسألة القومية: هل جنوب إفريقية أمة؟ كان ألكساندر يعتقد (مثل بقية أعضاء

حركته) بعدم وجود شعور قومي، أو وحدة وطنية في جنوب إفريقية: «كنا نكرس وقتنا لبناء أمة».[47] أصر مانديلا على أن الشعب الإفريقي أمة، بينما الآخرون أقليات أو جماعات وطنية. وعندما طلب ألكساندر من مانديلا أن يحدد أوصاف الشخص الملون مثله هو، أجاب بأن الملونين هم نتاج وحدة أبيض وأسود. أجاب ألكساندر بأن هذا رأي بيولوجي عرقي، وأن لا داعي لمتابعة نقاشهما. يذكر مانديلا أن «نيفيل أعطى وجهة نظر الأحزاب السياسية غير العرقية وأنا قلت إن ذلك كان مبكراً بالنسبة للأشخاص العاديين. انظر إلى ما يحدث في الاجتماعات السياسية، إنهم يبقون متقوقعين ضمن جماعاتهم الخاصة. دعونا نتابع الإصرار على مجتمع متعدد الأعراق، وإن كان ذلك يستغرق وقتاً».[48] أصبحت نقاشات السجن أكثر موضوعية في عقد الثمانين، عندما أنشأ الدعاة من جميع الأعراق جبهة واحدة ضد الأبارثيد. وفي عقد التسعين سيقترب بعضهم من بعض أكثر في حكومة جنوب إفريقية الجديدة، فقد تحدث الرئيس مانديلا بلغة / بناء الأمة/ .

في الجزيرة سرعان ما راجع ألكساندر رأيه بمانديلا. واعترف فيما بعد: «في الأشهر القليلة الأولى كنا كريهين حقاً. ولولا نضج وزعامة نيلسون وولتر وغوفان وآخرين لكان الوضع مرعباً في ذلك السجن.. كنا سنصبح مهمشين تماماً، ومنبوذين من قبل الجميع». رأى ألكساندر في مانديلا حيواناً سياسياً، وليس فيلسوفاً، لكنه كان مأخوذاً برهافة حسه ومهاراته في النقاش. ولاحظ أن مانديلا كان أحياناً يبدي ضعفاً في نقاش، يعود فيما بعد ليحوله لمصلحته، مثل الهجوم المخادع في الملاكمة: «يظن الشخص الآخر أنك ضعيف، ولكن في الحقيقة إن إقرارك بضعفك ما هو إلا قوة» و«في معرض الانتباه الحيوي المنظم والحقيقي لمنطق أي نقاش». كان ألكساندر يعتقد بأن مانديلا في النهاية كان «متقدماً أشواطاً على أي واحد فينا».

تجادلوا بروح رياضية حتى تموز (يوليو) 1967، عندما علموا أن ألبرت

لوثولي، رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي، قد مات. قال ألكساندر: إن لوثولي قد خان رفاقه إذ قاوم الكفاح المسلح وقبل جائزة نوبل للسلام: «من الصعب أن تتحدث في الحرب والسلام في الوقت نفسه».[49] وعندما أقام سجناء المؤتمر الوطني الإفريقي قداساً لذكراه في جزيرة روبين، تهجم ألكساندر على لوثولي تهجماً لاذعاً. فأعرب مانديلا عن استيائه لأن ألكساندر لم يبد أي أسف «حتى أسفاً لا مبالياً لوفاة الرجل».[50] اعترف ألكساندر فيما بعد أنه تسبب في إزعاج لا حاجة إليه، لكنه تألم كثيراً لتعنيف مانديلا له في سيرته الذاتية لعام 1995 لأنه كان رئيساً وقتها، وإذا أعرب عن استيائه من أحد فإنه يصبح كالشيطان.[51]

كان معظم زملاء مانديلا، آلياً، يعتبرونه قائدهم كما قادهم من مخبئه، وكانوا يدلون أي زائر على زنزانته لكونه ممثلهم. وقد قال غوفان مبيكي «لم يكن يرفض أن يسأل، نحن جعلناه الناطق باسمنا عندما أتينا إلى السجن».[52]

بالنسبة لبعض السجناء كان مانديلا ما زال يبدو محتاراً بين دوريه السابقين دور الزعيم التقليدي، ودور القائد الديمقراطي. وقد قال فيكيل بام «كان يميزه ذلك الغرور الذي ينبثق تلقائياً من أصوله في الزعامة. وكان سيسولو هو الذي خلصه من تبعات ذلك».[53] إلا أن زملاء مانديلا المقربين رأوا في استقلاله برأيه جزءاً من سعيه وراء الوحدة والإجماع. قال سيسولو: «لقد حاول أن يكون بناء، وأن يأخذ موقفاً يعتقد أنه أكثر ملاءمة لقائد المؤتمر الوطني الإفريقي فتفادى التعبير عن مشاعره وفضل أن تكون صورته متوازنة».

كان قادة المؤتمر الوطني الإفريقي أوثق ارتباطاً من الآخرين. وقد قال سيسولو: «لقد أنشأنا فريقاً متيناً جداً. لأننا كنا يعرف بعضنا بعضاً معرفة جيدة، ونعرف فيم يفكر الآخر».[54] وسرعان ما أعادوا ترتيب بنيتهم الخاصة في الجزيرة، فعينوا / جهازاً أعلى/ من أربعة سجناء ليكون الهيئة الحاكمة، وجميعهم كانوا في التنفيذي الوطني السابق للمؤتمر الوطني الإفريقي وهم:

مانديلا، سيسولو، مبيكي ومهلابا. وقرر الجهاز الأعلى سياسة تجاه سلطات السجن ونظاماً داخل قسم العزل. وهرّبوا قراراتهم إلى المساجين الآخرين بواسطة لجنة الاتصالات بزعامة كاثرادا وعضوية مايكل دينغاك Michael Dingake جو كابي Joe Gqabi التي اتبعت طرقاً حاذقة لتهريب الرسائل إلى السجناء السياسيين في أبنية أخرى.

كانت معنويات سجناء المؤتمر الوطني الإفريقي تعتمد اعتماداً كبيراً على سماع أنباء طيبة من الخارج، كانت في البداية نادرة. ولكن في عام 1967 وصل مزيد من الفدائيين إلى الجزيرة يحملون قصصاً مثيرة يحكونها عن كونهم قد قاتلوا فعلاً في جنوب روديسية أعضاء في /كتيبة لوثولي/ التي كانت تحاول العبور إلى جنوب إفريقية. وانضم جاستيس مبانزا Justice Mpanza أحد قادة حربة الأمة (إم. كي) إلى قسم العزل، وشعر مانديلا، أول قائد أعلى، بالفخر إذ سمع روايته عن شجاعة القوات وتدريبها، على الرغم من أن الغارة قد فشلت.[55] وفي الزنزانات الجماعية كان سجناء المؤتمر الوطني الإفريقي يهتزون طرباً، وكتب أزديس نايدو: «تدافعنا نحوهم، نستحلب منهم أدق تفاصيل المعارك، وتدريبهم، وأي نوع من الأسلحة استخدموا».

ثم غنوا معاً أغنية / الجنود/ على إيقاع أغنية مركب الموز BananaBoat:

أعطه بازوكا وقنبلة يدوية

وخذ البلاد على طريقة كاسترو.[56]

إلا أن سجناء المؤتمر الوطني الإفريقي توخوا الحذر خشية استعداء الجماعات الأخرى. وعندما اعترض أعضاء من الأحزاب الأخرى على تمثيل / الجهاز الأعلى/ لهم، شكلوا لجنة أوسع سموها أولوندي Ulundi. معنية بمعالجة الأمور العامة، ولها رؤساء بالتناوب، من ضمنهم فيكيل بام الذي كان صلة وصل مفيدة بين مانديلا وحركة الوحدة.[57] لكن / الجهاز الأعلى/ بقي القوة السياسية الرئيسة.[58] في البداية كان أعضاؤها جميعهم ممن يتحدثون

الكزوسية، الأمر الذي كان يضايق الآخرين، الذين كانوا يتذمرون أحياناً من أن لغة الكزوسا تشجع المديح من قبل مانديلا أو مبيكي، حتى إذا تحدثوا بالإنكليزية التي أعطوها شخصية الكزوسية. وقد لاحظ نيفيل ألكساندر أن قصص مانديلا التي بدت جافة بالإنكليزية كانت أكثر حيوية بالكزوسية.[59] لكن مانديلا كان يقضي وقتاً مع أشخاص لا يتحدثون بالكزوسية مثل كاثرادا وإيدي دانييلز، وأضاف / الجهاز الأعلى/ فيما بعد عضواً متناوباً إضافياً ـ تضمن بالتتالي كاثرادا ولالو تشيبا وام. دي. ناديو ـ الذي وسع أفقه.[60]

لم يكن أصدقاء مانديلا كلهم سياسيين. فقد كان أحد أقرب أصدقائه ايدي دانييلز وهو ملون فاتح البشرة وهادئ من كيب تاون كان في الماضي يبحر على شاحنات الصيد. وقد كان ينتمي إلى الحزب الليبرالي لكنه انضم فيما بعد إلى جماعة بيضاء في فرعها العنيف / حركة المقاومة الإفريقية/ ، كانت تقوم بأعمال تخريب، حكم عليه بسببها بالسجن خمسة عشر عاماً، كان الليبرالي الوحيد في الجزيرة، معزولاً وليس موضع ثقة من قبل الرفاق الأكثر عداء للبيض، على الرغم أنه لم يكن مسيساً تماماً. في يومه الثاني التقى برجل ضخم يرتدي بنطلوناً قصيراً وقميصاً (كاكياً) وصندلاً، أبهجه أن عرف فيه شخص مانديلا. وعندما قال: «نادني نيلسون». كانت تلك أول كلمات ودودة يسمعها في السجن. بعد ذلك اخذ مانديلا على عاتقه مهمة إعلام دانييلز شخصياً عن اجتماعاته بزائرين، كي لا يشعر بالعزلة. وسرعان ما دعم دانييلز كل من مانديلا وسيسولو: «عندما كنت أشعر بالتشوش كنت أستطيع معانقتهما فأشعر بقوتهما تنتقل إلي.. لم نكن نستطيع أن نرى المستقبل، فقد كان معتماً. لكن مانديلا كان دائماً يراه».

وذات مرة عندما كان دانييلز مريضاً لا يستطيع حراكاً أتى مانديلا إلى زنزانته وأفرغ المبولة. وعندما اكتشف أحد السجانين أن دانييلز يكتب مذكراته واستدعاه للمثول أمام السلطات في الصباح التالي، أمضى دانييلز الليل يرتعد

خوفاً، ولكن بعد الفطور وجد مانديلا جالساً في زنزانته، ليعزز ثقته: «داني.. أعرف أن بإمكانك التعامل مع هذا الموقف». ويذكر أن دانييلز «شعر أن معنوياته قد ارتفعت، ارتفعت تماماً».[61] بالمقابل كان دائماً يحاول مساعدة مانديلا وسيسولو، قال سيسولو فيما بعد «لقد كان طيباً للغاية. كم كان ذلك محرجاً».[62] أصبح دانييلز وثيق الصلة بمانديلا الذي كان يدعوه داليبونغا. وكان مانديلا يشاركه رسائله التي تأتي من البيت، ويترجمها له إلى الكزوسية، ويتحدث عن أمور بسيطة. كما علم دانييلز أغنية «بوني ماري الأرجيلية» التي وجدها في كتاب، والتي ما زال دانييلز يحب أن يغنيها:

إنه صوتك يا ماري اللطيفة
وابتسامتك الفائزة الحلوة
من جعل العالم جنة
بوني ماري الأرجيلية

وعلمه قصيدة / انفيكتوس/ من العصر الفيكتوري للشاعر دبليو. اي. هنلي:

لا يهم كم البوابة مستقيمة
وكم القائمة تطفح بالعقاب
أنا سيد قدري
أنا قبطان روحي[63]

قال مانديلا فيما بعد: «عندما تقرأ مثل هذه الكلمات تشعر بالشجاعة. إنها تملؤك بالحياة».[64] وكتب في مذكراته في السجن «هناك حقيقة عميقة في فكرة أن / الإنسان يصنع نفسه/ ، وهي حقيقة مرتبطة بتاريخ البشرية، وهي التي صاغت تاريخنا».[65]

كان لمانديلا هذه العلاقات مع كثير من السجناء الثلاثين في بناء العزل. المشكلة الأكبر كانت في التعامل مع السجانين الذين يسيطرون على حياتهم اليومية والذين كانت لديهم القدرة على اضطهادهم. كانوا من طينة غير واعدة:

من الأفريقانيين الشباب عادة، كثير منهم من بيوت فقيرة أو مخربة، وهم دون السجناء تعليماً وثقة بالنفس، الأمر الذي يجعلهم أكثر امتعاضاً وتشبثاً بالأنظمة. وقد نقل كاثرادا عن تولستوي قوله: «حراس السجون لديهم أنظمة مكان القلوب». وكان للحرس خوفهم وتنافساتهم وحاجاتهم، فهم يعيشون في سجنهم الخاص على الجزيرة الجرداء.(66) ومن هنا كانت إمكانية التواصل معهم.

كان مانديلا قد لاحظ من فترات سجنه الأولى أن بإمكانه التأثير في السجانين بمزيد من التوكيد والحزم والاحترام والمعرفة القانونية، وأن بإمكانه الحفاظ على كرامته في المحيط الأكثر إهانة. وعندما قام محاميه جورج بيزوس بزيارة مبكرة للجزيرة في تشرين الأول (أكتوبر) 1964، لم يسمح له بالاقتراب من مبنى السجن. وإنما وصلت شاحنة قفز منها ثمانية حراس يتبعهم مانديلا، يرتدي بنطالاً قصيراً وحذاء بلا جوارب، ودفع ليسير نحوه والحرس يحيطون به. لكن مانديلا مشى منتصب القامة وقد عقد يديه وراء ظهره، وحدد سرعة السير التي تلائمه، وعندما اقترب، تقدم بيزوس لمعانقته، فقال مانديلا: «دعني أقدمك يا جورج لحرس الشرف الخاص بي». وعرفه عليهم بالأسماء. لخصت الحادثة علاقات مانديلا بسجانيه منذ البداية. فهو سيحترمهم على أنهم بشر، مثلهم مثل أي شخص آخر، لكن لم ينصع أبداً، كان تأكداً من أن السجناء سيحددون وتيرتهم في العمل، ولم يكن أبداً لينادي الحراس بلفظة /باس/ كما كانوا يطلبون. وقد حاول السجناء ألا يقولوا /باس/: لكن بعضهم كان يرضي غروره بإضافة /تارد/ بعدها همساً لتصبح /باستارد/ أي ابن حرام. أما مانديلا فقد رفض ببساطة استخدام الكلمة أصلاً.(67)

لاحظ مانديلا وجود هوة كبيرة في خدمة السجن بين القمة والقاع. وكان مسؤول السجون في بريتورية الجنرال ستاين Steyn مهذباً ودمثاً وعلى خلق، وقد سافر إلى الخارج. وكان يرتدي بزات وأحذية أنيقة، وقبعة على الطراز

الحديث، كان يرفعها فعلاً للسجناء. وقد قال السجين مايكل دينغاك «إن سلوكه الحضاري ربما يذهل السجناء الأكثر اعتياداً على الإساءة من الضباط الصغار». [68] لكن زيارات الجنرال للجزيرة كانت نادرة. وسرعان ما أدرك مانديلا أنه كان يتغاضى عن الإزعاجات والإساءة. كان مانديلا يستشيط غضباً من كبار الضباط أكثر من السجانين العاديين. وكان صديقه الأصغر سناً فيكيل بام يعتقد أن ذلك بسبب إحساسه بالفوقية. [69] لكن مانديلا كانت لديه أسبابه؛ فقد لحظ أن «سجاناً عادياً ـ وليس سيرجنت ـ قد يكون أهم بالنسبة إلينا من مفوض السجون، أو حتى وزير العدل.. عندما تكون على علاقة جيدة مع سجاني قسمك يصعب على رؤسائهم أن يعاملوك بخشونة». [70] وعندما وصل مانديلا الجزيرة، لاحظ نيفيل ألكساندر، «أنه أصبح يعتقد أن السجانين ليسوا كلهم أشراراً». ففي إقامته الأولى القصيرة عام 1963 صادف مانديلا سجانين متوحشين مثل الأخوين كلينهانز الساديين، لكنه صادف أيضاً آخرين كانوا على استعداد لمعارضة النظام وإظهار بعض الإنسانية.

وأدرك الآن أن هناك تفاوتاً حاداً بين السجانين، بين أولئك الذين يعاملون السجناء معاملة إنسانية وأولئك الذي كانوا مصممين على أنهم /لن يقاوموا أبداً تفوق البيض/. وكان قد بدأ يعتقد أن «كوننا في موقع أخلاقي أفضل قد يمكننا من تحويل بعض السجانين». [71] لم يقتنع ألكساندر بذلك الطرح تماماً، لكن مانديلا كان يتعلم كيف يتعامل مع السجانين الأفارقة الشباب الذين لا يشعرون بالاطمئنان. وقال لي عام 1996 «لقد استرحت في السجن عندما أدركت أن السجانين ليسوا جميعاً من صنف واحد.. بعض السجانين كانوا يريدون بقائي في السجن إلى الأبد، لكن آخرين أرادوا أن يبقوا معي في الداخل. وقد احتجت إلى بعض الوقت كي أميز». ورأى فرصة سياسية في محاولة الحوار معهم وإقناعهم. وكان دائماً يأمل بهدايتهم. «سرعان ما أدركت أن الأفريقاني إذا تغير فإنه يتغير كلياً ويصبح صديقاً حقيقياً». [72] وبدأ يشرح سياسة المؤتمر الوطني

obeikandi.com

الإفريقي لمسؤولي السجن الزائرين، مما ساعد في تطوير مهاراته في النقاش. رأى سيسولو في هذه النقاشات مقدمة لنقاشاته فيما بعد مع الحكومة: «إن التفاوض نفسه هو عملية تبدأ من هذا المصدر».[73]

في كانون الأول (ديسمبر) 1966 وصل سجان جديد هو جيمس غريغوري James Gregory إلى الجزيرة. وكان قد أمضى طفولته بين الزولو، ويتحدث الزولو والكزوسا بطلاقة، وسيصبح مشهوراً فيما بعد من خلال كتابه الرائج جداً «وداعاً يا بافانا Goodbye, Bafana»، الذي كان يصف محادثاته مع سجينه.[74] في الحقيقة لم يعرف مانديلا غريغوري جيداً، لكن، كما قال هو: «هو كان يعرفنا، لأنه كان مسؤولاً عن مراجعة بريدنا القادم والمغادر».[75] قدم غريغوري نفسه في كتابه كصبي ريفي ساذج فوجئ إذ وجد السجناء أفضل منه بمراحل في مجال الثقافة، «وسرعان ما رأى في مانديلا قائداً حقيقياً، مثال الرجل المهذب».[76] لكن السجانين الذين أصبحوا أصدقاء حقيقيين للسجناء، مثل كريستو براند Christo Brand، كانوا يشكون بغريغوري، وكان السجناء يشعرون دائماً بأن غريغوري يتجسس عليهم، فيسترق السمع أثناء الزيارات، ويراقب البريد، وذلك جزء من نظام الاستخبارات في فرع الأمن.[77](*)

احتفظ مانديلا بهدوئه مع السجانين. وقال للآخرين إن الرد بأسلوبهم نفسه يعني النزول إلى مستواهم. وراقب الرفاق القدامى، الذين يعرفون انعصابه السابق، بذهول كيف كان يكبح نفسه أمام التحرشات المهينة. ونادراً ما كان ينفجر غضباً. وفي أحد الأيام عام 1968 كان السجناء يحتجون للكابتن هويسامين Captain Huysamen، وهو أحد أكثر الضباط عناداً، أن السجانين يخربون دراستهم باحتجازهم المواد. رد هويسامين بإهانة، فانفجر مانديلا الذي

(*) كتاب غريغوري، الذي نشر عام 1995 تضمن روايات حميمة عن علاقات مانديلا الأسرية التي ترامت إليه. وقد قرر الرئيس مانديلا - كما صار وقتها - ألا يطلب إنذاراً قضائياً، لكن دائرة السجون أعلنت رسمياً عن عدم علاقتها بالكتاب.

كان يقف في المؤخرة. كان نيفيل ألكساندر يقف قربه: كان دائماً يرى مانديلا كامل السيطرة على نفسه واعتقد أنه أصيب بثورة هياج: «كان الأمر مذهلاً وصاعقاً للجميع لأنهم لم يروه أبداً يفقد السيطرة على أعصابه أمام الملأ». وعندما هدأ مانديلا، قال ألكساندر: «كان ذلك ثقيلاً بعض الشيء». إلا أن مانديلا أجاب:

«لا، لا، كان ذلك مقصوداً». وقد آتى ثماره بلا شك، فانصرف هويسامين وذيله بين ساقيه.

تذكر ألكساندر أن مانديلا «عندما يهتاج اهتياجاً شديداً أو يفقد هدوءه فإنه يصبح شخصاً مرعباً، لكن ليس متعذر الضبط».[78]

وقد فقد مانديلا السيطرة على أعصابه حقيقة بعد سبعة أعوام مع الليفتنانت برينز Prins، مدير السجن المتكبر، عام 1975. كان برينز قد رفض السماح لويني بزيارته لسبب كاذب وهو أنه لا يريد أن يراها. وعندما ناقشه مانديلا أجاب برينز بأن ويني كانت تبحث عن الدعاية فحسب، وأضاف بعض الإهانات، استشاط مانديلا غضباً، وتقدم نحوه وكاد يضربه، إلا أنه ضبط نفسه وأطلق شلالاً من الشتائم، قال لبرينز والشرر يتطاير من عينيه: إنه خسيس، وبلا شرف. فوجئ كاثرادا! الذي كان يراقب المشهد هو ودانييلز، لسماع مانديلا يشتم.[79] وعندما انضم مانديلا إلى رفاقه في القسم ب كان يلهث، وهمس أحدهم: إنه بحاجة إلى مهدئ.[80] سرعان ما شعر مانديلا بالخجل لأنه فقد السيطرة على نفسه، الأمر الذي اعتبره انتصاراً لبرينز، ودفع الثمن، ففي اليوم التالي اتهم بتهديد مدير السجن، إلا أنه رد الاتهام ـ بأسلوب قانوني عقلاني جداً ـ باتهام مضاد ضد برينز ورؤسائه بسوء التصرف، وبالتالي أسقط الاتهام.[81] قلة من الزوار الأجانب سمح لهم بدخول هذا العالم المنغلق على ذاته. لكن بعيد وصول سجناء ريفونية قام بزيارتهم رجل إنكليزي قيل إنه خبير بالسجون.. وأدركوا أن هذه كانت مناسبة خاصة عندما وزعت عليهم قطع من

قماش الجيرسيه لخياطتها، بدلاً من تكسير الحجارة المعتاد. وبمجرد مغادرة الزائر، يقول أندور ملانجيني: «أحضرت حجارة وصخور كبيرة إلى الباحة على عربات بعجلات»[82].

وتبين فيما بعد أن الرجل الإنكليزي هو برنارد نيومان Bernard Newman، كاتب مختص بأدب الرحلات ومحاضر في التجسس، وكان يؤلف كتاب /رحلة في جنوب إفريقية/، وأصبحت تربطه بالشرطة علاقات صداقة، لذلك رتبوا له زيارة جزيرة روبين.

وقد تحدث إلى مانديلا في زنزانته التي وجدها /مضيئة ومهواة/: لكن مانديلا تذمر من كونها «باردة ورطبة»، وأنه لا يسمح له بأكثر من حمام واحد في الأسبوع، وأن الطعام يسبب له آلاماً في المعدة. اقتنع نيومان من الحاكم الكولونيل ويسيل Wessels أن /متاعب التكيف/ ستعالج. وكتب مقالاً في صحيفة التايمز اللندنية، وقال فيما بعد للصحفيين: إن الأوضاع هنا أفضل منها في كثير من السجون التي زارها في روسية وبريطانية.[83]

بعد ستة أسابيع، يوم 31 آب(أغسطس)، أتى صحفي لزيارة مانديلا، يفترض أنه من الديلي تلغراف اللندنية، وقبل الزيارة أسندت إليه مهمة خياطة الثياب بدل تكسير الحجارة، فكتب إلى الضابط المسؤول عنه: «في الحالتين أدنت الأوضاع في هذا السجن من ألفها إلى يائها. وبالرغم من ذلك نشرت تقارير صحفية تفيد بأني ألقى معاملة مرضية»..[84] وفيما بعد، في آذار (مارس) 1965 شكا إلى مسؤول السجون أنه قال لأحد الصحفيين إن جزيرة روبين كانت «تطور لتصبح سجناً نموذجياً»، بينما الطعام لم يكن يؤمن القيمة الغذائية الكافية: «وقد تداعت حالتي الصحية بشكل كبير وملحوظ». وعلق الضابط المسؤول «إنه يأخذ وضعية القائد لرفاقه السجناء وهو بهذا يروج هذه الآلام المتخيلة».[85]

في الشهر التالي، نيسان (أبريل) 1965 نشرت صحيفة صنداي تايمز اللندنية نصف صفحة عن «قلعة جنوب إفريقية» مع صورة فوتوغرافية للسجناء

تظهر فيها مطارقهم ـ مانديلا بجوار بيلي نير وكاثرادا ومبيكي ـ بالإضافة إلى صورة أخرى لمانديلا يرتدي بنطالاً قصيراً ويخيط القماش. وجاء في العنوان: إن مانديلا احتج بحدة عندما كان على مرمى السمع ـ بحسب العنوان ـ مشيراً إلى بنطلونه (الكاكي) القصير المجعد وهو يقول: «جميع طرق الوسائل الوحشية لتدمير كرامتنا» تسللت بعض نسخ من الصحيفة بالبريد الجوي عبر حاجز الرقابة في جنوب إفريقية، ولكن سرعان ما جمعتها الشرطة قائلة: «إن قول مانديلا عبارة عن ديناميت وقد طمسناه بالأسود على جميع النسخ الباقية».[86]

زائر محير آخر عام 1964 كان محامياً أمريكياً اسمه هيندينغ Hending، يفترض أنه يمثل نقابة المحامين الأمريكيين. اجتمع السجناء في الباحة للقائه، بآمال كبيرة، لكنهم صدموا إذ رأوا أمامهم شخصاً فظاً، أشعث الشعر، نصف مخمور، كان يبصق طوال الوقت.

اختير مانديلا ليكون ناطقاً باسمهم، لكنه عندما تشكى من أوضاع السجناء والأشغال الشاقة، كان هيندينغ يقاطعه باستمرار، وأخيراً انفجر مانديلا غضباً: «لا، أنت لا تستمع!». هنا قال هيندينغ: «إن هناك سجوناً أمريكية أسوأ من هذا بكثير، وربما كان هؤلاء السجناء يستحقون الحكم بالإعدام في كل الأحوال».[87]

لم يكن لدى مانديلا ما يدعوه إلى الشعور بالامتنان لنقابات المحامين، لكنه كان يعرف كيف يستخدم القانون. فبعد سنتين من العمل في مقلع الكلس تنامى إليه أن جمعية محامي الترانسفال تنوي شطب اسمه من جداولها بسبب أفكاره ومعتقداته ـ بعد مرور أربعة عشر عاماً على محاولتهم الأولى في أعقاب حملة التحدي ـ فطلب حق الدفاع عن نفسه، وأن يذهب إلى بريتورية وأن يتاح له مراجعة كتب القانون. وبعد أشهر من المراسلات، رفضت سلطات السجون إعطاءه الإذن. فاعتقد مانديلا أن الحكومة خافت من الدعاية التي سيلقاها إذ

يظهر أمام المحكمة، لأنها كانت تريده أن ينسى.[88] وبالتالي سحبت نقابة المحامين طلبها.

لكن الحكومة كانت تواصل إزعاج مانديلا في السجن. ففي تموز (يوليو) 1966 سلمه (سيرجنت) رسالة باليد من وزارة العدل تقول فيها: إن اسمه ورد في قائمة أسماء أعضاء وأنصار الحزب الشيوعي، بلغة قانون حظر الشيوعية لعام 1950. أجاب مانديلا: «أنكر بإصرار أنني كنت عضواً في الحزب الشيوعي في جنوب إفريقية منذ 1960 أو في أي وقت آخر»، ثم طرح اثني عشر سؤالاً يطلب فيها تفاصيل عن أية شهادة خطية تحت القسم استند إليها في توجيه هذه الاتهامات، وعن أية اجتماعات يفترض أنه حضرها. وبعد أربعة أشهر قيل له إن اسمه لن يدرج في القائمة.[89](*)

لكن وزارة العدل وبعد تأخير طويل، عادت بادعاء مختلف: إن مانديلا خالف قانون حظر الحزب الشيوعي أثناء حملة التحدي عام 1952. أجاب مانديلا في كانون الأول (ديسمبر) 1969 بأن الحملة« لم يكن لها علاقة لا من قريب ولا من بعيد بالشيوعية» وبأن الحكومة تحاول أن تجعل منه كبش فداء. وقد برئ في رسالة سرية أرسلت في تموز (يوليو) 1970 إلى مفوض الشرطة من قبل دي. بي. ويلكوكس D.P. Wilcocks المصفي الرسمي للحزب الشيوعي، حفظت في أرشيف السجن:

> أعتقد أنه في ضوء الأدلة المتاحة لا يمكن القول إن مانديلا كان مسؤولاً أو يشغل منصباً أو عضواً أو نصيراً ناشطاً في الحزب الشيوعي لجنوب

(*) في الحقيقة ليس في سجلات وزارة العدل أي دليل حقيقي على أن مانديلا كان عضواً في الحزب: كان هناك فقط تصريح لفريد كارنيسون Fred Garneson، المدير السابق للغارديان بأنه حضر مرة اجتماعاً للجنة المركزية كان مانديلا حاضراً فيه، وتصريح لبيت بيليفد Piet Beyleld (وهو شيوعي سابق لا يعتمد عليه أصبح شاهداً لصالح الدولة) أن مانديلا حضر مرة المؤتمر الوطني للحزب الشيوعي في جنوب أفريقية.[90]

إفريقية. وإلى أن يظهر أي دليل جديد في هذا الخصوص تُعدُّ القضية مغلقة[91]

كانت الجزيرة حالة تستحق الدرس بالنسبة للمنظمات الإنسانية. فبعد سنة من وصول سجناء ريفونية تحسن نظامهم الغذائي فجأة، وبعد ذلك بفترة وجيزة قام الصليب الأحمر بزيارتهم. والتقى مانديلا بالممثل الإقليمي هانز سين Hans Sen الذي كان خياراً غريباً لكونه كاثوليكياً سويسرياً هاجر إلى روديسية وأصبح الآن متحرراً من الوهم في عمله. وقد قال لصديقه الكاتب دوريس ليسينغ Doris Lessing «إن معرفة ما يجري في كافة الأمكنة كاف لأن يجعل أي إنسان يكره الإنسانية». [92] أعطى مانديلا سين قائمة بطلبات السجناء؛ تتضمن طعاماً أفضل، وزيارات ورسائل أكثر، وبنطلونات طويلة، وجوارب وثياباً داخلية. وعندما علق سين بأن الخبز كان رديئاً بالنسبة لأسنان الأشخاص السود، شك مانديلا بأن يحمل هذا مواقف عنصرية. كان هناك بعض التحسينات؛ من ضمنها البنطلونات الطويلة، لكن النظام الغذائي سرعان ما عاد إلى طبيعته، وكان تقرير تال للصليب الأحمر حول جزيرة روبين إيجابياً لدرجة أن بريتورية نشرته في الأمم المتحدة. [93] واحتاج السويسري إلى سنوات ليدرك الصعاب والأهمية السياسية للسجن.

الزائر الأكبر أثراً كان من داخل جنوب إفريقية، وهو هيلين سوزمان Helen Suzman العضو الوحيد للحزب التقدمي الليبرالي في المجلس النيابي، التي أصرت على الزيارة بعد سماعها قصصاً عن الأوضاع التعيسة.

رحب السجناء بها، وبالرائحة النادرة للعطر في زنزاناتهم. أبلغوها أن السجناء الثلاثين يواجهون ما يربو على تسعين تهمة في السجن. ودلوها على زنزانة مانديلا الذي تحدث جهاراً عن الطعام والثياب الرديئين. وعن عدم توافر الصحف والكتب، وعن سجان متوحش (اسمه فان رينسبورغ Van Rensbarg ويلقب بالحقيبة «suitcase») يحمل وشم صليب معقوف، فيما كان آمر السجن

ومفوض السجون يستمعان. وتذكر سوزمان أن «مانديلا تجاهل وجودهما كلياً، كان له حضور آسر على كل من السجناء والسجانين، دون أدنى شك». [94]

كان مانديلا مقتنعاً بأن سوزمان كانت إلى جانب السجناء أصلاً. وكتب: «كان منظراً غريباً ورائعاً أن ترى هذه المرأة الشجاعة تطل داخل زنزاناتنا وتتجول في باحتنا». [95]

ولدى عودتها كتبت سوزمان عن الأوضاع غير الإنسانية. وذكرت فيما بعد أن «الأوضاع كانت رديئة في السجن إذ ذاك. إن السجانين يعتقدون أن الظروف يجب أن تكون بالقسوة الممكنة، لمزيد من العقاب. كان بعض السجانين نازيين فعلاً». [96]

وبعد ذلك بفترة وجيزة نقل فان رينسبورغ، وبدأت الأمور تتحسن. وقد رأى السجناء في زيارة سوزمان منعطفاً. حيث كتب نيفيل ألكساندر: «لا أحد يعرف ما قد يحدث». [97] ستقوم سوزمان بزيارة مانديلا سبع مرات أخرى في السجن، وتفتح معه حوارات مشوقة. لم يكونا أبداً ليتفقا حول العنف. ففي زيارتها الثانية عام 1969، قال مانديلا: إن سجناء المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يطلق سراحهم، تماماً كما أطلق سراح الثائر الأفريقاني روبي ليبراندت Robey Leibbrandt أخيراً برغم خيانته أثناء الحرب العالمية الثانية. قالت سوزمان: إن ثورة ليبراندت قد هزمت، فيما لا يزال نضال المؤتمر الوطني الإفريقي مستمراً. وسألته: «هل أنت مستعد للقول إنك ستتخلى عن العنف؟» «ولم يكن مانديلا يستطيع ذلك. وبهذا لم تستطع سوزمان المطالبة بإطلاق سراحه». [98] لكن السجناء سيشعرون بالامتنان لها دائماً لمساعدتها العملية. وقد كتبت لي بعد ثلاثين عاماً: «لم يكن لدي أدنى فكرة عن أن هذا سيكون له تأثير طويل الأمد على الصداقة مع الشباب الذين التقيتهم هناك. لقد بقي أصدقائي السجناء أوفياء في إخلاصهم برغم التزامي غير الصحيح سياسياً بالليبرالية». [99]

في أيلول (سبتمبر) 1970 أتى لزيارة مانديلا دينيس هيلي Denis Healey

السياسي العمالي البريطاني المناضل الذي التقاه قبل ثماني سنوات في لندن. عام 1967، إذ كان وزيراً للدفاع، حاول هيلي متابعة بيع بعض الأسلحة لجنوب إفريقية مظهراً بذلك، كما اعترف فيما بعد، «لا مبالاة كبيرة بكراهية الأبارثيد سواء في حزبي أو في الكومنويلث». والآن في أعقاب هزيمة حكومة هارولد ويلسون العمالية، كان هيلي يعارض مخططات إدارة إدوارد هيث المحافظة بالبدء ببيع الأسلحة، على حسب تعبيره: «لأكفر عن جريمتي». صدم هيلي بتحول مانديلا منذ عام 1962، فبدلاً من الرجل الملتحي الأسود الذي التقاه في لندن، كان مانديلا «حليق اللحية والرأس شاحباً»، لكن معنوياته كانت عالية، كان حسن الاطلاع لدرجة مدهشة على ما يجري في العالم الخارجي، «وسلطته الأخلاقية، حتى على سجانيه كانت بلا حدود».[100]

بعد ثلاثة أعوام ونصف بدأت الظروف بالتحسن، وأصبحت معاملة السجناء حضارية دون توتر[101]، فقد سمح لهم بارتداء البنطلونات الطويلة والقمصان الصوفية في الشتاء، وأصبح بإمكانهم الحديث في المقلع وفي الباحة. كانوا أحياناً يتلقون البيض والفواكه، لكن مانديلا لم ير من التغييرات التي وعد بها الصليب الأحمر ما يذكر. فالنظام الغذائي ما زال في حدوده الدنيا، ولم تكن الصحف متاحة، ولم يسمح لهم بوسائل الاستجمام التي يسمح بها لكبار السجناء. ومازال العمل منهكاً، وما زال السجناء يتعرضون لاعتداء السجانين. في تشرين الثاني (نوفمبر) 1970، بعد أن زار فيليب زوغر ممثل الصليب الأحمر الجزيرة، تذمر مانديلا من «متابعة تكسير الصخر والكلس دون هدف»، كما نوه بأن انقطاع السجين عن أخبار العالم الخارجي «يجمده في الموضع الذي كان فيه عندما أودع السجن».[102]

بحلول هذا الوقت كان مانديلا قد أصبح بوضوح الناطق باسم السجناء السياسيين من جميع الأحزاب. وقد حذره المفوض، الجنرال ستين الأنيق، من مغبة التحدث باسم الآخرين الذين ـ كما قال ـ يستطيعون الشكوى كل بنفسه.

وقال: «يا نيلسون تذكر أنك أنت سجين ليس إلا!».[103] لكن مانديلا رفض قبول هذا المنع. وفي كانون الثاني (يناير) 1970 كتب رسالة شكوى طويلة إلى ستين باسم جميع السجناء. أتت الرسالة مثل تقرير رسمي من رئيس الدائرة، بدأت الرسالة: «لقد قبلنا دائماً أن الحزم والقصاص أدوات ضرورية للحفاظ على القانون والنظام في السجن، لكننا نؤمن بأن الكائنات البشرية يمكن التأثير بها بالسلوك النموذجي من قبل المسؤولين أكثر من استخدام القوة الوحشية». وتابع مانديلا ليشتكي من الاعتداء على السجناء، والأشغال الشاقة في مجموعته:

> أكثر من خمس سنوات مضت ونحن نجبر على أداء أعمال شاقة، وغير إبداعية تستنفد طاقتنا. وفي بعض الحالات تؤثر سلباً على صحتنا، خلال هذه الفترة حكمتم علينا بعمل (روتيني) هو إما تكسير الحجارة أو نقرها أو جرفها، وحرمتمونا فرص أي نوع من التدريب المهني، أو أي عمل قد يشجع ويطور احترامنا لذاتنا، والمثابرة والإحساس بالمسؤولية لدى السجين، ولم تبذل أية جهود لمساعدتنا على العيش بطريقة محترمة وذات معنى عندما يخلى سبيلنا.

وختم رسالته بتحذير خطير:

> أشعر أن التوتر يزداد حدة والصبر يعيل بسياسة دائرة واضح أنها غير معنية بخيرنا وصلاحنا، وأحثكم على التصرف بسرعة واتخاذ الإجراءات المناسبة لمعالجة الوضع قبل أن تخرج الأمور عن نطاق السيطرة.[104]

ردت بريتورية بأن زادت الأمور سوءاً، فعَينت أواخر عام 1970 قائد وحدة جديداً هو الكولونيل بيت بادينهورست Piet Badenhorst، الذي وصل إلى الجزيرة مع ما اشتهر به من وحشية، وبصحبته بعض السجانين الجدد السفاكين. لاحظ مانديلا أن بادينهورست كان الأكثر فجاجة بين جميع قادة الوحدات، يدير جزيرة روبين كما لو كانت تحت الأحكام العرفية. بدا ذلك جزءاً من تغيير مقصود في السياسية، لقد قيل لمانديلا إن معاملة السجناء

السياسيين تقرر جماعياً من قبل سلطات السجن وفرع الأمن، الذي كان يزداد قوة منذ إنشاء فرع أمن سري موسع BOSS عام 1969.[105] وقد كتب أحمد كاثرادا إلى صديقته سيلفيا نيم Sylvia Neame: «لقد باشروا نوعاً من حكم الإرهاب. إنهم لا يعرفون سوى الانتقام والعقاب. «أصبح الحرس الآن يترقبون أي عذر لاضطهاد السجناء وحرمانهم من وجبات الطعام ومنعهم من قراءة أي شيء ـ حتى لو كان شكسبير ـ لا يمت لدراستهم بصلة».[106]

وسرعان ما أوقفهم بادينهورست عن دراسة أي شيء، لأنهم ـ كما قال ـ كسالى.. وخلاف أسلافه فقد رفض بادينهورست حتى الكلام مع مانديلا، وعندما كان يراه في المقلع كان يصيح به باللغة الأفريقانية: «مانديلا.. أخرج إصبعك من استك».[107]

آخر أيار (مايو) 1971 وصل حكم الإرهاب إلى ذروة امتحنت كل ما لدى مانديلا من ضبط النفس. كانت عشية الذكرى السنوية العاشرة لقيام الجمهورية (وآخر ضربة انقلابية للمؤتمر الوطني الإفريقي) وكان السجانون قد روجوا شائعات بأن بعض الأحكام ستخفض بمناسبة الاحتفالات. لكن الجو في بناء العزل أصبح متوتراً منذ وصول مجموعة من السجناء الناميبيين من منظمة الشعب الإفريقي الجنوب غربي (سوابو)، وعلى رأسهم مؤسس المنظمة تويفو جا تويفو Toivo ja Toivo، الذي بدأ إضراباً عن الطعام انضم إليه فيه بقية السجناء. ويوم الجمعة 28 أيار (مايو) اندفعت مجموعة من السجانين السكارى داخل الزنزانات، وكان بينهم كبير السجانين السادي السيئ السمعة كارستنس Carstens، المشهور باسم /الشيطان/ (الذي أظهر، على حد تعبير ألكساندر، ضراوة ضيق تفكير الزوج الخاضع لسيطرة زوجته).[108] وطلبوا من الجميع التعري، وأبقوهم مرفوعي الأيدي نصف ساعة في البرد القارس، بينما قاموا بتفتيش كل زنزانة. انهار غوفان مبيكي وأخذ إلى المشفى في كيب تاون. وبكى فيكيل بام لشعوره بالإحباط. وكانوا يسمعون السجانين يضربون السجناء في

الزنزانات المجاورة، يضربونهم ويلوون خصياتهم. وعندما قاوم تويفو ضرب وألقي أرضاً، ثم أجبر على تنظيف زنزانته المضرجة بالدماء.[109]

يذكر كاثرادا أن ذلك كان «أسوأ يوم أذكره. كان مرعباً، ولن أنساه ما حييت». .[110] وقال سيسولو: «شعرت بالغضب والمرارة. كان ذلك أفظع غزو لخصوصيتنا».[111] ولم يعرف السجناء السبب أبداً، لكنهم شكوا في أن السجانين قد أزعجتهم بعض الأخبار السياسية السيئة، مما كان دائماً يجعلهم (كما كتب أحد السجناء) «خطيرين مثل عقارب محاصرة».[112]

قال ماك ماهاراج: «الوحشية كانت دائماً ترتبط بحدث خارجي، سواء الفدائيون، أو الروكبي، أو متاعب الحدود، أي شيء يهدد رأي السجانين ببلدهم».[113]

بقي مانديلا هادئاً، وكان أيدي دانييلز واثقاً أن حضوره السلطوي أنقذه وآخرين من هجمات كثيرة.[114] كان مانديلا مصمماً على الوقوف في وجه طغيان بادينهورست، وهرب رسالة إلى أصدقاء له في الخارج ليضغطوا من أجل صرفه. وبعد ذلك بوقت قصير قاد مانديلا وفداً من السجناء لمقابلة بادينهورست، مهددين بالإضراب ما لم تحسن ظروفهم. فوجدوه استرضائياً لدرجة مذهلة، وبعد شهر وصل ثلاثة قضاة إلى الجزيرة مع مفوض السجون. وعندما طلبوا رؤية مانديلا بمفرده أصر بجرأة على ضرورة حضور بادينهورست، ثم وصف الضرب الوحشي الذي تعرض له أحد السجناء مؤخراً. انفجر بادينهورست قائلاً: «إذا تحدثت عن أشياء لم ترها فإنك ستدخل نفسك في مشاكل»، فقال مانديلا للقضاة بهدوء: «إذا كان بإمكانه أن يهددني هنا، في حضوركم، فلكم أن تتصوروا ما يفعله في غيابكم». اعترض القاضي الأدنى مرتبة مايكل كوربيت Michael Corbett بحدة أثناء شهادة مانديلا حول تصرف بادينهورست، مما ترك أثراً واضحاً.[115] وبعد ثلاثين سنة ذكر الرئيس مانديلا كوربيت، الذي أصبح رئيس المحكمة العليا، في مقاطعته، وعلق: «تلك

الشجاعة والاستقلالية كانت نادرة». [116] وبعد ثلاثة أشهر من زيارة القضاة نقل بادينهورست هو وعصبته الوحشية من السجانين. وقبل أن يغادر قال بادينهورست لمانديلا: «أريد أن أتمنى لكم حظاً طيباً». أخذ مانديلا على حين غرة، لكنه أجاب بأمنيات طيبة مماثلة. وشعر أن قناعته تأكدت بأن الرجال الأشرار أيضاً يمكن أن يتغيروا: «لقد تصرف بادينهورست تصرفاً وحشياً لأنه كان يجزى لتصرفه الوحشي». [117]

لم يكن مانديلا السجين الوحيد الذي يرى السجانين عبيداً للنظام. إذ قال نيفيل ألكساندر: «هؤلاء الأشخاص ينقلبون رأساً على عقب عندما يتلقون أوامر مختلفة. والوحوش الحقيقيون يصبحون حمائم وملائكة سلام». [118]

لكن مانديلا مضى أبعد من الجميع في اعتقاده بأن السجانين يستحقون الشفقة بدل الكراهية، ونسي أبشع التماديات، حتى أن كاثرادا لم يستطع أن يسايره في بعض تحمله. فقد كان مانديلا قادراً على رؤية ما وراء مظاهر الوحشية، من أحاسيس بعدم الثقة، والتشوهات النفسية لدى السجانين، وكان يرى السجن عالماً مصغراً لجنوب إفريقية في المستقبل، حيث المصالحة والتسامح من ضرورات البقاء.

obeikandi.com

16

قوي يملؤه العزم والتصميم

1971 ـ 1976

سرعان ما اكتسبت جزيرة روبين سمعة في العالم الخارجي لكونها / فوهة جحيم/ ـ عنوان كتاب ألفه موسى دلاميني ـ وهو من سجناء المؤتمر الإفريقي العام، وقد أمضى هناك سنتين حتى عام 1969.[1] لكن بحلول عقد السبعين لم تعد الظروف جهنمية، على الرغم من أنها بقيت قاتمة. وجزيرة روبين، مثل الباستيل، أو قلعة بيتر وبول في سانت بطرسبرغ[2]، أصبحت في الخارج رمزاً قوياً لطغيان نظام جنوب إفريقية. لكن الأسطورة أصبحت مرعبة أكثر من الحقيقة.

كان ميزان القوة قد بدأ يتغير. ففي كانون الأول (ديسمبر) 1971 حل رئيس جديد للسجن هو الكولونيل ويلي ويليمزي Willie Willemse محل بادينهورست المكروه، وويليمزي، بشاربه المقصوص وأسلوبه الراقي، كان يعطي أوامره بحال أكثر استرضاء. فقد قال له مفوض السجون الجنرال ستين؛ إن عليه أن ينهج أسلوباً أكثر تفتحاً لأن الحكومة (كما فهم ويليمزي) كانت مضطرة لأن تحسب حساب المشهد السياسي في الداخل والخارج. وقال بعد خمس وعشرين سنة: «طلب إلي أن أغير الجو. ففتحت بابي للجميع. كان من الأفضل معالجة الشكاوى في السجن، خير من أن تأخذ طريقها نحو الأعلى. قلت لهم إن علينا أن نكون أصحاب مهنة، كمهنة الطب.. كنت أدرك أنهم قادة سياسيون. ولم يكونوا أشخاصاً جبناء».[3]

كان بإمكان ويليمزي التحول فجأة من الوقار إلى القسوة. لكن معظم السجناء كانوا يحترمونه. وقد قال نيفيل ألكساندر: «لقد لاحظنا جميعاً أنه شخص رفيع المستوى».[4] وسرعان ما أقتنع زوار الصليب الأحمر، كما قالوا لمقر قيادتهم في جنيف، أن ويليمزي كان «يبذل قصارى جهده ليبقى على علاقة محترمة مع النزلاء المكلف برعايتهم. وقد حل كثيراً من المشاكل».[5]

أدرك ويليمزي أنه لا يستطيع السيطرة على السجناء دون تعاونهم. وخاصة مانديلا. فقد كان مانديلا يقول: «إن النزلاء، وليس السلطات، كان يبدو أنهم يديرون السجن».[6]

كان السجناء قد توقفوا عملياً عن العمل، مع انخفاض عدد السجانين الذين يراقبونهم. وقد كتب كاثرادا عام 1971: «إننا نذهب إلى المقلع ولا نفعل شيئاً». .[7] فلجأ ويليمزي إلى مانديلا للمساعدة في فرض بعض النظام في المقلع. وأقنع مانديلا رفاقه السجناء بمتابعة العمل ولكن على وتيرتهم ووطد ويليمزي علاقته الخاصة مع مانديلا، فهو أيضاً نشأ في الترانسكي، ويستطيع أن يتحدث عن الريف الجميل والأطعمة الكزوسية، وكان مانديلا يجيبه بالأفريقانية ويحدثه عن تاريخ الأفارقة. ويذكر ويليمزي: «مانديلا كان له وضع خاص. فقد كان محنكاً في سياسة التغيير. ولم أشعر أبداً أنه كان ينتظر الانتقام. ولم ألحظ مرارة لدى أي منهم، إلا أن مانديلا لعب دوراً في إقناعهم».[8]

كان الصليب الأحمر في جنيف يلعب دوراً سرياً الآن في تحسين أوضاع السجناء. وفي عام 1972 عين الصليب الأحمر مندوباً عاماً جديداً في إفريقية هو جاك موريون Jacques Moreillon، الذي قام بثلاث زيارات للجزيرة خلال ثلاث سنوات. وحرص على الابتعاد عن المدافعين السياسيين مثل هيلين سوزمان، لكنه تابع الضغط لوضع حد لعمل المقلع ولمزيد من الحرية للدراسة (وقد استطاع تحقيق الأمرين) وإمكانية معرفة الأخبار «الذي لم يسمح به حتى أيلول (سبتمبر) 1980». وفي العام 1974 ناقش مع وزير العدل جيمي كروغر

Jimmy Kruger أن السجناء السياسيين يجب أن يعاملوا كنزلاء عاديين ما لم يكن هناك أسباب أمنية ضاغطة: وأية قسوة في الأوضاع ستعتبر عقوبة إضافية إلى ما حكم به القاضي.

كانت تقارير موريون الناقدة لكن الخالية من التعبير تلخص من قبل رئيس الصليب الأحمر في جنيف ثم ترسل إلى بريتورية. وكانت استجابة الحكومة بطيئة: وفي إحدى النقاط، لدى استيائه من جمود الحكومة، شعر موريون بميل إلى اللجوء إلى الردع الأقصى بوقف زيارات الصليب الأحمر جملة وتفصيلاً، مما يحرض الاستياء على المستوى الدولي. إلا أن مانديلا أقنعه بعكس ذلك، بنصيحة سيذكرها دائماً: «إن الخير الذي تجلبه أقل أهمية من السوء الذي تمنعه». صعق موريون بإحساس مانديلا بالتفوق على سجانيه، وبوضعه الخاص في الجزيرة: فقد كان السجناء يطلبون مصافحة موريون لأنه صافح مانديلا. وصدم إذ اكتشف أن سجاناً بالغ القسوة كان يراقب رسائل ويني، ويشوه معناها عمداً، بقصد التعذيب الفكري، لكن مانديلا كان يكتفي بالقول: «أشعر بالأسف من أجله، فهو آخر عينة من سلالة تنقرض، وهو لا يعرف ذلك».[9]

عام 1972 ـ قبل زيارة الصليب الأحمر بقليل ـ كان كل سجين قد منح طقمين جديدين من الملابس الداخلية. وبحلول عام 1973 أصبح الماء الساخن متوفراً للغسل والحمام. برغم أنه كان يقطع أحياناً على سبيل العقاب. وبحلول عام 1975 سمح للسجناء أن يجهزوا ملعب كرة مضرب في الباحة. أصبح مانديلا الآن مصنفاً كسجين من الفئة آ، وسمح له بثلاث رسائل وزيارتين في الشهر ـ ولكن لم يسمح له «بزيارة تماس» يستطيع فيها أن يلمس زائريه، برغم أنه كان يحق له ذلك رسمياً. وبأوامر من الطبيب سمح له أيضاً بسرير خاص وبعض الحليب ونظام حمية خاصة بلا ملح بسبب ارتفاع ضغطه الشرياني.[10]

وبعد مزيد من ضغط الصليب الأحمر، سمح للسجناء بفترات من العمل البديل، بعيداً عن مقلع الكلس. فكانوا يأخذونهم إلى شاطئ البحر ليجمعوا

الأعشاب البحرية، التي كانت تشحن بالبواخر إلى اليابان، كأسمدة. كان العمل شاقاً والأطلسي يكون أحياناً بالغ البرودة في الشتاء، لكن مانديلا رحب بمنظر البحر والطيور البحرية المنقضة. وكانوا يتناولون غذاءهم مما يصطادون من بلح البحر والبطلينوس وكانوا يصطادون أذن البحر وجراد البحر أحياناً لتكون مرقاً لطعامهم البحري، الذي كان السجانون يشاركون فيه. بعيداً عن أبنية السجن كانت جزيرة روبين ذات جمال طبيعي لم تلمسه يد الحضارة، وكأنها محمية طبيعية لم يخربها البشر، كان دينيس هيلي يقول عنها: «جنة عدن مصغرة»، وأصبح مانديلا مأخوذاً بالطيور البرية.[11]

بدأ الجو السياسي في الجزيرة يتغير مع وصول سجانين شباباً، بعضهم لم يتجاوز السابعة عشرة، كان التأثير عليهم أسهل. وحاول السجناء السياسيون جهدهم تعليمهم «كان واجباً متعباً لا يخلو من أعباء فرضت على جميع السجناء لضرورة البقاء بكرامة» كما قال ألكساندر. لكن كان هناك تعويضات: «النقاشات الصبورة والدقيقة والمؤلمة غالباً التي تدعو إليها هذه الحاجة هي إحدى أكبر الأحداث الإنسانية في هذه الجزيرة، فهنا تمكن كثير من السجناء (السود) والسجانين (البيض) للمرة الأولى ـ وربما الأخيرة ـ أن يتبادلوا الآراء حول سبل الحياة في جنوب إفريقية».[12]

رأى كاثرادا السجانين الشباب مهملين بحاجة إلى إعادة تأهيل، فكتب عام 1971: «إذا أمضوا سنواتهم الانطباعية في العمل مع سجناء سياسيين فأنا متأكد أن ذلك سيكون له أثر صحي على مستقبلهم. والمفارقة هي أن السجن هو المكان الذي تقام فيه أوثق أواصر الأخوة بين معارضي وأنصار الأبارثيد، فقد أكلنا من طعامهم، وأكلوا من طعامنا، ونفخوا في الآلات الموسيقية نفسها التي /لوثتها/ شفاه سوداء، لقد ناقشوا أكثر الأمور خصوصية، وسألوا النصح، ولو أن شخصاً أعمى سمع تلك الأحاديث الخاصة لصعب عليه أن يصدق أنها بين سجين وسجان».[13]

كان مانديلا يزداد تبجيلاً من قبل معظم العاملين في السجن وعندما زار جورج بيزوس الجزيرة الآن تناول طعام الغداء مع مانديلا من جراد البحر وأطايب أخرى في نادي الضباط، وقام على خدمتهما سجناء يرتدون قفازات بيضاء.[14] كان مانديلا نجماً يشد السجانين القادمين الجدد «الذين كانوا قلقين للقائه لأنهم قد قرؤوا عنه» كما قال بيلي نير، «ومع مرور السنين كنا نستقبل السجانين لمشاركته وجبات الطعام، ولعب كرة المضرب، أو كرة الطاولة بعيداً عن أعين رؤسائهم. كنا نترك مانديلا جالساً مع أحد السجانين في زنزانته، يحضر الشاي ويقدم البسكويت ويجري نقاشات طويلة، يتحدث باللغة الأفريقانية، بركاكة، وكان يكسب ولاء هؤلاء الأشخاص».[15]

كان مانديلا يولي اهتماماً خاصاً لعقلية الأفارقة. وحث بقية السجناء على الحديث مع السجانين بالأفريقانية، على كراهيتهم لها. ليتعمقوا في فهم نفسيتهم وثقافتهم.[16] وقد قال ماهاراج: «أدركت أهمية تعلم تاريخ الأفارقة، وقراءة الأدب الأفريقاني، ومحاولة فهم هؤلاء الناس العاديين.. كيف يلقنون أفكارهم السياسية، وكيف يتجاوبون معها.. إنهم كلهم يحملون سداً فارغاً في عقولهم. ولم يكن بوسعهم أن يروا في الرجل الأسود إنساناً».[17] كان ماهاراج في البداية رافضاً الأفارقة بحدة، لكنه أدرك أن «عليك أن تفهم عقل الآمر الخصم. ولن تتمكن من فهمه ما لم تفهم أدبه ولغته».[18] وقد درس مانديلا نفسه الإفريقانية دراسة منظمة، فقرأ كثيراً من الكتب الإفريقانية وتحدث الإفريقانية جيداً، على رغم من أن كاثرادا كان يقول إن لفظه كان «رديئاً جداً».[19]

واكتسب فهماً للإفريقانية سيحسده عليه زملاء في المنفى فيما بعد. فقد قال قائد سهم الأمة (إم. كي) روني كاسريلز Ronnie Kasrils لقد تعلم مانديلا في زنزانته عن الإفريقانيين أكثر منا نحن الذين كنا نحاربهم. وعرف أن بإمكانه التفاوض معهم».[20]

كان تكيف مانديلا مع السجانين يقلق القادمين الجدد المناهضين مثل

سوني فينكاتراثنام Sonny Venkatrathnam، وهو تروتسكي من دروبان اعتقل بتهمة التخريب وعذب بوحشية قبل أن يصل إلى الجزيرة. وكان يعيب على مانديلا تفاوضه مع سلطات السجن «نيلسون يفعل كل هذا، كيف وصلنا هذا الدرك من القذارة (خـ...)؟». لقد رأى مانديلا من بعيد، بما أنه كان في قسم آخر، لكنه سمع الكثير عن تصرفه. لم يكن ينظر إلى مانديلا نظرته إلى ثوري، وإنما إلى مسيحي وطني: «لقد خرجت شخصاً مختلفاً تماماً، أنظر إلى الأمور من منظار فلسفي بحت».. ما أذهلني في نيلسون وسيسولو وآخرين يقضون حكماً بالسجن المؤبد كان الهدوء ورباطة الجأش اللذين يميزان حياتهم في السجن. لم يخرجوا من الحلبة ولم تظهر عليهم المرارة. وعلموني كيف أضحك مما عانيناه من عذاب «في البداية أقسم فينكاتراثنام على الانتقام من الشرطي الذي عذبه»، والآن لم يعد لدي ما أعانيه من ذلك الموضوع.. وقلت / هذا الشخص أقل إنسانية مني، فلماذا أهتم لأمثاله؟/ .. أعتقد أني شخص هادئ نسبياً الآن». [21]

كان السجناء الثلاثون المحشورون في قسم العزل يواجهون توتراتهم الخاصة. فقد كتب كاثرادا بعد سبع سنوات في السجن: «لا بد أن الحياة مع الوجوه نفسها يوماً إثر يوم تركت آثاراً نفسية سلبية علينا. فنحن يضغط بعضنا على أعصاب بعض، وقد استهلكنا منذ زمن بعيد كل نقاش يتعلق بخبراتنا في الخارج. كل النكات رويت، وحتى الشائعات أصبحت مكررة». [22]. لكن مانديلا احتفظ بفضوله حيال الآخرين. وقد لاحظ فيكيل بام أنه «كان يتعلم طوال الوقت. كان دائماً يخرج ويسبر أغوار الناس. لقد علم نفسه في باحاتنا الخلفية». [23] كان مانديلا يستمتع بسماع قصص حياة الناس. وقد كتب عام 1975: «قليلة هي الأشياء التي تثير اهتمامي هنا أكثر من الاستماع إلى سيرة رجل، والعوامل التي أثرت في أفكاره وأعماله، والمعارك غير المعروفة التي خاضها وكسبها». وكان دائماً يبدي سروره عندما تأتي أنماط جديدة. [24]

كان لمانديلا ضغوطه ونكساته. فقد أتت صديقته القديمة فاطمة مير ـ التي

كتبت سيرته فيما بعد ـ لزيارته في وقت كان ملزماً بالبقاء في زنزانته على سبيل العقوبة، بدا رهيباً، هزيلاً، ومرهقاً من العمل في باحة السجن. كنت أعرف مانديلا شخصاً ضخماً قوي البنية. لكنه الآن صار مثل وجه يعكسه زجاج نافذة، أو فراشة مسحوقة في متحف.. جلس هناك يبدو شاحباً وهزيلاً، قلت: لقد أصبحت نحيلاً، فقال: «لكنك أنت أصبحت سمينة».[25]

حاولت السلطات أن تعكس للعالم صورة ودية للأوضاع في جزيرة روبين. فعام 1973 وصل الجزيرة صحفي أسترالي، هو دافيد (ويسكرز) ماك نيكول من مجلة البولتين الإخبارية المحافظة وكتب مادة براقة عن مانديلا في زنزانته «نظيفة جداً، مثلها مثل كل شيء في جزيرة روبين. بدا له مانديلا في منتصف العقد الرابع من العمر (كان عندها في الرابعة والخمسين)، بشرة ملساء، حاضر البديهة، عينان مرحتان، ويدان لا يظهر عليهما أي أثر للعمل الشاق».

اشتكى مانديلا نقص الأخبار من الخارج.. والرقابة الصارمة ـ حيث قصت عشرون مقالة من عدد واحد من مجلة ريدرز دايجست ـ لكنه بدا متفائلاً: «أستطيع القول إني لم أشعر ولو لدقيقة واحدة بالكآبة، لأني أعرف أن قضيتي ستنتصر، أنا راض عن الطريقة التي تسير بها الأمور».[26]

صوَّر ماك نيكول مانديلا على أنه معني بوضعه الشخصي ويكره أن يعامل معاملة من هو أقل شأناً من الهنود والملونين (نيفيل ألكساندر وهو ملون، اتهم ماك نيكول بأنه قد شوه «صورة شخص هو الأقل ترفعاً والأكثر تواضعاً في أي من سجون جنوب إفريقية»).[27]

ذعر جميع السجناء من التقرير. وقد قال ماك ماهاراج: «لا شك أنه رأى السجن بعيون مختلفة عن عيوننا». وبعد زيارته أصر السجناء على ضرورة إخطارهم مسبقاً عن زيارات الصحفيين، وأن يسمح لهم باختيار الناطق باسمهم.[28]

ما زال السجناء يحلمون بالهرب، برغم أن رجلاً واحداً فقط، أوتشوماو Autshumao، عرف باسم / هنري الذي قفز عن الشاطئ/ استطاع الهرب من جزيرة روبين، في القرن السابع عشر، وكان عليهم توخي الحذر المضاعف لأنهم في بعض الأحيان كانوا يشكون في أن الحكومة تريد أن تحرض عملية مطاردة. فقد لاحظ بعض السجناء عام 1967 أن السجانين كانوا يوجهون بنادقهم نحوهم بينما كانوا يعملون في المقلع، كأنما ليحرضوهم. وكان هناك مخطط متهور للهرب كشف أمره قبل أن يصبح تنفيذه ممكناً. أطلق فكرة المخطط في عام 1969 غوردون بروس Gordon Bruce وهو مثالي يساري أصبح صديقاً لمانديلا من خلال النادي الدولي في جوهانسبورغ عام 1950.[29] وقد ابتكر خطة طويلة الأمد لتخليص مانديلا من الجزيرة برشوة أحد السجانين ليتركه يخرج. عند ذلك يأخذه بروس في قارب سريع إلى كيب تاون متنكراً بشكل أحد رجال الضفادع، ثم يأخذه بالسيارة إلى مهبط طائرات حيث تقوم إحدى الطيارات المشهورات، وهي شيلا سكوت بالطيران به، واقترح بروس أن يقحم مانديلا بعد ذلك في حملة من أجل السلام العالمي، مركزها جنوب إفريقية.[30] أعلن بروس في جريدة التايمز اللندنية عن الحاجة إلى «منظم كفء، مستعد لتنفيذ عمل غير عادي». ولكن أحد المتقدمين كان غوردون وينتر Gordon Winter وهو مخبر يعمل لصالح مخابرات جنوب إفريقية Boss، التي خططت لاختراق مؤامرة الهروب وقتل مانديلا عندما يركب الطائرة.[31] لكن المخابرات البريطانية (وفقاً لكل من وينتر وبروس) أعلمت بالمخطط من قبل السير روبرت بيرلي Sir Robert Birley الذي كان مديراً سابقاً في إتون Eton ـ التي كانت تقوم بالتدريس وقتها في جنوب إفريقية ـ والذي جعله بروس موضع ثقته، وألغيت الخطة كلها. وبعد إطلاق سراح مانديلا، بقي على صداقته مع بروس، وعام 1992 وصل دون إخطار سابق للمشاركة في الاحتفال بعيد ميلاده السبعين.[32]

عام 1974 اكتشف ماك ماهاراج طريقاً ممكناً للهرب بعد أن زار طبيب أسنان في كيب تاون تبين أنه مرتبط بقرابة مع زوجة أحد أنصار المؤتمر الوطني الإفريقي السريين، الذي أصر على أن يرفع السجانون الحديد عن ساق ماهاراج ومغادرة غرفة العمليات. بعد ذلك بمدة قصيرة رتب أمر ذهاب مانديلا إلى طبيب الأسنان نفسه برفقة ويلتون مكواي Wilton Mkwayi وماهاراج الذي تسلح بسكين وجدها في الشاحنة، أزيلت قيود الحديد من الأرجل، وغادر السجانون، واستعد ماهاراج للقفز من النافذة إلى شارع جانبي إلا أنه لاحظ أن الطريق خال من العابرين وشك فجأة في أن الشرطة تكمن بانتظار إطلاق النار عليهم عندما يخرجون. وافق مانديلا على التخلي عن الخطة. وتأكد ماهاراج فيما بعد أنه كان كميناً أعدته الشرطة لهم. وقال: «ركلت نفسي لأني كنت سأعرض مانديلا للقتل».[33]

كان هناك بعض التغيير لكسر وتيرة حياة السجن، مثل الصلوات كل أحد التي يؤديها قساوسة من مختلف الطوائف. وبعد العام الثالث أخذوا يلقون عظاتهم في الباحة التي كانت تضيف ميزة الهواء الطلق، وكلما طال نَفَس الوعاظ كان السجناء يحبونهم أكثر.[34] كان مانديلا يستمع إليهم جميعاً، وقال مازحاً، فيما بعد «بدأت حركتي المسكونية في السجن».[35] كان الواعظ المسلم محبوباً، فيما يذكر مانديلا، لأنه في أيام محددة «كان يأتي ليس بالقرآن فقط وإنما بأدعية ومدائح (biyani, Samosas) وأشياء جميلة أخرى (وقد صفق السجانون عندما أعلن أربعة وعشرون سجيناً إسلامهم فجأة) انتهز مانديلا الفرصة ليتعرف على الدين الذي أثر في كثير من أصدقائه. حتى إنه حصل على إذن بزيارة ضريح مسلم في الجزيرة أقيم تخليداً لذكرى أحد أبطال الإسلام في جنوب إفريقية، هو الشيخ منتورة الذي كان منفياً إلى الجزيرة عام 1744، ومات هناك. أعجب مانديلا بالضريح أيما إعجاب، خاصة لوحاته الجدارية، وأصر على أن يخلع الحارس نعليه قبل أن يدخل.[36] كما وطد مانديلا عرى الصداقة

مع القسيس الألماني الإصلاحي، المحترم أندريه شيفللر Reverend Andre Scheffler، وهو رجل نحيل بارز الحنجرة بدأ بالسخرية من المحاربين من أجل الحرية، ولكنه عندما حذر السجناء من تحميل الرجل الأبيض كل الرزايا، وافقه مانديلا الرأي. وبعد أن تحدث شيفللر عن موسى إذ خرج بالإسرائيليين من مصر، أخبرته السلطات أنه لم يعد مقبولاً، فأعطاه مانديلا هدية (غوافة) لزوجته.[37]

شعر مانديلا بالخيبة تجاه الكاهن جونز الواعظ الميثودي، الذي كان باستمرار يصر على التقبل، دون أن يقترح أن البيض يجب أن يقبلوا بوجود السود.[38] لكن الأنغليكاني، الكاهن هيوز كان / محبوب الجميع/ على حد تعبير مايكل دينغاك.[39]

وقد كتب كاثرادا في رسالة لم تخضع للرقابة: «أي رجل ممتع هو الكاهن هيوز، وأي إحساس بالمرح.[40] كان هيوز الويلزي، يحب غناء السجناء، الذي يذكره بالوطن. كان يدخل أخبار العالم الخارجي في عظاته، وكان يبهج مانديلا إذ يقتبس أقوال تشرشل: «سنحارب على الشواطئ».[41] كان هناك بعض التوتر أحياناً بين السجانين ورجال الدين، وقد احتج أحد الحرس الأكثر فظاظة على تقديم الخمرة في المناولة. وقد قال كويدي مكاليبي: «لقد رأيت ما كنت أعتقد أنه الشيء الأكثر قداسة في المسيحية يكسر الآن».[42]

كان إيمان مانديلا نفسه موضع تكهن كبير. فقد كانت كثير من مبادئه الأساسية ـ مقدرته على أن يرى ما هو أفضل لدى الآخرين، وإيمانه بكرامة الإنسان، وتسامحه ـ أموراً مستقاة من الدين. حتى إن بعض الزوار مثل فريدا ماتثيوز كانت تجده كالمسيح تماماً.[43] وكان يظهر مزيداً من التعاطف مع الكنائس.

كان يحب أن يتحدث عن الكهنة العطوفين أمثال تريفور هادلستون Trevor Haddleston ويدافع عن مبشرين مثل نوسيفو ماجيكي Nosipho

Majeke مؤلف كتاب/ دور المبشرين في الفتح/ وقد سأل صديقه الشاب بام: «هل هذا هو رأينا فعلاً بالمبشرين؟»، وكان كثيراً ما يذكر في رسائله أساتذته المبشرين.[44] لكن لم يكن مؤمناً رسمياً مثل أوليفر تامبو، إذ لم يكن يستشهد بالإنجيل، أو يناقش في الفقه. وكان اهتمامه بقداس الأحد سياسياً أكثر منه دينياً. وقد قال إيدي دانييلز: «كان يعطينا الأمل في حين كان كل شيء جامداً كالصخر ولم نكن نرى أي مستقبل، لكن قوته كانت قوة الشخصية وليست قوة الدين».[45]

كانت مقدرة مانديلا على الصفح تذهل الزائرين. فقد ذعرت فاطمة مير عندما سأل عن أحوال أحد الزملاء القدامى في دوربان، الذي شجب مذ ذاك لكونه خائناً باع وطنه، فسألت وقد عيل صبرها: «لماذا تريد أن تعرف أحواله؟»، فذكرها مانديلا بأن الرجل قد أمن سيارة ذات مرة لينقل لوثولي إلى المطار. ففكرت فاطمة «هل ذاك ما غفر له؟».[46]

كثير من رفاق مانديلا في السجن كانوا يشاركونه تسامحه، وكانوا مصممين على تفادي المرارة والحزن على النفس. وقال بام: «إن السجن قد عالجني تماماً من الحزن على نفسي والتركيز على ذاتي».[47] كانوا دائماً يذكرون أن حالتهم كان من الممكن أن تكون أسوأ بكثير عندما ينضم إليهم سجناء أخضعوا للتعذيب، أو عندما يسمعون عن العديد من الأشخاص الذين ماتوا في المعتقل. كان كاثرادا يتذكر المثل الصيني الذي استشهد الأب هيو به: «لقد شكوت وتذمرت لأني لا أملك حذاء إلى أن التقيت برجل لا يملك قدماً».[48] لكن مانديلا هو الذي كان مثال الصبر والتحمل. وإذا كان لنزلاء جزيرة روبين ثقافة ونص مشترك، فإنه لم يكن الإنجيل أو القرآن وإنما شكسبير. «بشكل أو بآخر كان لدى شكسبير دائماً ما يقوله لنا» حسب ما قال كاثرادا، الذي حاول مرة أن يناقش بأن شكسبير كان عنصرياً، لكنه أسكت فوراً.[49] . ويذكر نيفيل ألكساندر: «كنا نحفظ مقاطع طويلة طويلة من شكسبير، المقاطع

الأكثر نضالية عادة مثل كوريولانوس، ويوليوس قيصر، طبعاً، وهنري الخامس». [50] كان الشبه السياسي بين نصوص شكسبير وجنوب إفريقية السوداء واضحاً جداً فقد كان / يوليوس قيصر/ بمثابة نص يدرس النظرية الثورية. إلا أن فهمه الأعمق للشجاعة البشرية والمعاناة والتضحية أعادت الثقة إلى السجناء بأنهم جزء من دراما عالمية.

كان سوني فينكاتراثنام يحتفظ بنسخة من أعمال شكسبير على الرف عنده، يغطيها بصور دينية هندية. وقد قال فيما بعد: «أنا لست شخصاً متديناً، ولكني لن أتخلى عن هذه، لأنها أعطتنا مسرات وقراءات لا تحصى»، وقد أمرَّها إلى جميع السجناء في الزنزانات المفردة، لينقلوا المقاطع المفضلة لديهم، كما زودهم بمقتطفات أدبية فريدة للسجناء. وقد اختار كاثرادا من هنري الخامس: «مرة ثانية حتى الثغرة» فيما اختار ويلتون مكواي قول مالفوليو: «بعضهم يولدون عظماء» من مسرحية «الليلة الثانية عشرة». أما غوفان مبيكي فقد اختار الأبيات الأولى من المسرحية نفسها: «إذا كانت الموسيقى غذاء الحب». واختار نيلي نير أبياتاً كاليبان من مسرحية العاصفة «هذه الجزيرة ملكي باسم أمي سيكوراكس» وانتقى سيسولو أبيات شايلوك:

مازلت أحمله بصبر،

فالمعاناة شعار قبيلتنا كلها.

بينما أحب نيفيل ألكساندر القصيدة التي مطلعها:

مثلما الأمواج تتقدم نحو شاطئ الحصى

هكذا تتسارع دقائقنا نحو نهايتها

أندرو ماسوندو توقف عند أبيات مارك أنطونيو:

أواه! سامحيني، أيتها القطعة الدامية من الأرض

لأني ضعيف ولطيف مع هؤلاء الجزارين.

مانديلا أيضاً اختار مقطعاً من «يوليوس قيصر» ووقع عليه بتاريخ 16كانون الأول (ديسمبر) 1977 :

الجبناء يموتون مرات عديدة قبل موتهم،
والشجاع لا يذوق الموت إلا مرة واحدة.
من كل العجائب التي سمعت بها
لم أجد أغرب من أن الرجال تخاف،
فالموت نهاية ضرورية
ستأتي عندما تأتي[51]

اكتسبت الدراما الكلاسيكية زخماً جديداً في السجن حيث اعتبرت مسرحية أنتيغون لسوفوكليس ذات علاقة خاصة بالنضال. وقد كتب الكاتب المسرحي آثول فوغارد Athol Fugard مسرحية قصيرة بعنوان / الجزيرة/ اعتمد فيها على تقارير من السجن، مثلت في كيب تاون عام 1973، ثم في لندن وبرودواي، يمثل فيها سجينان نسخة مصغرة من أنتيغون. وفي الجزيرة الحقيقية مثل مانديلا دور كريون في إخراج كامل لمسرحية أنتيغون. حيث رأى في كريون قائداً كان في الأصل حكيماً ووطنياً، لكنه أظهر نفسه عنيداً لا يرحم إذ رفض السماح لأنتيغون بدفن أخيها المتوفى، في حين كانت أنتيغون مقاتلة من أجل الحرية «تحدت القانون لأنه جائر»[52].

وبالتدريج سمح للسجناء بأشكال أخرى من التسلية منها، بعد عام 1967 مباريات الركبي والكريكيت في الهواء الطلق، مع أنهم منعوا ثانية عام 1971، واعتبرتها قوانين المحكمة مزايا أكثر مما هي حقوق.[53] حتى إنهم كانوا يلعبون المونوبولي، التي علمت الرأسمالية للاشتراكيين. لم يكن مانديلا متفوقاً دائماً في هذه الألعاب. وقد قال لويني في كانون الثاني (يناير) 1975 إنه قد هزم في الشطرنج والداما والدومينو، وكذلك في كرة المضرب، وأضاف إنه لم يستطع أن يركز لأنه كان يفكر فيها.[54]

لكنه كان يلعب مباراة متمهلة في الشطرنج أو الداما، حتى أن فينكاتراثنام

obeikandl.com

قال: «لا أحد يريد أن يلعب الشطرنج مع نيلسون لأن المباراة الواحدة تستغرق ثلاثة أيام. لكن ذلك جزء من تكوين الإنسان. فهو يصبح أحياناً مبهماً، وبطيئاً، لكنه بالغ الذكاء والمهارة». [55] وفي إحدى دورات الشطرنج لعب مانديلا مباراة ضد طالب طب سابق شاب اسمه سليم، استمرت يومين أو ثلاثة أيام قبل أن يستسلم سليم من الإعياء. قال كاثرادا: إن تلك كانت حرب الاستنزاف بالنسبة لمانديلا. [56] وقد تذمر القائد الناميبي تويفو جا تويفو من أن مانديلا يستخدم (تكتيك) المحامي: «كان يجلس هناك طوال اليوم ولا يحرك سوى قطعة واحدة. وأنا رجل أحب الحركة». [57] وقال مانديلا عن (تكتيكه) في الداما: «كنت أفكر بحذر في عواقب كل خيار. وتلك طريقة العمل المفضلة لدي، ليس في الداما فحسب بل في السياسة». [58]

كانت أسعد أوقات الاسترخاء بالنسبة لمانديلا هي الحديقة الصغيرة التي سمح للسجناء بإنشائها في زاوية الباحة، بعد أن اقتلعوا الصخور التي تغطي التربة. كانت تعطيه إحساساً بالحرية والإبداع، وتعيده إلى أيام الطفولة في الترانسكي وتذكره بحديقة مدرسته التبشيرية في كلاركبوري، التي كان يعنى بها من أجل المدير الكاهن هاريس. وقد كتب كاثرادا في تشرين الثاني (نوفمبر) 1975: «هذه الأيام؛ الحديقة هي طفلة نيلسون، وهو مأخوذ بها. وكما هو متوقع فقد قرأ كل ما يقع تحت يده». وحصل مانديلا على البذار من السجانين. ومارس البستنة بإتقان، يساعده فريق من السجناء بزعامة لالوتشيبا. كان كاثرادا يراقبهم وهم يحتشدون صباح كل يوم بأدواتهم من مساطر وأقلام ولصاقات ويعنون بقياس الأبعاد وتسجيل الملاحظات «وأواخر 1975 كانوا قد زرعوا ألفي شتلة فليفلة وحوالي ألف شتلة بندورة، وقليلاً من الفجل والبصل والبطيخ الحلو وشتلتين من البطيخ الأحمر. كان انشغال مانديلا بإنتاج أفضل محصول ممكن متعباً حتى لزملائه (البساتنة). ولتأمين السماد كان يحرص على جمع العظام إثر كل وجبة لحم، وطلب من رفاقه أن يدقوها لتصبح مسحوقاً.

وأمام نقص المتطوعين أحياناً اقترح نوعاً أبسط من أنواع السماد، وهو البقايا البشرية. فقد حفر السجناء حفرة كبيرة في باحة السجن وكانوا كل صباح يقلبون دلاء مراحيضهم فيها. لكن الرائحة، كما أفاد كاثرادا، لم تحبب هذا الإجراء لأي منا وسرعان ما تم التخلي عنه.

الحدث الأكبر عام 1975 كان وصول حرباء أنثى أخذت تتنقل من الفليفلة والبندورة إلى الفجل والخس، عبثاً تحاول (كما لحظ كاثرادا) أن تغير لونها بما يتفق مع ما حولها. وضعت الحرباء ستة صغار وتركتهم فوراً! مما حرك (كما كتب كاثرادا) مشاعرنا الأبوية وخوفنا على اليتيم والصغير والذي لا حول له ولا قوة. وكل صباح وطول النهار كنت تجد جمهرة من الشباب يحيطون بأحد الصغار، وهم منهمكون في نقاش مفعم بالحيوية، ولكن أحداً لم يستطع أن يحل معضلة: أين الحرباء الأب؟[59]

رأى مانديلا في الحديقة بديلاً لرعاية علاقات إنسانية مع أصدقاء غائبين، من ضمنهمويني، ولكن كان هناك شبه مع السياسة: فالقائد أيضاً «يزرع البذار ثم يرقبها ويعنى بها ويحصد النتائج».[60] وقد كتب لويني عن رعايته لنبتة بندورة كانت مصابة، ثم اجتثها عندما ماتت: رأت ويني في الأمر ما يشبه رعاية طفل وسط النضال، ليراه يسحق من قبل الشرطة.[61]

كانت فرصة متابعة الدراسة هي الأكثر أهمية بالنسبة للسجناء. وكان مانديلا قد حث المفوض في وقت سابق على السماح بأن يسود جو جامعة. لكن أواخر عقد الستين بدت ملامح ذلك الجو، حيث أصبح المقلع يشبه الحرم لما أصبح يعرف باسم: «جامعة جزيرة روبين»[62]، ورأى فيها الطلاب إنجازهم الخاص، برغم أن الصليب الأحمر أراد أن يفكر فيها «كجامعة الصليب الأحمر».[63] وكان أي شخص يحمل شهادة أو أية مؤهلات أخرى يدرس المادة، وكل صباح كانوا يخططون دوراتهم في المقلع، كانوا يجمعون التدريس مع الأشغال الشاقة. وقد قال ألكساندر: «كان الناس يقدمون دروساً حقيقية،

ومحاضرات، بينما كانوا يؤرجحون المعاول ليجرفوا الكلس»، ولكن في هجعة العمل، أو توقفه تماماً، كان التدريس يصبح أكثر تنظيماً، وكان بإمكانهم الوقوف جماعات، يرسمون مخططات في الرمل، ويذكر فيكيل بام: «كانت هناك حركة دائماً إذ تذهب إلى مكان العمل، حيث تنتظم جماعات صغيرة في أماكن مختلفة، فتعرف أن هناك صفوفاً تتقدم».[64]

درس مانديلا دورة في الاقتصاد السياسي، وراجع تطور المجتمعات من الإقطاع إلى الرأسمالية إلى الاشتراكية؛ التي ما زال يعتبرها المرحلة الأكثر تقدماً. لكنه كان يفضل النقاش على التدريس، وكان دائماً يرحب بأسئلة تلاميذه، التي أجبرته على التفكير المتعمق في آرائه. وقد رأى في نظام جزيرة روبين أصول النظام السقراطي، الذي يستخدم الحوار لتوضيح الأفكار لكل من الأساتذة والتلاميذ.[65]

ويذكر مايكل دينغاك Michel Dingake المحارب من أجل الحرية البوتسواني الذي حاز على شهادتين في الجزيرة، يذكر أن مانديلا كان أكبر مشارك لا يعرف التعب في هذه النقاشات، ويطرح آراءه بصراحة شرسة قادرة على إثارة معارضيه: «وعندما يناقش شخصاً يطرح حقائق واهية، قد يكون نيلسون شريراً بتبني طريقة سقراطية معدلة. وقلما تجد شخصاً يحب أن يستجوب وينكشف جهله وضبابيته. وقد خرجت مراراً من نقاش مع ماديبا مجروحاً ومهاناً. إلا أنني كنت أجد تلك الخبرة مفيدة في المدى البعيد. لأنها علمتني أن أنظر إلى جانبي الموضوع وأحاول إعطاء جواب موضوعي وصادق».[66]

كان بعض السجناء أميين تماماً عندما أتوا إلى الجزيرة. وكان معظم تعليمهم. في البداية، شفهياً وعامياً. يذكر ألكساندر أنه كان «مجرد حديث من واحد لآخر، وتبادل أفكار حول ما نعرف في السياسية والتاريخ واللغة».[67] لكن بالنسبة لمعظم الأميين أصبح تعلم القراءة والكتابة يستحوذ اهتماماً كبيراً.

وقد قال غوفان مبيكي: «كنا نأخذ الناس من أخفض مستوى، وقد قدموا إلى الجزيرة أميين، وكان لا بد من تعليمهم. وعندما يأتي وقت مغادرتهم جزيرة روبين كانوا قادرين على كتابة رسائل لأهلهم.. كما كانوا يتحدثون الإنكليزية». [68] ديكغانغ موسينيكي Dikgang Moseneke وهو أحد الناشطين في المؤتمر الإفريقي العام أتى إلى الجزيرة غلاماً عام 1963 (أصبح فيما بعد رئيساً لشركة تيليكوم الجنوب إفريقية)، لحظ أن الجميع في قسمه استطاعوا القراءة والكتابة خلال بضع سنوات. [69] وكثير منهم تقدموا نحو دراسات رسمية عن طريق مدارس بالمراسلة، واكتسبوا الدافع والفرصة لمتابعة التعليم العالي الذي ما كان ليتاح لهم خارج السجن. والعديد ممن وصلوا بحد أدنى من التعليم غادروا بشهادة أو شهادتين.

وقد وصلت عدوى التعليم إلى بعض السجانين الشباب، ويذكر الكولونيل ويليمزي، رئيس السجن أن «كثيراً من المجندين تطوعوا من أجل الجزيرة، كانت جامعة للسجانين أيضاً». [70] ويذكر الرقيب أوبري دو توا Aubrey du Toit السجان الذي يدير دائرة دراسات السجناء أن مانديلا كان «حازماً جداً حيال دراسة الناس ليس السجناء فحسب وإنما السجانون»، وعندما قال لمانديلا إنه كان يدرس الأفريقانية العملية فقط. أجابه مانديلا: «أيها الرقيب يجدر بك أن تخجل من نفسك. أنا كزوسي وتعلمت الأفريقانية والندرلاندية». [71] وفيما بعد نصح أحد السجناء دوتوا أن يترك الخدمة في السجن ويلتحق بشركة سانلام للتأمين! وهذا ما فعله.

وقد ساعد جو التطوير الذاتي والتعليم السجناء السياسيين في التغلب على التوترات الجنسية والإحباطات التي كانت تسبب الهياج لدى السجناء الوضيعين، الذين كانوا يلجأون لعادات المثليين أو العنف. وقد لاحظ جورج بيزوس أن «الدافع الجنسي كان يصعد عن طريق السياسة». وقد حذر بيزوس من أن السجناء لا يحبون النكات القذرة. [72] وما من شك في أن كثيراً من

السجناء السياسيين الشباب كانوا يشعرون بالإحباط حيال الامتناع والتقشف المفروض عليهم، لكن النظام كان حاسماً. وقد مر مانديلا نفسه، كما شرح فيما بعد، بكثير من التقشف في مدارسه الداخلية التبشيرية، لكن زملاءه فوجئوا بجهله بالمثلية. وقد قال فيما بعد إنه مرة: «رد باشمئزاز ضد نظام الشذوذ كله». [73] ولكن عندما تجرأ أحد السجناء وطرح الموضوع، كان سعيداً بنقاشه. ويعتقد الدكتور موتلانا Motlana الذي رأى كثيراً من السجناء السابقين بعد خلاء سبيلهم، أن الجسد يتأقلم مع التقشف برغم وجود مشاكل دائماً مع لزوجات والصديقات. وكان مانديلا يحذر السجناء قبل أن يغادروا من أنهم سيواجهون صعاباً في التوافق مع زوجاتهم. [74] وبقي الجو السائد تطهرياً ومنكراً للذات، وقد ساعد على ذلك الغياب الكامل للخمرة، التي كانت تضعف السجناء الأذكياء في السجون الأخرى.

أتاحت عزلة السجناء فرصة فريدة للدراسة المستمرة والمنظمة، المحمية من المقاطعة والانقطاع مما يسم حياة المدينة ـ من إعلانات ومجلات وأصوات موسيقى تشتت الذهن باستمرار في الأحوال العادية ـ أو ما أسماه كولريدج Coleridge «ما يخرب الذاكرة». [75] وأدى غياب النصوص المكتوبة إلى الاعتماد اعتماداً رئيساً على الذاكرة، واكتشف كثير من السجناء أن بإمكانهم استعادة أقوال أو أشعار كانوا يظنون أنهم قد نسوها. قال فيكيل بام: «المذهل هو أن الناس كانوا يتذكرون الأشياء. كانت تعود إليهم في منامهم». [76] حتى إن ليزلي فان دير هايدين Lesley Vander Heyden، وهو مدرس سابق للغة الإنكليزية كان يدرس في الجزيرة وجد عقله يستعيد أشعاراً منسية. [77] لقد أدت الحاجة إلى حفظ الحقائق عن ظهر قلب إلى استحضار الذاكرة. وقد قال سيسولو فيما بعد: «يجب أن تستمع لما يقولونه في الخارج من أن السمع يجب أن يكون حاداً. كنت مضطراً إلى الاعتماد على ذاكرتي، أما الآن فأنا أعتمد على ما أكتب». [78] ويذكر راكس سيكهو Raks Seakhoa، الذي أتى إلى الجزيرة

غلاماً لم يكن حصَّل تعليماً يذكر، وغادرها كاتباً جدياً، قال: «شيء واحد يملكه السجين هو ذاكرته.. كانت ذاكرتي سليمة جداً / ليست كما هي الآن/ ، إذ أنسى الأشياء السخيفة والجدية على حد سواء». [79] وحتى نيفيل ألكساندر الذي وصل الجزيرة أكاديمياً عالي التعليم وجد أن ذاكرته تحسنت في الجزيرة لأنه لم يكن بإمكانه تدوين أي شيء. في الوقت الذي كان ذهنه يشحذ بالنقاش. فقد كان تحدي النقاش والتنافس مع أشخاص مثل نيلسون مهماً جداً كي يصبح الإنسان دقيقاً جداً ومنظماً». [80]

كان مانديلا يتمتع بذاكرة غير عادية، كما كان يعرف منذ أيام المدرسة، وبعد إذلاله في الجامعة كان قادراً على الدراسة بطريقة منهجية أكثر في زنزانته متابعاً شهادة الإجازة في الحقوق LLB، إلى أن حُرِمَ من تلك المزية. وكان يخشى أحياناً أن تخونه ذاكرته، لكن عقله الحقوقي كان يشحذ بتأسيس ممارسة غير رسمية للمهنة في الجزيرة، حيث كان يقدم النصح لجميع أنواع السجناء، كثير منهم كانوا أميين، في قضايا مثل كيف يستأنفون الحكم الذي صدر بحقهم، كما كان يساعد السجانين في مشاكلهم القانونية. [81] والأكثر أهمية هو أنه كان ينمي طاقاته الثقافية واهتمامه بالأفكار، وقد قال فيكيل بام إنه كان «يغير ويراجع آراءه عاماً إثر عام. ولم يكن لديه أي عمق أيديولوجي قبل أن يأتي إلى الجزيرة، لكنه اكتسب ذلك في السجن». [82]

أعطى مناخ النظام خريجي جزيرة روبين سلطة وثقة بالنفس لازمتهم دائماً. وكانت، على حد تعبير المؤرخين توم كاريس Tom Karis وغيل جيرهارت Gail Gerhart «ثقافة رفقة السلاح والتعاون والتعلم، ثقافة النقاش الحاد، إذ يجتمع إلى التحمل السياسي». [83] كان لتلك الثقافة المشتركة، التي يجسدها مانديلا، أهمية كبيرة أثناء الانتقال السلمي للسلطة بعد عشرين سنة.

لم يكن المقلع مجرد حرم، وإنما كان نادياً للمناقشة. فبعد العامين الأولين أصبح السجانون أقل صرامة في الإشراف على السجناء، وسمحوا لهم

بالكلام أثناء العمل. وكان مانديلا ينضم إلى مجموعاتهم الصغيرة في مناقشة جميع أنواع المواضيع. هل يجب أن يختتن الصبيان؟ هل هناك نمور في إفريقية؟ أيصح قبول الشذوذ الجنسي في السجن؟. لكن النقاشات السياسية هي التي كانت تواجه تحدياته الحقيقية. فقد كان في قسم العزل دائماً خلافات بين أربعة من قادة المؤتمر الوطني الإفريقي الذين شكلوا /الجهاز الأعلى/ الأصلي. مانديلا وسيسولو، وكلاهما استرضائي من الترانسفال، كانا دائماً في خلاف مع غوفان مبيكي من الكيب الشرقية الذي كان ماركسياً قحاً لا يحتمل الإجماع في الرأي. لكن /الجهاز الأعلى/ كان يلاقي أكبر صعوبة مع هاري غوالا Harry Gwala ـ وهو شيوعي حاد المزاج من ناتال عرف باسم «أسد الأراضي الوسطى» ـ الذي كان في زنزانات جماعية للشيوعيين إلى أن أطلق سراحه عام 1973، ولكنه عاد بعد أربع سنوات. جمع غوالا معرفة عميقة بالنظرية الماركسية والتاريخ الماركسي إلى أسلوب صندوصابوني (الخطابة في الهواء الطلق) كان يلقى صدى لدى السجناء الشباب، ونظم محاضرات حول «نظرية القيمة في العمل».

بحلول عام 1975 كان اليساريون في الجزيرة، وخاصة أتباع غوالا، يقتربون من منافسة مانديلا على القيادة. وقد أحجموا عن الحديث عن ذلك فيما بعد. ولكن سجيناً مغفل الشخصية هرب مع دفتر مذكراته وثيقة من الجزيرة إلى لوزاكا رسمت صورة لـ «زنزانات ترويج الشائعات ومعسكرات الطعن البذيء»، كما تحدثت عن الشكاوى الحادة ضد الأعضاء الأربعة الأصليين في /الجهاز الأعلى/ لغياب «النقد الذاتي» لديهم ولـ «أخطائهم العارضة»، وإثارتهم نقاشات قديمة من فترة ما قبل السجن.[84] وقد ذكر فيكيل بام أن حوالي 70 بالمئة من القسم ب يدعمون مانديلا، برغم أنه لو أحصي عدد السجناء السياسيين في الزنزانات العامة لحصل على دعم الأقلية.[85] آخرون ظنوا أن دعم مانديلا كان أكبر بكثير. وبعد عام 1975 مرت الأزمة الفورية، حيث طرحت زعامة مانديلا

للاقتراع أمام أعضاء المؤتمرات الذين أكدوا دعمهم بإجماع الاقتراع. تلك البادرة التي اقترحها سيسولو وثنّى عليها كاثرادا، رسخته «الأول بين أنداده»، ولكن النقاشات هبت ثانية عندما عاد هاري غوالا إلى جزيرة روبين عام 1977.[86]

السؤال الأكثر قسوة؛ الذي أثار قلق مانديلا منذ عقد الخمسين كان السؤال الذي يعذب جميع الثوريين الذين يواجهون هيئات حكومية تحاول اختيار أعضاء من شعبهم. هل يجب أن يقاطعوا تلك الهيئات كليةً؟ ام يخترقوها ويحاولوا قلبها من الداخل. كان مانديلا بخاصة حيال الترانسكي، التي كانت حكومة فيروورد تحضرها لتكون نموذجاً «للتنمية المنفصلة»، الأولى بين البانتوستان. فبعد وقت قصير من دخوله السجن لأول مرة عام 1962 عقد المؤتمر الوطني الإفريقي مؤتمراً في لوباتسي في بيتشوانالاند، حيث اقترعوا مقاطعة انتخابات الترانسكي الوشيكة. عارض مانديلا ذلك القرار لاعتقاده أن المؤتمر الوطني الإفريقي لا يستطيع فرض مقاطعة في كل الأحوال، وأن عليهم بدل ذلك دعم حزب المعارضة برئاسة الزعيم فيكتور بوتو Victor Poto، الذي كان يتحدى مرشح بريتورية المفضل، ابن أخت مانديلا قيصر ماتانزيما. رأى مانديلا أن المؤتمر الوطني الإفريقي، باستغلال الانتخابات يستطيع بالتدريج بناء منظمة جماهيرية، وبالتالي الفت في عضد نظام البانتوستان.[87]

هذا النقاش كان يفرض نفسه مرة أخرى في جزيرة روبين بعد عام 1969، عندما كان مانديلا على / خلافات حادة/ على حد تعبيره اللبق، مع غوفان مبيكي وأنصاره، تلك الخلافات التي أدت إلى أطول النقاشات وأكثرها دقة.[88] وتوترت العلاقات بين مانديلا ومبيكي بعض الوقت. وقال الشيوعيون الأكثر صرامة، والتروتسكيون من حركة الوحدة، إن الاشتراك في الانتخابات يعني التنازل عن كل شيء لصالح الأبارثيد وتحويل اهتمام الناس عن الكفاح المسلح. وأرادوا اتباع نهج البلشفيك الذين قاطعوا انتخابات مجلس الدوما الروسي قبل

الثورة عام 1917. أقر مانديلا بأن المشاركة قد تكون خطيرة، وربما تعيث الفوضى بين أوساط الشعب. لكنه أصر، كما فعل في عقد الخمسين، على أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يبقى (براغماتياً)، وأن بإمكانهم استخدام عملية الانتخاب لحشد أتباع في المناطق الريفية. واستشهد بالمثل السوثي القائل: «النهر تملؤه جداول صغيرة».[89]

بقي مانديلا على رفضه أي حل وسط بالنسبة للموضوع الأساسي المتعلق بالأبارثيد. واستعرض قوته في كانون الأول (ديسمبر) 1974 عندما زاره على غير توقع وزير في الحكومة هو جيمي كروغر Jimmy Kruger، وزير العدل، وصف مانديلا كروغر في رسالة إلى ويني، راعى فيها وجود الرقابة، فقال عنه: «ودود وبشوش ويحب المرح». والواقع أنه وجده فجاً وجاهلاً وساذجاً بما يثير العجب. حاول كروغر أولاً إقناع مانديلا وبعض رفاقه بالتخلي عن الكفاح المسلح. رد مانديلا بأن شرح تاريخ المؤتمر الوطني الإفريقي وميثاق الحرية، الذي لم يسمع به كروغر من قبل. وما أثار دهشة مانديلا أنه لم يكن يعرف أي شيء عن الثوار الأفارقة في الحرب العالمية الأولى.[90] وقد علق ماك ماهاراج قائلاً: «كروغر حاول أن يضعنا على البساط. لكن نيلسون هو الذي وضعه على البساط». ومضى كروغر يسأل مانديلا، بإذعان واحترام غير متوقعين؛ أن يعترف بشرعية حكومة الترانسكي الخاضعة الآن لحكم استبدادي يمارسه ابن أخته ماتانزيما، وعرض إمكانية إطلاق سراحه سريعاً إذا ذهب ليعيش هناك. لم يكن لدى مانديلا، بدعم من رفاقه، أية شكوك حيال رده، لم يكن قادراً على دعم السياسة المخادعة بالتنمية المنفصلة. وأعطى الجواب نفسه عندما عاد كروغر بعد شهر. شك مانديلا في أن كروغر كان يمارس سياسة البيض، وقد تأكد هذا الشك بعد ذلك بفترة قصيرة عندما هاجم كروغر مانديلا في المجلس النيابي كونه شيوعياً يحمل بطاقة.[91]

أصبح لدى مانديلا الآن مزيد من الوقت للتأمل والتحليل، استطاع أن

يوجهه نحو كتابة سيرته الذاتية. كانت فكرة سيسولو وكاثرادا، وأقرها ماهاراج، الذي اقترح عام 1975 أن تنشر بمناسبة عيد ميلاده الستين عام 1978، لتشجيع حركة التحرير في الخارج.[92] استنفدت كتابة الكتاب كل ما لدى مانديلا من قوة استحضار الذاكرة، ولكن كان الأمر أسهل عندما كان السجانون أكثر هدوءاً. كان ينام جزءاً من النهار ويكتب بهمة أثناء الليل، فأنجز كتاباً طويلاً غنياً بالتفاصيل المعقدة، خلال أربعة أشهر. كتب بسلاسة، ولم يشطب إلا قليلاً. وقد عنون بعض المقاطع كرسائل إلى ابنته «حبيبتي زيني». وقد كتب في أحد الفصول: «أتمنى لو أستطيع أن أحدثك أكثر عن المجموعة الشجاعة من الزملاء، لكن سجاناً فضولياً يقطع الممر جيئة وذهاباً، ويطل علي بين وقت وآخر ليثرثر. أنا أعمل تحت ضغط ثقيل ولوقت محدد. فكل ورقة أنجزها يجب أن تغادر السجن يومياً دون أن أراها ثانية».[93]

كانت وثيقة مهمة وقد كتبت بعناية، في البداية كان يستعيد بحيوية طفولته في الترانسكي، ثم يصف التزامه السياسي من خلال الاجتياحات والاجتماعات والمحاكمات. وقيم وضع النضال تقييماً غير متحيز، من بعيد في السجن. وقال: «منذ أربعة عشر عاماً، عندما عدت من الخارج، كنا واثقين أن الحركة داخل البلاد ستكون أقوى بكثير مما هي حالياً، ونستطيع أن نمارس ضغطا كبيراً على العدو»، ولكنه استمد القوة من الجهود الدولية الهائلة لإطلاق سراحه. وقد أخذ رؤية تاريخية طويلة، فاستعرض الشجاعة الماضية للأفارقة في القتال من أجل استقلالهم ضد البريطانيين، ولكنه رآهم «أقلية من المضطهدين لا يُعدّون رقماً يذكر هنا في الداخل ومعزولين عن العالم كله»، والآن هم الإفريقيون الذين يقاتلون لاستعادة حريتهم الضائعة. لكنه كان حريصاً على تصحيح أي انطباع بأن النضال أتى وليد الانتقام.

> إن عجلة الحياة موجودة. والأبطال الوطنيون من أوتشوماو إلى لوثولي،
> في الواقع جميع أبناء شعبنا كانوا يعملون من أجلها لمدة تربو على ثلاثة

قرون وهي عالقة بالشمع الجاف والصدأ، لكننا استطعنا أن نكسر جمودها وجعلناها تتحرك إلى الخلف وإلى الأمام، ونعيش على الأمل والثقة بأننا في يوم من الأيام. سنتمكن من تدويرها دورة كاملة ليتداعى من كان في الأعلى ويعلو المضطهدون. لا، وإنما كي يتمكن كل الناس، أهل القمة مع مضطهدي الأرض، أن يعيشوا أنداداً.[94]

كل يوم كان مانديلا يميِّز لماهاراج عشر صفحات من القطع الكبير، ولم يكن بإمكانه الإشارة إلى صفحات سابقة، ويذكر ماهاراج أنه: «كان مضطراً لأن يحفظ في ذهنه الأشياء التي كتبها، وتسلسل أفكاره». عند ذلك يختبئ ماهاراج تحت البطانية وينسخ عمل مانديلا بأحرف صغيرة جداً ـ لا يصل ارتفاعها إلى نصف الميليمتر ـ ويخفي الصفحات الصغيرة بين كتبه الدراسية. وكانت الصفحات الأصلية تعطى لكاثرادا وسيسولو لإبداء ملاحظاتهما الصريحة وتصحيحاتهما. ثم يخفي ماهاراج الصفحات الصغيرة بعد مراجعتها داخل غلاف كتاب الإحصاء، الذي كان يخطط لتهريبه إلى الخارج عندما ينهي حملته الأخيرة عام 1976. احتفظ كاثرادا بنص مانديلا الأصلي كبديل يمكن الرجوع إليه، بأن دفنه، بمساعدة زملائه، في ثلاث عبوات بلاستيكية تحت أرض الباحة. وكانت الطامة الكبرى عندما بدأ بعض السجناء يحفرون أساسات لجدار جديد في الموضع نفسه. تمكن مانديلا وأصدقاؤه من تدمير عبوتين، لكن الثالثة اكتشفت وأرسلت إلى الضابط المشرف.[95]

كتب مفوض السجون تقريراً سرياً إلى وزيره في 26 تشرين الأول (أكتوبر) 1977 ـ بعد تأخير طويل ـ شارحاً أن هذه / الكتابات غير المرغوبة/ قد وجدت، ووجد خبراء الخطوط لدى شرطة جنوب إفريقية أنها كتبت من قبل مانديلا مع إضافات من قبل ماهاراج وكاثرادا. ولخص الفصول العشرة مؤكِّداً على ما تأثر به مانديلا من شعر الشاعر مكواي وبرام فيشر، واجتماعاته بالقادة السود في إفريقية وملاحظات ينقد فيها رئيس الوزراء فورستر Vorster. واعتقد أن اتجاه الكتابة «مبررٌ كافٍ لإقامة دعوى جديدة ضد مانديلا»، الأمر الذي ربما

لن يفيد في شيء بما أنه يقضي عقوبة بالسجن مدى الحياة لانتهاكات مماثلة. وعرَض بما أن السجناء قد استخدموا ورقاً مخصصاً للدراسة، فإن مزية متابعة الدراسة ربما تحجب نهائياً. والواقع أن مانديلا وسيسولو و كاثرادا أوقفوا عن الدراسة لمدة أربع سنوات (بما أن مخطوطة مانديلا قد فحصت بدقة، فقد حفظت في سجلات السجن).[96]

كانت خسارة مزية الدراسة ثمناً باهظاً يدفع لقاء مغامرة أحبطت في النهاية. أما الصفحات المصغرة فقد هربت خارج السجن من قبل ماهاراج عام 1976. وقد أرسلت إلى لندن، حيث أعيدت طباعتها وقدمت لأوليفر تامبو. عدد قليل من الأشخاص رأوا النسخة المطبوعة، لكن جو سلوفو ويوسف دادو، الشيوعيين في المنفى، أوضحا لماهاراج أنهما يعتقدان أنها لا تعطي دور الشيوعيين في النضال حقه.[97] وبقيت المخطوطة غير منشورة واختفت عشرين سنة. وقد كتب كاثرادا من بولسمور: «أنا مذهول طبعاً، وخائب الأمل وحزين»، عندما علم عام 1989 أن المخطوطة لم تجد طريقها إلى النشر بعد.[98] ولم تستخدم المخطوطة أساساً للثلثين الأولين من سيرة مانديلا المنشورة تحت عنوان / مسيرة طويلة نحو الحرية/ قبل عام 1994.

في منتصف عقد السبعين كان معظم نزلاء جزيرة روبين قد تقبلوا نمطاً من التصرف والتعاون. قال عنه نيفيل ألكساندر: «إن المجابهات قد تم تفاديها ولم تعد تحرض أبداً، وأصبح الإصرار على التفاوض مع السلطات والنقاشات الصبورة والإقناع، هي الأساليب المفضلة مع الإصرار على الكياسة والكرامة، إلى جانب الانضباط الطوعي. في المقابل، لا يقبل أي ضرب من ضروب الخنوع والإذلال. وأصبحت الوقاحة تشجب بحزم لكن بتهذيب، قدر الإمكان».[99]

كانت شكاوى مانديلا إلى سلطات السجن قادرة على إثارة غضب العاملين. ففي تموز (يوليو) 1976 أرسل قائد الوحدة الكولونيل جي دو بريز

J. du preez رسالة من مانديلا إلى المفوض في بريتورية، مع ملاحظة غاضبة تقترح أن يخفض موقع مانديلا «وقد رفضها المفوض»:

> إنه يتعمد وبطريقة منهجية ونفسية أن يضع القارئ تحت انطباع يوحي بأهميته الخاصة وتقديره لنفسه. والمستوى العالي جداً الذي يعامل من خلاله كسجين يخلق بوضوح الانطباع بأن السجانين، ورئيس السجن وحتى قائد الوحدة، ليست لهم أية أهمية في حل مشاكله.
>
> وأنا أعتبر مانديلا والسجناء الآخرين في قسمه خطرين جداً ويتحدون موقعهم تحدياً خطيراً يجعلهم لا يترددون في الاعتراف أن ليس لديهم أية نية في تأهيل أنفسهم، وهدفهم الرئيس هو زرع أحاسيس التمرد والفساد والإساءة للسلطة..الخ. ضد الإدارة وأعضائها...[100]

بعد ثلاث سنوات كتب المفوض إلى الوزير مضمناً كتابه رسالة كتبها مانديلا وريموند مهلابا ـ يشتكيان فيها من التفرقة في الجزيرة: «في ضوء العجرفة الجلية في الرسالة نقترح أن يدون مضمونها وتصنف» ـ وكذلك كان.[101]

قدم مانديلا أنموذجاً للسجناء الآخرين، فاتخذ أسلوباً يتميز بالثقة والكرامة ارتفع فوق الإذلال والتوترات اليومية، وأعطاه مظهر من هو /سيد قدره/ بحق. قال ألكساندر: إن السجن يمكن أن يعطي التحرر الشخصي ـ من التقاليد والتفاهة أو الإحساس بالذات ـ وشعر مانديلا حقاً أنه متحرر بطرق كثيرة. ولاحظ أن السجناء قد تحرروا من الخوف من المتسلط والمضطهد الذي كثيراً ما شل الحركة: «بمجرد أن تخلص نفسك من الخوف من المتسلط وسجونه وشرطته وجيشه لا يبقى أمامهم ما يفعلونه، أنت متحرر.. أنت لا تريد أن تهاجم، ولا تريد أن تجرح، وأنت تشعر بالألم والإذلال. ولكنك تشعر أن هذا هو الثمن الذي لا بد لك من دفعه كي ترسخ آراءك وأفكارك».[102]

بعد أن أطلق سراح ماك ماهاراج في كانون الأول (ديسمبر) 1976 وصف حالة مانديلا الذهنية. اعتقد ماهاراج أن أقسى عقاب بالنسبة إليه بعد أن خرج من

أتون المعركة أن يكون خارج منطقة (تكتيك) القرار: «عليك الآن أن تقبل أنك، ضمن ذلك المفهوم أصبحت في الهامش، وعليك أن تثق برفاقك».
وكانت أفكار مانديلا عن (الاستراتيجية) الرئيسة تزداد قوة وحزماً: ورأى أن الكفاح المسلح أساسي من أجل التحرير لكنه شعر بأن العقوبات تلعب «دوراً رادفاً مهماً جداً» بحرمان النظام من دعم الاستثمار والتجارة الدوليين. رأى ماهاراج مانديلا / يراقب عدوه/ بحثاً عن أية تناقضات أو انقسامات في بريتورية، في الوقت الذي يحتاط من محاولة الحكومة تقسيم المؤتمر الوطني الإفريقي من خلال الذعر المعادي للشيوعية.

وقد اقتبس ماهاراج، مثل الآخرين، من معنويات مانديلا، لكن أسلوبه الحار والمرحب قد يكون مضللاً، وسرعان ما أدرك أن مانديلا يحتاج وقتاً طويلاً كي يصبح صديقاً حميماً، وحتى عند ذلك فإنه يحتفظ بخصوصيته. وقد استطاع أن يتحكم بغضبه تحكماً كاملاً، ووراء تصرفاته اللطيفة والمهذبة كان شخصه الصلب والمدعم. «وطوال وجوده في السجن كان غضبه وكراهيته للنظام يتناميان. إلا أن أوجه التعبير عن ذلك الغضب أصبحت أقل ظهوراً للآخر. فقد أصبحت أكثر قمعاً، وأكثر هدوءاً. أصبحت أكثر بروداً وأكثر ميلاً إلى التحليل في توكيدها على مساوئ النظام». [103]

أقر مانديلا بذلك التقييم. فقد نجح في إخماد عواطفه والحفاظ على تعقله وانطباعه الشخصي في مواجهة أكثر المجابهات تحريضاً. وقال: «عندما يواجه الإنسان ظروفاً كهذه عليه أن يفكر بوضوح. وما من شك في أنك تفكر بوضوح عندما تكون هادئاً، ومتماسكاً وغير مستفز، لأنك إذا أصبحت مستفزا ترتكب أخطاء فادحة». [104]

إلا أنه سيواجه تحديات أكثر إيلاماً داخل أسرته، ممن لا يستطيع أن يخفي مشاعره عنهم.

17

سيدة وسط المعمعة

1962 ـ 1976

كان مانديلا قادراً على التواصل مع رفاقه السجناء، وحتى مع سجانيه. لكن التواصل كان صعباً مع أسرته. فعندما كان يعمل في الخفاء، أو أثناء محاكمته، كان قد أصبح أكثر بعداً عن أطفاله، حيث امتصته حياته السياسية مثل كثير من القادة العظماء، وترك طلاقه كثيراً من التحفظات. لكنه في السجن دفع ضريبة أسرية باهظة. فقد انقطع عن أسرته الثانية الشابة في سنوات تكوينها. وراحت تكبر بعيداً عنه، وبدأت تراه أسطورة غير مشخصة.

كان مانديلا دائماً أباً متطلباً وطموحاً، رب أسرة فيكتوري، كان يشعر بثقل مسؤوليته كرأس للأسرة، وحدد أهدافاً تعليمية عالية لأولاده شعروا بأنهم لن يحققوها. وقد قال واحد منهم: «مع أسرته كان محافظاً وسلطوياً. كان يريد سلالة كسلالة آل كينيدي».[1] وقد ضاعفت عزلته في السجن المسافة والعقبات. وفي زياراتهم النادرة بدا الأطفال كالغرباء، لم يكن يستطيع لمسهم أو الإحساس بهم، ولم يكن بإمكانه متابعة مراهقتهم إذ مضوا كل في طريق مستقلة. وكانت رسائله العاطفية من السجن إلى زوجته وأولاده، بعكس رسائله السياسية المنضبطة، وتصريحاته، تعبر عن غضب رجل رأى أسرته تنزلق بعيداً عنه.

في أثناء سنواته الخمس الأولى في جزيرة روبين واجه مانديلا مأساتين عائليتين. فعام 1968 أحضرت أخته مابيل والدته العجوز من الترانسكي لتراه،

ومعهما ابنه الثاني ماكغاثو Makgatho وابنته ماكي. كانت مابيل متفهمة للزيارة، وخائفة أن تتأثر صحة والدتهما بالرحلة البحرية ومراقبة الشرطة، التي أخذت جميع صفاتها كأنما كانوا يتوقعون موتها.[2] وكانت آخر مرة رأى مانديلا والدته على عجل في محاكمة ريفونية، يومها كانت جسماً ضعيفاً، محنياً. وفي السجن سمعه السجان يهمس لمابيل إنه قلق لمنظر أمه المهزول المنهك. وبقي صامتاً على غير عادته بعد مغادرتها.[3] وبعد بضعة أسابيع وصلت برقية تخبره أنها ماتت. شعر مانديلا بتبكيت الضمير لإهماله السابق لها. لكونه ابنها الوحيد، طلب السماح له بدفنها في الترانسكي، إذ تذكر أن نهرو أخرج من السجن ليصطحب زوجه إلى عيادة لمرض السل في سويسرة. لكن الحكومة رفضت السماح له، خشية أن يحاول الهرب. وترك أمر ترتيب الجنازة لكبار القبيلة؛ الملك ساباتا والزعيم الأعلى قيصر ماتانزيما، فيما أرسل القائد الزولي الزعيم مانغوسوثو بوثيليزي Mangosuthu Buthelezi رسالة تعزية.[4]

حزن مانديلا لأنه لم يتلق أية زيارة من ابنه ثيمبي، برغم أنه كان يعيش في كيب تاون. وقد كان ثيمبي دائماً ابنه المفضل والألمع ذكاء. كان يعبد والده أيام العمل السري عام 1961، حتى أنه كان يلبس سترته ليشاركه مسؤولياته وأسراره. لكن ثيمبي حزن لطلاق والديه، وأصبح ممزقاً بين سياسة أبيه وتدين أمه. وكان في عامه السادس عشر عندما دخل مانديلا السجن وتألم والده لأنه لم يراسله، وتزوج في سن مبكرة جداً من ابنة أحد أصحاب المخازن في كيب تاون، وأنجبت له ابنتين. وعام 1969، عندما كانت الابنة الصغرى في الشهر السادس من عمرها وصلته برقية بأن ابنه ثيمبي قد قتل في حادث سيارة. انهار مانديلا ورقد في فراشه دون عشاء إلى أن أتى سيسولو وجثا قربه وأمسك بيده في تعاطف صامت. وفي الصباح التالي ظهر أمام رفاقه كما هو عادة. وأرسل رسالة تعزية إلى إيفيلين ـ كانت الاتصال الوحيد معها وهو في السجن ـ ولكن ما أثار حزنه الشديد أنه لم يسمح له بحضور الجنازة.[5]

شعر مانديلا أنه يزداد اعتماداً على ويني، لكنه كان يدرك تماماً أنها أصغر وأقل خبرة من زوجات معاصريه، وأنها تخضع لاضطهاد الشرطة. ولم يكن قد مضى على زواجهما سوى أربعة أعوام عندما سجن تاركاً زوجه مع ابنتين. وبدا في رسائله العاطفية ـ التي كانت في البداية محددة برسالتين في العام ثم رسالة واحدة في الشهر ـ يَعِدها مثالية، دون النظر إلى أخطائها ومواطن ضعفها.

كانت ويني واعية تماماً مسؤوليتها السياسية والاسم الذي تحمله. وقد قالت مرة: «كنت مستعدة لأنوب عن نيلسون. كان علي أن أفكر بحذر فيما أقول، لكوني أمثله».[6] كان لديها صديقات مقربات بينهن هيلين جوزيف المحنكة في محاكمات الخيانة. وفاطمة مير في دوربان، لكنها كانت متغطرسة تجاه نساء سياسيات كبيرات مثل ألبرتينا سيسولو، وكثيراً ما كانت تندفع فتطلب الدعم من أصدقاء جدد من الرجال.[7]

اعتقل معظم الناشطين في المؤتمر الوطني الإفريقي بعيد اعتقال مانديلا، وتاقت ويني إلى حلفاء سياسيين. وقد عبر جورج بيزوس عن ذلك بقوله: «كل من يظهر كياسة ولطفاً كان يؤخذ بما يظهره».[8] لكن ويني كانت بمثابة حقل ألغام اجتماعياً وسياسياً، حيث الجواسيس والمخبرون في كل مكان.. وكانت تربطها صداقة مميزة مع بريان سومانا. وهو صحفي طلقته زوجه بعد ذلك بفترة قصيرة، قائلة إن ويني زانية، فيما هي أنكرت ذلك. كان سومانا في البداية قريباً من قادة المؤتمر الوطني الإفريقي، ولكن بعد الاعتقال حولته الشرطة عنهم، فوشى برفاقه السابقين، وكان بعضهم يشك في أنه هو الذي كشف المخبأ في ريفونية.[9]

في هذه الحالة المضطربة قامت ويني بزيارتها الأولى لجزيرة روبين في آب (أغسطس) 1964 بثياب نظيفة وأنيقة، أتت بصحبة ألبرتينا سيسولو، التقت بمانديلا لنصف ساعة في سقيفة فارغة في الميناء، بعيداً عن مرأى الزنزانات.[10] ومنع من الحديث بالكزوسية أو الحديث مع أي شخص خارج

إطار الدائرة الأولى من العائلة. كانت هي ومانديلا يتصايحان عبر النافذة فيما السجانون على كلا الجانبين يراقبون ويستمعون، ويتدخلون مقاطعين عندما يسمعون اسماً غير مألوف. قلق مانديلا لأن ويني أصبحت ناحلة وواضحة التوتر، وحثها على ترك نظام الحمية الغذائية. وقالت ألبرتينا سيسولو وهما خارجتان: «إن رجالنا يذوبون هنا لكن أرواحهم قوية جداً».[11] عاد مانديلا إلى زنزانته محبطاً ومرتبكاً لعدم تبادل أي لمسة مع زوجه. وما كان ليستطيع التغلب على قلقه تجاه ويني، برغم أنه لم يكشف عن مشاعره لرفاقه.

في جوهانسبورغ كانت ويني محاطة بالجواسيس فقد سحقت الشرطة النشاط السياسي الأسود تماماً، ولكنهم رأوا فيها قناة سرية محتملة، إضافة إلى أنها وسيلة لإضعاف معنويات زوجها. وكانت دائرة /الحيل القذرة/ التي يديرها فان دان بيرغ رئيس الأمن السري، مصممة (كما أفاد عميله غوردون وينتر Gordon Winter) على «خنق الحياة السياسة في هذه المرأة المشاغبة».[12] ومنعت ويني من مغادرة جوهانسبورغ. مما حرمها من زيارة مدارس طفلتيها فادعت بأنها لم تلتق أياً من معلميهما، وقالت عن الطفلتين: «كانتا دائماً تفصلان بمجرد أن تعرف شخصيتاهما، ولكنهما طفلتان لا تعرفان شيئاً. لقد تحجر الناس».[13] وبالتالي أرسلت الطفلتان إلى مدرسة راهبات في سوازيلاند، إلى حيث لا تطالهم أيدي شرطة جنوب إفريقية. اعتقدت الطفلتان أن المدرسة تحمل اسماً مناسباً «سيدة الأحزان»، واشتكت زيندزي من أن أحداً لا يعنى بهما.[14]

مضت سنتان قبل أن يسمح لويني بزيارة أخرى إلى جزيرة روبين، تحت رقابة أشد صرامة، تتبعتها الشرطة من المطار إلى القارب. وراقبها السجان جيمس غريغوري وهي تحدث زوجها عبر الزجاج «مثل مشاهدة الحياة على شاشة تلفزيون أبيض وأسود يعود إلى عقد الخمسين». قال غريغوري: إن ويني

تصرفت بكل لباقة وكبرياء، لكنه ذهل لمرأى «امرأة ذات كبرياء شرسة كلبؤة، والدموع تغسل خديها».[15]

قلق مانديلا لمطاردة البنتين من مدرسة إلى أخرى، وفي هذه المقابلة وافقا بتأن على إرسالهما إلى مدرسة داخلية في ووترفود Waterford وهي مدرسة جديدة متعددة الأعراق في سوازيلاند، بمساعدة هيلين جوزيف وصديقة ويني الجديدة الينور بيرلي زوجه المدير السابق في إيتون.[16] قلق مانديلا لأن ويني يمكن أن تكون واثقة جداً، لكنه لم يسألها عن الأصدقاء الشبان، وقال: «ذلك سؤال يجب أن ينسخه المرء من ذهنه. ويجب على الفرد ألا يكون كثير الأسئلة، يكفي أن هذه امرأة مخلصة لي، وتدعمني، وتأتي لزيارتي، وتكتب إلي».[17]

لدى عودتها إلى جوهانسبورغ، اتهمت ويني اتهاماً تافهاً بأنها لم تراجع الشرطة في كيب تاون، وصدر بحقها حكم مع وقف التنفيذ بالسجن لمدة سنة، مما أدى إلى فقدان عملها الغالي كعاملة اجتماعية. كانت خاضعة لضغط دائم، وكانت قد بدأت بالالتفات إلى العنف. ففي أحد الأيام أغار (سيرجنت) في الشرطة على غرفة نومها في أورلاندو دون أن يستأذن، فألقته أرضاً (كما قال)، وسقط فوقه المشجب، وكاد يكسر عنقه. واتهمت بمقاومة الاعتقال. وتذكرت أن مانديلا حذرها مرة: «زامي أنت غير منضبطة أبداً وأنت بحاجة إلى كثير من الترويض!». والآن لم يعد الوقت يسمح بترويضها. وفي محاكمتها شدد محاميها جورج بيزوس أن عليها أن تتصرف تصرف سيدة وليس مقاتلة من الأمازون، وبرأها القاضي.[18]

وبقيت ويني ممنوعة من ممارسة أي نشاط سياسي، ولكنها لم تستطع الابتعاد عن السياسة. فكانت تساعد أسر نساء المؤتمر الوطني الإفريقي اللاتي أودعن السجن، وبتهور أشرفت على طباعة وتوزيع كتيبات لصالح المؤتمر الوطني الإفريقي بمساعدة صديقها موهال ماهانيل Mohale Mahanyele الذي

كان يعمل لصالح وكالة الاستخبارات الأمريكية. كانت الشرطة التي أصبح بيدها الآن قوة سلاح قانون الإرهاب لعام 1967، مصممة على إيقاعويني. فنصبت أجهزة الشرطة لها فخاً موسعاً من خلال مخبريهم لتزويدها بشبكة من الأصدقاء المزيفين، كان بينهم محتال هندي اسمه موسى ديناث Moosa Dinath كان مانديلا قد أوصاها به دون أن يعرف سجله الإجرامي، وصديقته مود كاتزينيلينبوغن Maud Katzenellenbogen اللذان استخدما ويني لاختراق صندوق الدفاع والمساعدة في لندن، الذي كان يدعم المعتقلين. كما أتوا بمحام لويني هو مانديل ليفين Mandel Levin الذي تبين أنه من أنصار الحكومة وله ماض مشبوه. وفي 12 أيار (مايو) 1969 اعتقلت ويني مع واحد وعشرين آخرين كانت قد أقحمتهم بتهور في عملية توزيع الكتيبات التي قامت بها. وكان جاسوس الشرطة غوردون وينتر الذي صادقها قد رصد جميع اتصالاتهم.[19]

جاء الشرطة ويني في الفجر، وانتزعوها من طفلتيها. وتذكر عنهما: «كانتا تتمسكان بثوبي وتصرخان مامي، لا تتركينا! مامي، إلى أين أنت ذاهبة؟».[20] واحتجزت في سجن إفرادي في بريتورية في زنزانة صغيرة فيها دلو وزجاجة ماء بلاستيكية وإنجيل. وفيما بعد استجوبت مدة خمسة أيام بلياليها من قبل سوانبويل Swanepoel الذائع الصيت في التعذيب، حول اتصالاتها بالمؤتمر الوطني الإفريقي والشيوعيين، وحول صديقاتها النساء في السجن.[21] كانت الشرطة قد استخلصت اعترافات من سجناء آخرين، من ضمنهم موهال ماهانيل الذي قدم كشاهد للدولة. وقالت ويني فيما بعد: «لم أستطع أن أصدق خيانته التامة للقضية التي كنا نعمل معاً من أجلها».[22]

وسمح للمحامي اللامع جويل كارلسون، الذي طلبت ويني أن يمثلها، برؤيتها هي ورفاقها السجناء بعد أن أمضوا مئتي يوم في اعتقال إفرادي. لم يسمح لهم خلالها بالحمام أو الاغتسال، واحتجزوا في زنزانات بعرض خمس أقدام وطول عشر، أحياناً لم يكن يسمح لهم بأكثر من عشر دقائق في اليوم

للحركة قالوا: «إن الطعام كان لا يؤكل ولا يمكن أكله إلا بدافع الجوع». وضغطت الشرطة على ويني لتقدم تصريحاً إذاعياً تدعو فيه الشعب الأسود إلى التخلي عن الكفاح غير المشروع، والتعاون مع البيض، مقابل إطلاق سراح مانديلا إلى الترانسكي. فرفضت، وكتب كارلسون فيما بعد: «إن ويني كانت تتأرجح بين العقل والجنون. ولم تكن تعرف تماماً ما إذا كانت ستصمد حية في المدة الأولى للاعتقال».[23]

وأخيراً في كانون الأول (ديسمبر)، قدمت للمحاكمة مع الواحد والعشرين الآخرين في بريتورية، باتهامات عريضة بموجب قانون حظر الشيوعية، من ضمنها إحياء المؤتمر الوطني الإفريقي وتلقي تعليمات من مانديلا في جزيرة روبين.[24] وبعد شهرين سحب الادعاء، لكنهم اعتقلوا ثانية فوراً ووجهت إليهم الاتهامات ثانية في حزيران (يونيو) 1970 بموجب قانون الإرهاب. في ذلك الوقت كانت ويني في مستشفى السجن تعاني من سوء التغذية، ونزوفات في اللثة ونوبات إغماء. وفي تشرين الثاني (أكتوبر) قدمت هي والواحد والعشرون الآخرون للمحاكمة ثانية، لكن مستشارهم القانوني سيدني كينتريدج استطاع أن يثبت أن دليل الإدانة مماثل تماماً للدليل السابق، وسقطت الدعوى فيه.[25]

بعد ثلاثة عشر شهراً في السجن الإفرادي مازالت ويني بعيدة عن الانضباط. فقد بدت في الظاهر، لا مبالية ومفعمة بحيوية غير عادية. ويذكر جويل كارلسون الذي أقام حفلة بمناسبة إطلاق سراحها، يذكر عنها: «كثيرة الضحك والحماسة والمرح».[26] كانت نحيلة، لكن عينيها كبيرتان. وأصرت بأنها اكتسبت قوة من السجن. وكتبت فيما بعد: «أصبحت أكثر تحرراً في السجن. وأصبحت روحي أكثر نقاء في السجن من أي شيء آخر».[27] لكن تحررها كان له حدان. إذ قالت: «بعد تلك التجربة لم أعد أحترم أي شخص في السلطة. لقد أدركت عندها وحشية الأبارثيد ومدى استبداد الدولة بنا..

عرفت في تلك التجربة بأني لن أتردد في استخدام العنف لتحقيق مثلي». [28]

ظن بعض المعجبين السابقين أنها كانت مشوشة وقد قالت هيلين سوزمان: «لقد حولوها من إنسان دافئ القلب إلى مخلوق مجنون». [29]

في جزيرة روبين ترامى إلى مانديلا شيء عن سجن ويني من قصاصات صحف تعمد السجانون تركها في زنزانته. كانت أسوأ لحظاته تقريباً عندما سمع أنها هي أيضاً كانت في السجن، تعاني من ظروف أسوأ من ظروفه. لقد وجد سجنه الإفرادي القصير الأمد «الوجه الأكثر مقتاً في حياة السجن. ليس هناك ما يحول اهتمامك عن تلك الأسئلة التي تقض مضجعك». وشعر بالذنب لعجزه عن أن يكون هناك للدفاع عن ويني. لكنه حاول الحفاظ على هدوئه وتذكر أنهما يدفعان ثمن التزامهما بالنضال. [30] واضطر هو وزملاؤه إلى الإعجاب بشجاعة ويني في إبقاء النضال حياً، برغم كل المخاطر. وقد قال بيزوس: «مهما كانت ويني متهورة فقد كانوا فخورين بها». [31]

منعت ويني ثانية، لمدة خمس سنوات، لكنها حصلت على إذن لزيارة مانديلا لمدة نصف ساعة فقط. وعادت إلى جوهانسبورغ بصحة ضعيفة، تعاني من التهاب شُعبي وارتفاع في ضغط الدم، لكنها ما زالت مضطهدة. غضب مانديلا عندما علم أن الشرطة ركلوا بابها الخارجي وألقوا حجارة على النافذة. الأشخاص البيض الذين تعاطفوا معها وصادقوها خضعوا لمضايقات بدورهم، وبعضهم أبعدته نوبات جنون العظمة التي كانت تنتاب ويني وأعمالها الطائشة. وغضب جويل كارلسون لكونها غير جديرة بالاعتماد عليها، وحذرها من أي تورط سياسي. وعندما تجاهلته أسقط في يده وسافر إلى أمريكة. وستبقى متهورة في انتقاء أصدقائها.

أحدهم، وهو الصحفي جون هوراك، ساعد في العناية بالطفلتين، لكن عمله الأكثر أهمية كان التجسس لصالح الشرطة (وادعى فيما بعد أن ويني حولته إلى عميل مزدوج يعمل لصالح المؤتمر الوطني الإفريقي). [32]

استمرت الشرطة في مضايقتها هي والطفلتين. وتذكرويني إن: «مرات عديدة عندما كانت الطفلتان تعودان من المدرسة كانتا تجدان البيت مقفلاً وكانتا تضطران إلى البحث في الصحف لتعرفا فيما إذا كانت موقوفة».[33] بعد عام 1970 تابع مانديلا الضغط كي يرفع عنها الحظر، وفي عام 1974 طلب أن تكبح الشرطة وأن يسمح لويني باقتناء سلاح ناري تدافع به عن نفسها. لم تستطع قيادة الشرطة أن توصي بمسدس لأن «السيدة مانديلا مشهورة بتهورها واندفاعها وميلها إلى فقدان سيطرتها على نفسها».[34]

اكتسبت ويني كثيراً من الدعم المعنوي من صديقها بيتر ماغوبان Peter Magubane مصور مجلة الدرام. لكنه هو أيضاً اضطهد، فقد وشى به غوردون وينتر واحتجز 586 يوماً، كثير منها في سجن إفرادي.[35] وبقي مخلصاً لويني. وفي أيار (مايو) 1973 جاء بزيني وزندزي لتقابلاها قرب مكتب المحامي حيث كانت تعمل. فرآهم رجال الشرطة واتهموا ويني بإجراء اتصالات غير قانونية. وحكم عليها بالسجن ستة أشهر في سجن كرونستادت، الذي كان أقل رعباً من سجنها الإفرادي، وكانت تتمتع بطعام جيد وبزيارات من الطفلتين في عطلة نهاية الأسبوع.[36]

في جزيرة روبين عانى مانديلا كثيراً عندما سمع عن هذا السجن الجديد. ولم يعد يستطيع استحضار ذهنه في الألعاب، فيما قال لها، لأنه كان يفكر بها سجينة. وقال لها فيما بعد: «على رغم أني دائماً أحاول أن ألبس قناعاً شجاعاً. لكني لم أستطع أبداً أن أقبل فكرة وجودك في السجن. ولن أنسى أبداً الأوقات اليائسة الحزينة التي عشناها من أيار (مايو) 1969 إلى أيلول (سبتمبر) 1970 والأشهر الستة التي قضيتها في كرونستادت» وأوصاها بما يعكس انضباطه الذاتي الصارم في السجن:

> «ربما تجدين أن الزنزانة مكان مثالي تتعلمين فيه معرفة ذاتك، حيث تراجعين بواقعية وانتظام تفاعلات عقلك ومشاعرك. فلدى تقييم تقدمنا

> كأفراد نجد أننا نميل إلى التوكيد على عوامل خارجية مثل موقع الفرد الاجتماعي، وتأثيره، وشعبيته، وثروته، ومستوى تعليمه. . إلا أن هناك عوامل داخلية ربما تكون أكثر أهمية في تقييم تطور الفرد كإنسان، مثل: الشرف والإخلاص والبساطة والتواضع، والنقاء، والكرم، وعدم التشوّف والاستعداد لمساعدة أبناء جنسك ـ وهي صفات تكون كل ذات ـ تلك هي أسس حياة الفرد الروحية. . وإذا لم يكن لأي غرض آخر فإن الزنزانة تعطيك الفرصة لتراجعي يومياً سلوكك الكامل لتتغلبي على السيئ وتنمي ما هو جيد فيك. فالتأمل المنتظم، حوالي 15 دقيقة في اليوم قبل النوم، قد يكون مفيداً جداً بهذا الخصوص ربما تجدين صعوبة في البداية في تحديد النقاط السلبية في حياتك، لكن المحاولة العاشرة قد تؤتى أكلها، ولا تنسي أبداً أن القديس هو خاطئ لا يمل المحاولة.[37]

حاول مانديلا ترتيب شؤون الأسرة من سجنه، بينما كانت ويني في سجنها. كانت أختها نوبانتو منيكي Nobantu Mniki تعنى بالمنزل في أورلاندو. وقد طلب منها أن تبقى هناك إلى أن تعود ويني. وحذر ويني من أنها قد تعود إلى جو «أكثر برودة وكآبة»، وشجعها قائلاً: «الصعاب تحطم بعض الرجال لكنها تصنع رجالاً آخرين». واتفق مع نوبانتو أن تحضر عشاء من لسان وذيل الثور والزلابية والشمبانيا، لتغسل الأيام الصعبة في اليوم الذي تخرج فيه.[38]

وقال لويني وهو يتصور الاحتفال: «ليتني أستطيع أن أكون في البيت عندما تعودين. لكنت أودعتك سريرك وغنيت لك أغنية أو أغنيتين. وبعد ذلك أستمع إليك أياماً طويلة وأنت تروين ما حدث من 14 تشرين الأول (أكتوبر) حتى 13 نيسان (أبريل). سأعيدك إلى اليوم الأخير الذي رأيتك فيه كرجل حر في تموز (يوليو)»، وبدا مبتهجاً لمجرد التفكير في ذلك «أشعر كأنني شخص سيعيش مائة سنة أخرى».[39]

كانت الفتاتان مضطربتين. قالت ويني: «كان بيتنا امتداداً لمخفر

شرطة». [40] وعندما كانت ويني في السجن حذر مانديلا زيني من أن «المجرمين الأشرار الذين هاجموا والدتك مرات متكررة ودمروا صحتها قد يوكدون الآن عليك أنت وزندزي». [41] كان بعض الأصدقاء يعنون بهما، ومنهم بيتر ماغوبان ونونيا ميسو شقيقة ويني، وقد سجنا كل بدوره. وقدمت فاطمة مير في دوربان مساعدتها أيضاً مما أسعد مانديلا فقال لها: «كنت متأكداً من أنهما لن تصبحا يتيمتين طالما أنت حية»[42]، لكن فاطمة وجدت التعامل مع الفتاتين متعباً، وتذكر أنهما «نادراً ما كانتا تسعدان بالترتيبات المتخذة بشأنهما، وكانتا غالباً تتذمران أو تصبحان هدفاً لتذمر المشرفين عليهما». [43]

كانت الطفلتان تزدادان بعداً عن والدهما، لكنهما بقيتا مخلصتين لوالدتهما. وعندما كانت زيندزي في الثالثة عشرة فقط كتبت إلى اللجنة الخاصة بالأبارثيد التابعة للأمم المتحدة في نيويورك، طالبة الحماية: «تخشى أسرتي وأصدقاء والدتي أن الجو يمهد لشيء فظيع سيحدث لأمي». وعندما حكمت ويني بالسجن لمدة سنتين فيما بعد قالت زيني: «نحن الآن في سن تسمح بأن نشاركها محنتها ونحزن من أجلها». [44] وكتب مانديلا بحرارة إلى الفتاتين، لكنه كان صارماً إزاء التعليم، وخشي أن تفسدهما نماذج أولاد الأغنياء في ووترفولد، فكتب إلى أحد الأصدقاء عام 1974: «فهمت من رسائل الفتاتين أن السفر إلى أوروبا وأمريكة أصبح صَرْعاً في مدرستهما. وأشعر بأن علي أن أذكرهما بأنهما ابنتاي، وهذه حقيقة قد تضع صعاباً جمة في طريقهما. لكن الحقائق الصعبة لا تتفق بالضرورة مع رغبات الناس، خاصة عندما يكون أولئك الناس أطفالاً». [45]

بعد إطلاق سراح ويني سمح لها بزيارة مانديلا ثانية، مع ابنتيهما، في كانون الأول (ديسمبر) 1975. [46] كانت زيندزي في الخامسة عشرة فقط ـ أصغر بسنة من الحد الأدنى لعمر الزوار ـ لكن ويني زورت وثيقة ولادتها. فمانديلا لم يرها منذ كانت في الثالثة، واستعد للمناسبة فارتدى قمصياً جديداً ومشط شعره

بعناية: «لم أشأ أن أبدو شيخاً في نظر ابنتي الصغرى». وسحره جمال زيندزي وشبهها بويني. وقال لها: «أتخيلك صغيرة تجلسين في حضني في البيت لتناول شواء الأحد مع الأسرة». واستعاد ذكرى طفولتها الأولى. بينما كانت تغالب دموعها من وراء الزجاج، لكنه لاحظ تحفظها مع أب «بدا لا يمت إليها بقدر ما يمت إلى الشعب». وشعر أنها «في أعماقها لا بد أن تشعر بالاستياء والغضب من أب كان غائباً طول فترة طفولتها ومراهقتها».[47] وسرعان ما أدرك أن ويني ربما تغار من حبه لابنتيه. عندما كتب إليها يتحدث عن الجمال الذي شبتا عليه. وقد ذكر لفاطمة أن ويني طار صوابها وكأنه يخونها. وأجابت: «أنا، لست أنت، الذي انشأ هاتين الطفلتين اللتين تفضلهما عليّ».[48]

وكان تواصله مع ولديه الأكبر ماكي وماكغاثو أصعب. فقد كانا يتنقلان بين والدتهما إيفيلين وزوج أبيهما / ماما ويني/ . ولم يكن يصل مانديلا من أخبارهما إلا القليل. وبدا واثقاً، بفضل ما يذكره عن زوجات أبيه، أنهم جميعاً جزء من الأسرة الإفريقية الموسعة وكان يذكرهما بأن ويني قد اعتنت بهما جيداً عندما كان هو يعمل في الخفاء، وعنفهما لقلة العرفان بالجميل.[49] لكن رأيهما كان مختلفاً حيث قالت ماكي: «إنه لم يدرك أن ويني لم تكن تفعل ما وعدته به. لقد كنا في حالة حرب مع ويني».[50]

وقام ماكغاثو بن مانديلا بزيارته في جزيرة روبين عندما كان في السادسة عشرة عام 1967. وبقي يزوره مرة أو مرتين في العام على مدى السنوات العشر، لكنه سرعان ما أصبح مخيباً لآمال والده بسجلات المدرسة، حيث طرد لتنظيمه إضراباً، وفشل عدة مرات في اجتياز امتحان دخول الجامعة. وشعر ماكغاثو بضغط والده من أجل نجاحه، أكثر فأكثر بعد وفاة شقيقه الأكبر ثيمبي عام 1969، ولكن في سن الرابعة والعشرين لم يكن بإمكانه مواجهة العودة إلى المدرسة. وقد كتب والده من السجن في تشرين الثاني (نوفمبر) 1974: «المشكلة الحقيقية هي أنه في هذه السن، في غيابي، سيجد صعوبة في مقاومة

مباهج حياة المدينة».[51] وتزوج رين موسيهلي Rayne Mosehle التي سرعان ما أثبتت أنها أكثر حرصاً على المتابعة من زوجها، وأكثر اهتماماً بالكتابة إلى مانديلا. وقد قال مانديلا لماكغاثو: «ليس سهلاً أن تكتب إلى شخص يكاد لا يجيب».[52] وقال لرين إن ابنه كان: «في معظم الأحوال شاباً لطيفاً. إلا أن إحدى نقاط ضعفه هي عجزه عن الكتابة حتى فيما يتعلق بمشاكل الأسرة الحقيقية».[53]

قامت ماكي ابنة مانديلا بزيارته عام 1970، عندما أصبحت في السادسة عشرة. كانت لها شخصية أقوى من ماكغاثو، وكانت أكثر صراحة وأكثر تأثراً بأمها إيفيلين، التي ربتها حسب إيمانها هي لتكون من شهود يهوه. وبعد عام 1972 كانت كثيراً ما تزور إيفيلن في الترانسكي، حيث فتح قيصر ماتانزيما، ابن أخت مانديلا، دكان بقالة لإيفيلين كي تعمل فيه في كوفيمفابا Cofimvaba. أما ماكي فقد تفوقت في المدرسة، لكنها رفضت متابعة الدراسة الجامعية وتزوجت كاماغو Camago وأنجبت منه طفلين قبل أن يتداعى زواجها بعد بضع سنوات. تفهم مانديلا الوضع وأبدى تعاطفه، وكانت ماكي سعيدة بمساعدته. لكن خاب أمله لأن أكبر طموحاتها كان أن تصبح ممرضة. فحذرها من أن: «أولئك الذين ليس لديهم طموح حقيقي ودافع قوي يقضون عمرهم كله في عمل مجهد وليس بذي شأن».[54]

بقيت ويني المتنفس الوحيد لمشاعره، فكانت تخرج ما لديه من (رومانتيكية) يخفيها عن الآخرين. وقد كتب لها بعد زيارة قامت بها عام 1976: «لقد نجحت إلى حد ما في ارتداء قناع أخفيت وراءه توقاً شديداً إلى الأسرة، وحيداً، لا أندفع نحو البريد عندما يصل، وانتظر حتى ينادوا باسمي. كما أني لا ألبث في المكان بعد انتهاء الزيارات على الرغم من أن الحافز لأن أفعل يكون ساحقاً أحياناً، وأنا أناضل الآن لأكبح مشاعري وأنا أكتب هذه الرسالة». وبعد أن زارته في آب (أغسطس) 1975 كتب إليها: «قلت لنفسي: / هاهي

مسوثو تذهب كعصفور في اليد عاد إلى الأجمة، إلى الغاب المتوحش وإلى العالم الواسع/ وأنا لدي خطط وأمنيات وآمال. وأحلم وأبني قلاعاً». وكتب في الشهر التالي: «لكن على المرء أن يكون واقعياً. نحن مجرد أفراد في مجتمع تديره مؤسسات قوية، لها قوانينها وأحكامها وقيمها ومثلها ومواقفها».

شعر مانديلا بالحرمان عندما امتنعت ويني عن الكتابة لمدة تربو على الشهر «أيتها الساحرة! كم من السبل لديك لتبقيني متعلقاً بك. لكن هذا سبيل جديد». واحتفل بعيد ميلادها في أيلول (سبتمبر) 1975: «بخمرة رائعة تليق بملك» قوامها أربع ملاعق من مسحوق الحليب وثلاث ملاعق من الميلو وملعقتين من السكر البني، وخلطت كلها في ماء ساخن. كان يمسح الغبار عن صورتها في زنزانته كل صباح «ألمس دائماً أنفك بأنفي لأسترجع التيار الكهربائي الذي كان يسري في دمي كلما فعلت». وصوَّر في خياله «شكل جبينك، كتفيك، أطرافك، والكلمات المحبة التي كانت تنهمر كل يوم، وتناسيك تلك التصورات العديدة التي كان يمكن أن تحبط أية امرأة أخرى». في الشهر التالي طمأنها «شهيتي حسنة وأنام جيداً وقبل كل شيء فإن القوة والتفاؤل الأقصى يجريان في دمي لأني أعرف أنك تحبينني وأني أستمتع بالأماني الطيبة لأفراد عائلتي التي لا تحصى عدداً». وكتب لها في تموز (يوليو): «أشتعل فور وصول رسالتك، وأشعر برغبة في التحليق حيث لا تصل النسور».[55]

وقد ساعد أصدقاء وأقرباء آخرون في إبقاء معنوياته عالية. فقد قال لنوبانتو، شقيقة ويني: «إنهم جعلوه يدرك أن هناك أشخاصاً كثراً آخرين يتمنون لي الخير والنجاح في كل ما أفعل».[56]

وقد كتب إلى باربارا لامب Barbara Lamb ابنة صديقه القديم ميشيل هارميل: «الأمل هو الحصان الذي تمتطين صهوته ليمضي بك إلى وجهتك ويصل إلى موقع الفوز. إن ثروتي الوحيدة في العالم هي أن لدي أصدقاء علموني هذه الأشياء، وكان بينهم والدك الحبيب».[57]

لكن ويني كانت المصدر الرئيسي لقوته ولمعلوماته السياسية. كانت تحمل إليه الأخبار بلغة مشفرة، ويجيب بإشارات عن آرائه الحقيقية. وقد قال لها عام 1976 إن: «عام 1975 بدأ بداية سيئة وكان عام كوارث من أوله إلى آخره. وكثير من خطوط التصدع التي تحملت الهجوم العاصف لقوى القدر التي لا ترحم قد استسلمت».[58] كما كانت ويني الرسول البالغ الأهمية الذي يحمل أخباراً سياسية للسجناء الآخرين. حتى أن كاثرادا قال عنها: «كانت أفضل مصدر. كان جميع السجناء الآخرين ينتظرون زيارتها».[59] وكانوا بعد كل زيارة ينتظرون قلقين إلى أن يكشف مانديلا لهم ما علمه، وكان أحياناً يؤخره، بضبط نفسي يثير الجنون.

وقال بيتر ماغوبان، الذي سيبقى صديقاً للاثنين: «إن نيلسون ما كان له أن يكون على ما هو عليه لولا ويني. فعندما كانت الصحف غير قادرة على الكتابة عنه، كانت تنشر أخبار متاعبه. ولولاها لأصبح المؤتمر الوطني الإفريقي طي النسيان. فقد كانت الشخص الوحيد الذي وقف إلى جانب المؤتمر الوطني الإفريقي وقالت: «من يجرؤ على إيقافي»، وكانت مستعدة للموت من أجله.[60]

كانت ويني تتحول، بكل أخطائها، إلى لاعب رئيس على المشهد السياسي بحكم حقها الشخصي، الذي استطاع إبقاء اسم مانديلا حياً داخل وخارج جنوب إفريقية. وعام 1976 عندما اندلعت المقاومة السوداء فجأة في حلة جديدة، كانت هي في خضم المعمعة.

18

حضور ظليل / باهت

1964 ـ 1976

يتوق السجناء إلى أخبار من الخارج. وعندما ضبط مع مانديلا جريدة وجدها على المقاعد حكم عليه بالسجن الانفرادي ثلاثة أيام، كان طعامه الوحيد فيها ماء الرز. فقد كانت الصحف هي أثمن المواد المهربة، كانت المادة الأولى للنضال، كما قال مانديلا فيما بعد. كان السجناء يفعلون المستحيل للحصول على صحيفة؛ فكانوا يرشون السجانين، أو يختلسون الصحف من الكهنة الزائرين، أو يستعيدون ورق الصحف الذي تلف به شطائر السجانين. حتى أن ماهاراج تزلف إلى أحد السجانين بأن حصل على بصمات أصابعه على علبة سجائر، كي يهرب إليه صحيفة كل يوم، ثم يقوم بتلخيص ما جاء فيها بكتابة صغيرة جداً ليتداولها بقية السجناء.[1] وقد تمكن من الحصول على مجلة الإيكونوميست برغم الرقباء، بحجة أنه كان يدرس الاقتصاد، لكنها كانت غالباً تخضع لرقابة صارمة، وقد حجبت بعض الوقت عام 1967[2]، وكتب مانديلا فيما بعد: «كانت معرفتنا بالأحداث الجارية دائماً معرفة سطحية».[3] ولم تكن الأخبار التي تصلهم مشجعة. فمنذ قضية ريفونية والشرطة تمحو أية معارضة سوداء فاعلة، وقد كتب ستانلي أويز Stanley Uys في الأوبزرفر فور الحكم على مانديلا: «لم يبق أي قائد سياسي إفريقي ذي شأن ليس في السجن، أو في المنفى أو محدود الحركة. لقد أصبحت الشرطة السرية ماهرة جداً، بمساعدة واضحة من شبكة مخبرين واسعة، ولا يبدو أن أية جماعة سرية كانت قادرة

على إقامة أي تنظيم». [4] وتظهر التصريحات التي أدلى بها بعد الاستجواب ناشطون من المؤتمر الوطني الإفريقي مثل بارثولوميو هلوباني Bartholomeow Hlopane ومايكل دينغاك Michael Dingake (الذي أرسل فيما بعد إلى جزيرة روبين) تظهر إلى أي مدى استطاعت الشرطة اختراق المنظمة. وقد قال هلوباني في شهادة خطية بقسم في تشرين الأول(أكتوبر) 1964: «إن قوة المؤتمر الوطني الإفريقي الحالية ضعيفة جداً. وأعتقد أنه لم يبق أكثر من خمسين عضواً حالياً في سويتو». [5]

وسرعان ما علم مانديلا بالإقفار من المخربين والفدائيين المقاتلين الذين أوقفوا وألحقوا بالجزيرة.

تجلى اليأس في مقاومة الأبارثيد في شخص برام فيشر صديق مانديلا. فقد اعتقل بعد وقت قصير من زيارته مانديلا في الجزيرة عام 1964 ووجهت إليه تهمة ترويج الشيوعية وسمح، له بالكفالة، ولجأ إلى الاختفاء. وقال للمحكمة فيما بعد إنه: «مدين للسجناء السياسيين بأنه لم يبق متفرجاً وإنما أصبح يعمل». [6] وبعد أقل من سنة أمسك به، وحكم عليه في عام 1966 بالسجن مدى الحياة. سأله جورج بيزوس: هل كان الأمر يستحق فعلاً أن يتخلى عن أسرته وعن مهنته؟ فأجاب بحدة: «هل سألت نيلسون؟»، لكن فيشر دفع ثمناً رهيباً. ففي سجنه الأبيض كاملاً حرم كرامته الإنسانية. كما قال مانديلا: «بكل وسيلة كان سجانوه قادرين على تخيلها». وبعد إصابة فيشر بالسرطان عام 1974 التمس مانديلا لدى وزير العدل جيمي كروغز أن يسمح له برؤيته، عبثاً. ومات فيشر في العام التالي، وبقي مانديلا نادماً أبداً لأنه لم يعبر له عن مشاعره الحقيقية. [7]

كان السجناء قلقين دائماً خشية أن يغيبوا عن ضمير العالم. وفيما بعد كتب مانديلا: «منذ البداية حاولت إدارة السجن أن تدفننا أحياء بأن قطعتنا تماماً عن العالم الخارجي». [8] وقال كاثرادا: «في ريفونية قيل لنا: لن يعرف أحد

اسم مانديلا بعد خمس سنوات. كان هناك فقدان ذاكرة جماعي؛ لم يكن يسمح للعالم بمعرفة أي شيء عنا، والعكس بالعكس».[9] وكتب جورج بيزوس إليّ بعد محاكمة ريفونية: «إننا نأمل من كل قلوبنا ألا يصبحوا رجالاً منسيين».[10] ولكن السجناء سرعان ما أصبحوا طي النسيان في صحافة بريطانية وأمريكة. فعام 1964 أشارت صحيفة التايمز اللندنية إلى مانديلا ثمان وخمسين مرة. وعام 1965 ذكرته مرتين، وعام 1966 لم تذكره أبداً. وعام 1967 ذكرته أربع مرات، وعام 1968 لم تذكره أبداً، وعام 1969 ذكرته مرتين. أما النيويورك تايمز فقد أشارت إليه أربعاً وعشرين مرة عام 1964، ولم تذكره أبداً عامي 1965 و1966، ومرة واحدة عام 1967 ـ ذكرت ويني فقط وليس لنيلسون ـ ولم تذكره أبداً عام 1987 ولولا ويني لبقي مانديلا في غياهب النسيان.

داخل جنوب إفريقية كان اسم مانديلا قد طمس طمساً تاماً من خلال قوانين حظرت أي ذكر للمؤتمر الوطني الإفريقي أو قادته. وبدا أن الناشطين قد اختفوا، وحوّر الشاعر أوزوالد متشالي Oswald Mtshali أغنية الهيبيين:

> أين ذهب جميع الشباب الغاضبين؟ ذهبوا إلى جزيرة الندم من أجل شاربفيل..

وازداد الإحباط في ضوء المقارنة مع التحرير البادي لبقية أجزاء إفريقية. وقد قال المؤرخان كاريس وجيرهارت Karis and Gerhart: «إن عام 1964 هو العام الذي كان أفضل الأوقات بالنسبة لمعظم أجزاء شرق وغرب إفريقية المستقلة حديثاً، كانت أسوأ الأوقات في المناطق الجنوبية من القارة حيث لم ينحسر بعد المد الإمبريالي».[11]

في أيلول (سبتمبر) 1966 همس أحد المجرمين العاديين في المقلع: «مات فيروورد»، وأعطى الخبر السجناء السياسيين شعاعاً مفاجئاً من الأمل. بقي مانديلا غامضاً عندما علم أن فيروورد قد قتل على يد مراسل أبيض مخبول في المجلس النيابي، فالاغتيال ليس من سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي. لكنه

عقد بعض الآمال على بالثازار جون فورستر Balthazar John Vorster خليفة فيروورد، فقد كان يشعر ببعض الأشياء المشتركة مع فورستر، فكتب من سجنه، كرجل سجن بتهمة الخيانة أثناء الحرب: «رجل يحمل معتقدات قوية وهو مستعد للقتال من أجلها»، وعده «يستحق مراتب الشرف العليا في مجال سياسات البيض المحافظة».[12]

إلا أن أول تصرفات فورستر لم تدع مجالاً كبيراً للتفاؤل. فقد دفع قانون الإرهاب الجديد لعام 1967، الذي أعطى الشرطة سلطات أكثر إثارة للرعب، وعام 1969 أحدث فرع أمن سري جديد لا يعرف الرحمة هو مكتب أمن الدولة (Boss) بإمرة رفيقه أثناء الحرب الجنرال هنريك فان دين بيرغ. وشدد وزير دفاعه بي. دبليو. بوثا قبضة المؤسسة العسكرية أكثر فأكثر. وجد السجناء تلك الأخبار قاتمة تماماً، وقال مانديلا فيما بعد إن: «السنوات القليلة الأولى في الجزيرة كانت أوقاتاً عصيبة بالنسبة للمنظمة في الخارج ولنا نحن داخل السجن».[13] وقال سيسولو: «إن أسوأ الأوقات كان في عقد الستين. لكني لم أفقد الأمل فأنا متفائل».[14]

تابع مانديلا أخبار البلاد بإحباط متنام، مدركاً أنه عاجز عن التأثير في الأحداث. وقد اتفق السجناء منذ البداية على أنهم لن يحاولوا التدخل في قرارات المؤتمر الوطني الإفريقي في المنفى، لكن مانديلا كانت له اتصالات متقطعة مع شريكه السابق أوليفر تامبو، عن طريق رسائل مشفرة وجدت طريقها إلى النور منذ ذلك الحين.[15] وعبر كل ضغوط الفراق بقيت ثقته بتامبو التي ستكون مفتاحاً لوحدة المؤتمر الوطني الإفريقي ونجاحه النهائي.

كان هم مانديلا الأول هو الكفاح المسلح، وقد بعثت الآمال في تشرين الأول (أكتوبر) 1967 عندما علم السجناء من مجلة الإيكونوميست أن جنود جنوب إفريقية السود كانوا يقاتلون على خط الحدود بين روديسية وزامبية.

وقالت المجلة: «برغم أن الإرهاب قد ضبط بسهولة إلا أن الحكومة تبدي قلقاً غير عادي حياله».[16]

وتكشف أن مقاتلي المؤتمر الوطني الإفريقي في كتيبة لوثولي ـ القوة المتقدمة لسهم الأمة (إم. كي) ـ قد عبرت الزامبيزي من زامبية إلى روديسية، بإشراف تامبو شخصياً، والتحقت بالفدائيين الزامبيين، وقد قاتلوا بشجاعة الجيش الروديسي الأبيض في تدريب الاحتياط في وانكي.

وأعلن تامبو متفائلاً يوم 19 آب (أغسطس) أنهم: «يشقون طريقهم حرباً نحو البوار في جنوب إفريقية». لكن قوة الثوار سرعان ما واجهت تعزيزات من جيش جنوب إفريقية، وفي النهاية قتلوا أو أمسك بهم بعد الانسحاب إلى بوتسوانا. لم يعرف مانديلا التفاصيل إلى أن وصل أحد قادتهم، هو جاستيس مبانزا Justice Mpanza إلى جزيرة روبين.[17]

واجه تامبو نقداً حاداً حيال الحملة الفاشلة عندما عقد المؤتمر الوطني الإفريقي مؤتمراً حاسماً في موروغورو Morogoro، مقر قيادتهم في تانزانيا، سنة 1969. أعاد المؤتمر الوطني الإفريقي تنظيم القيادة العليا، ووافق على إدخال غير الإفريقيين لأول مرة، من ضمنهم جو سلوفو، الذي أصبح قائد سهم الأمة (إم. كي). وقد تشجع نزلاء جزيرة روبين بهذا التطور. حيث قال سيسولو: «كان له أثر هائل على قضية جنوب إفريقية والثورة برمتها».[18] لكن البنية الجديدة للمؤتمر الوطني الإفريقي تسببت ببعض المتاعب لتامبو بأن أعادت تحريك الشكوك بأن الشيوعيين البيض يستولون على المنظمة.

بقي تامبو قائداً متأنيا. وقد عين نائباً لرئيس المؤتمر الوطني الإفريقي بعد وفاة لوثولي سنة 1967، لكنه قاوم أن يصبح رئيساً. وأصر على أن العالم يفترض أن مانديلا كان الرئيس الحقيقي، لكنه أدرك أن مانديلا لا يمكن أن يسأل عن توجيه الكفاح المسلح في حين لم يكن قادراً على اتخاذ قرارات حاسمة. كما أنه لو اعترف به رسمياً كرئيس لضعفت إمكانية إطلاق سراحه.

openkandl.com

وانتخب التنفيذي القومي تامبو رئيساً في غيابه، الأمر الذي احتج عليه تامبو ولكن احتجاجه رفض بالإجماع. وكان قلقاً لأنه «الرئيس الأول والوحيد للمؤتمر الوطني الإفريقي الذي انتخب من قبل اللجنة التنفيذية الوطنية NCE دون تفويض من العضوية المتوفرة».[19] وما زال يسمي نفسه نائب الرئيس، وغالباً ما يشير إلى مانديلا بلفظة القائد الأعلى للقوات المسلحة.[20] ولم يصل القرار إلى القادة في جزيرة روبين قبل حلول سنة 1977، الذين رسخوا تامبو رئيساً، إلا أنه أصر على تفادي اللقب.[21] كان تامبو يرى بعين عقله أن مانديلا بلا شك هو الرئيس المنتظر الذي سيذعن له.

أصبحت حملة تامبو ضد الأبارثيد أكثر صعوبة في منتصف عقد الستين، عندما كانت جنوب إفريقية تعيش فترة رخاء اقتصادي ملحوظ. قد انقلب هروب رأس المال الأجنبي بعد شاربفيل في سنة 1960. وبحلول سنة 1965 كان الاستثمار الذي يدخل البلاد أكبر مما كان قبل المجزرة. وكانت نسبة النمو في جنوب إفريقية خلال عقد الستين حوالي 6 بالمئة في العام، متجاوزة جميع الدول الغربية تقريباً، بمعدل عائدات لرأس المال تقدر بـ15 بالمئة، وتلك نسبة أعلى من أوروبا بكثير. وزادت كبريات شركات صناعة السيارات وسواها من الشركات المتعددة الجنسيات حضورها، فيما أصبحت ألمانية مستثمراً جديداً رئيساً.[22] وامتدت الفرص المالية لشركات ما وراء البحار بزيادة هائلة في نفقات الدفاع، أتى الازدهار بمزيد من السود إلى المعامل والمدن، مما تحدى مبدأ الأبارثيد. وكان فورستر أكثر إصراراً عل المضي في خطط فيروورد «للأبارثيد الأعظم» الذي سيعطي استقلالاً اسمياً للبانتستان الجديد في الوقت الذي يعامل السود كغرباء لا حقوق لهم.

أخذت آمال تامبو بالمساعدة من جنوب إفريقية تتلاشى بسرعة، فالضربة الاقتصادية والعسكرية لحكومة فورستر مكنتها من التنمر على الدول السوداء

الجديدة الفقيرة إلى الشمال، التي تعتمد عليها في التجارة والنقل وفرص عمل المهاجرين، أو كانت تلجأ إلى إغوائها. وكان تامبو يتوقع دعماً متزايداً من جيران أصدقاء إذ يخرجون من كونهم مستعمرات إلى الاستقلال، وخاصة عندما حققت المحميات البريطانية السابقة الثلاث ـ باسوتولاند وسوازيلاند وبيتشوانا لاند ـ استقلالها في عامي 1966 و1967.

فاضت الأمم المتحدة بأعضاء إفريقيين جدد. وقد قطعت الوحدة الإفريقية، التي انبثقت عام 1963، على نفسها عهوداً بالمقاطعة والمساعدة وأصبحت زامبية وتانزانيا من دعاة تحرر السود. ولكن لدى نهاية العقد كانت الحقائق القاسية للاتكال الاقتصادي ترسخ نفسها، وعندما اجتمع أربعة عشر رئيس دولة إفريقية في زامبية في أيار (مايو) 1969 أعلنوا / بيان لوزاكا/ الذي وضع دون استشارة المؤتمر الوطني الإفريقي، والذي وكد على الحاجة إلى التسوية مع جنوب إفريقية، وحط من شأن الكفاح المسلح. وفي مؤتمر موروغورو للمؤتمر الوطني الإفريقي بعد ذلك بأسبوع حذر تامبو من / هجوم معاكس قوي ومشؤوم/ ضد الدول المستقلة حديثاً وضد حركات التحرر.[23]

لم تستطع الحكومات الغربية مقاومة إغراء ازدهار جنوب إفريقية، وأحب رجال أعمال جنوب إفريقية، بقيادة أكبر شركاتهم، الأنغلو أمريكية، أن يقولوا إن جنوب إفريقية تمر في مرحلة جديدة من الإقلاع الاقتصادي، مثل بريطانية عام 1850، حيث أدى الرفاه آلياً إلى رفض الإصلاحات. هذا الرأي تبنته مجلة الإيكونوميست في حزيران (يونيو) 1968 في دراسة طويلة مؤثرة عن جنوب إفريقية كتبها نورمان ماك راي Norman Macrae. الذي قال إن البيض سيصبحون أكثر تحرراً إذ يشعرون أنهم أكثر أمناً: «وكلما ازداد الغنى والأمان فإن ذلك عادة يعني مزيداً من اليسار».

وشرح بأن العسكريين يطبقون إطباقاً كاملاً على أي اضطراب للسود: «بضعة مجانين شجعان يتسربون أحياناً عبر الحدود بنية التخريب، عندها تمسك

بهم شرطة جنوب إفريقية التي لديها مخبرون في كل واحد من هذه المعسكرات المقاتلة من أجل الحرية». [24]

بدا الوضع من جزيرة روبين قاتماً. وقد قال ماهاراج: «كان ذلك أسوأ وقت. وازداد سوءاً مع ازدياد أعداد المقاتلين الذين يقعون في أيدي السلطات أو لا يتمكنون من الدخول». [25] بحلول 1970 كان مستقبل الوضع في جنوب إفريقية يبدو أكثر قتامة. عندما لم تظهر الانتخابات العامة البيضاء أي مؤشر بالتحرر الموعود. فالحزب المتحد، بزعامة فيللييرس غراف Villiers Graaff هزم هزيمة منكرة أمام حزب فورستر الوطني والجناح اليميني الجديد للحزب الأفريقاني الحزب الوطني الهيرستيغي.

كان جورج بيزوس الذي يزور الجزيرة بين وقت وآخر يصدم دائماً بتقلب المعنويات حسب نشاط السود في الخارج: وقد وجد مانديلا الآن في أسوأ أحواله، قلقاً حيال نقص المعارضة. [26]

فقد بدا كأن المعارضة داخل جنوب إفريقية قد اختفت أو كادت. وأصبح ذكر الأحرف الأولى للمؤتمر الوطني الإفريقي والمؤتمر الإفريقي العام من المحظورات. وكل من توجد بحوزته إحدى وثائق الكونغرس كان يتعرض للاعتقال المديد، وحظر نشر أية كلمة يقولها مانديلا أو تامبو.

وكان المراقبون والحكومات الغربية قد شطبوا المؤتمر الوطني الإفريقي كياناً، وقد جاء في تقرير استخباراتي أمريكي سري في تشرين الأول (أكتوبر) 1969 أن محاولات عدة لاختراق جنوب إفريقية لم تكلل بالنجاح. فالتنظيم السياسي ضمن الجمهورية ضعيف ومخترق من قبل عملاء الحكومة». [27] وبحلول أواخر عقد الستين كتب المؤرخ الأمريكي توماس كاريس Thomas Karis: «المؤتمر الوطني الإفريقي لم يكن له أكثر من حضور ظليل». [28] وعندما أتى جيم هوغلاند Jim Hoagland مراسل الواشنطن بوست إلى جنوب إفريقية عام 1970 وجد أن أسماء لوثولي ومانديلا وسيسيولو لم يعد لها كبير

أثر، كأنما هي تنتمي إلى زمن آخر، في ماض سحيق، وقد ضاع أثره منذ زمن».[29]

واعترف مانديلا في السجن بأنه: «إبان الأيام القاسية التي مرت في أوائل عقد السبعين عندما بدا المؤتمر الوطني الإفريقي وكأنه يغرق في الظلال، كان علينا أن نجبر أنفسنا على عدم الاستسلام لليأس».[30] وقد أقرت مسودة وثيقة من وثائق المؤتمر الوطني الإفريقي في تشرين الثاني (نوفمبر) 1970: «بأن منظمتهم داخل البلاد كانت / شبه ميتة/ ».[31] وعندما زرت أصدقاءاً سوداً في سويتو في ذلك العام وجدتهم أكثر تحفظاً مما كانوا قبل ست سنوات. وقال ابن الصحفي هنري نكزومالو Henry Nxumalo: «أنا لا أجرؤ أن أخبر أخي بم أفكر». كان المخبرون في كل مكان، وكان صغار التسوتسي (قطاع الطرق) يدفع لهم مقابل إعطاء أخبار عن المخربين والفدائيين. وقد سأل مانديلا صديقاً هندياً قديماً هو يوسف كاتشاليا: «إذاً أتيت لتلتقط الخيوط القديمة؟ فإنها مقطوعة».[32]

أصبح تامبو يعتقد الآن بأن إراقة الدماء أمر وشيك لا بد منه. ففي 25 آذار (مارس) 1970 كتب إلى صديقه رونالد سيغال Ronald Segal، الذي ساعده منذ عشر سنوات على الهرب من جنوب إفريقية، بأنه يستطيع أن يرى كيف يدفع فورستر والبيض في جنوب إفريقية إلى القتل والتعذيب بدافع الخوف من المجهول «أستطيع أن أفهم حتمية إراقة الدماء بوحشية في جنوب إفريقية التي أغفلتها تطورات السنوات العشر الماضية إغفالاً لا يمكن إصلاحه. إن عقد السبعين سيكون مغرقاً بالدماء، دماء الأبرياء أكثر مما هي دماء المذنبين لسوء الحظ». فكر تامبو كم ستكون روايته مختلفة لو أن سيغال لم يلقه وراء الحدود في آذار (مارس) 1960: «فالتاريخ يبنى من أحداث هي بحد ذاتها غير مهمة أبداً». وربما كان السجل اليوم كما يلي: «رونالد سيغال يقضي حكماً بالسجن مدى الحياة في سجن بريتورية، وأوليفر تامبو ـ شنق في بريتورية عام 1967، إثر

إدانتهما بموجب قانون الإرهاب، وجون فورستر اغتيل. ونيلسون مانديلا قائد جيش فدائي كبير يعمل في أجزاء مختلفة من جنوب إفريقية». [33]

كان المؤتمر الوطني الإفريقي، الذي ما زال يعلق آمالاً على النشاط العسكري، يدرب مزيداً من الفدائيين في معسكرات خارج جنوب إفريقية، ويهرب الدعاية على شكل مناشير أو رسائل إذاعية عبر «راديو الحرية» من زامبية أو تانزانيا. لكن الجماعات الصغيرة الباقية من ناشطي الداخل الشجعان سرعان ما ألقي القبض عليهم بمساعدة المخبرين والتعذيب.

وقد تلقى نزلاء جزيرة روبين دعماً قوياً لمعنوياتهم في نيسان (أبريل) 1974 من حدث لم يكن في الحسبان، وهو انقلاب عسكري في البرتغال، أطاح بحكومة مارسيلو كيتانو. أعقب الانقلاب وعد بالاستقلال للمستعمرتين البرتغاليتين في جنوب إفريقية «أنغولا وموزامبيق». وقد ظهر أن هذا سيقلل من شأن استراتيجية بريتورية باستخدام / دولة عازلة/ تحميها من التسلل العسكري. ورأى المؤتمر الوطني الإفريقي الآن ما يوحي بقواعد عسكرية في موزامبيق، على طول خط الحدود مع جنوب إفريقية، تدعمها الحكومة الثورية الجديدة في البلاد، فريليمو FRELIMO. وصول حكومات ماركسية إلى موازمبيق وأنغولا أثلج صدور المناضلين الشباب السود في جنوب إفريقية، الذين بدؤوا يطلقون شعارات مثل / تعيش فريليمو/ أو / لا لونا كونتينوال/. وفي جزيرة روبين شعر مانديلا بالثقة بأن «المد يتجه نحونا». وأسعده أن يسمع أن تامبو قد حضر حفلاً حكومياً في موزامبيق. [34]

ولكن مع كل هذه الآمال بالمستقبل بقيت سهم الأمة (إم. كي) غير فاعلة داخل جنوب إفريقية. وبحلول عام 1976 لم تكن قد أطلقت طلقة واحدة داخل حدود البلاد. [35] كان مانديلا في عزلته واقعياً أكثر من معظم المنفيين حول التوقعات الفورية، إلا أنه بقي مستبشراً بالمدى البعيد، وكما كتب في السجن في ورقته المشهورة التي لم تنشر حول التحرير الوطني أوائل عام 1976:

مرت أربعة عشر عاماً على إرسال أول فوج من المجندين في الـ ام كي إلى الخارج، ولم يبدأ الكفاح المسلح داخل جنوب إفريقية. وحتى استقلال موزامبيق وأنغولا لا يشكل ضمانة بأن مشاكلنا بهذا الخصوص قد حلت. فالدول المستقلة حديثاً لديها مشاكل كثيرة لتخوضها. وربما وجدت من الصعوبة بمكان أن تفعل ما تريد، فالمبادرة ما زالت في أيدي العدو. والمهمة الأكثر إلحاحاً، بعد مسألة الوحدة، هي انتزاع تلك المبادرة من العدو. وأنا واثق بأن هذه اللحظة التاريخية ستأتي، وأن النتائج ستعوض عذاب لحظات التوتر التي شهدتها الحركة لأكثر من عقد كامل. . . لا يمكننا أن نقاوم التفاؤل بأن تباشير مرحلة جديدة قد أشرقت باستقلال موزامبيق وأنغولا. . إنها مسألة وقت قبل أن يأتي الظرف الملائم الذي تستطيع الحركة استغلاله لتطبق على عنق آخر نظام عنصري في قارتنا. . . عندما تأتي تلك اللحظة ربما يجد العدو نفسه مضطراً للقتال على جبهات كثيرة. [36]

لكن رئيس وزراء جنوب إفريقية جون فورستر كان مرناً مرونة مكنته من التفاهم مع الحكومة السوداء الجديدة في موزامبيق، واستمر في استخدام موانئ البلاد لتأمين فرص عمل للعمال المهاجرين مقابل كبح النشاط العسكري. بحلول هذا الوقت كان الازدهار الاقتصادي قد همد، وكان رجال أعمال جنوب إفريقية بأمس الحاجة إلى أسواق في بقية إفريقية. وتوصل فورستر إلى اتفاقيات سرية مع بلدان الشمال، وصلت أوجها في زيارة سرية لساحل العاج وليبرية. كما مارس الضغط على إيان سميث للتفاوض مع الحركات الثورية السوداء في روديسية. وفي الأمم المتحدة في تشرين الثاني (نوفمبر) 1974 قدم وزير خارجية فورستر بيك بوثا Pik Botha شرحاً جريئاً بأن بلاده مصممة على الإصلاح: «سنبذل قصارى جهدنا لنبتعد عن التمييز سواء من مطلق العرق أو اللون». وبعد بضعة أيام قال فورستر لإفريقية السوداء: «إذا أعطيتم جنوب إفريقية فرصة ستفاجؤون بموقفنا». [37] لم يكن لدى مانديلا أوهام كثيرة عندما

سمع عن خطاب فورستر: لقد رأى كيف تجاهلت الحكومة فرصاً سابقة لتفادي خطر ثورة مسلحة، وكان مقتنعاً بأن أية تغييرات أساسية لن تحدث.

بقي مانديلا منشغلاً بالحفاظ على الوحدة، سواء داخل المؤتمر الوطني الإفريقي أو مع شركائه. لكن التوترات كانت تتنامى في المؤتمر الوطني الإفريقي في المنفى، بين الشيوعيين والوطنيين، وبحلول عام 1975 كان تامبو يواجه انشقاقاً وشيكاً. وكان السبب المباشر هو الموت المبكر في عام 1973 لروبرت ريشا عن ثلاث وخمسين سنة، وهو الوطني المتحمس من صوفيا تاون الذي أصبح ممثل المؤتمر الوطني الإفريقي في لندن، والذي كان كثيراً ما ينقد الشيوعيين، وخاصة بعد إبعاده عن التنفيذي الوطني، كان مانديلا معجباً بريشا، وكتب رسالة طويلة مؤثرة لأرملته ماغي مشبهاً إياه بإبطاله الراحلين الآخرين مثل لوثولي وزد. كي. ماثيوز وجي. بي. ماركس «لقد نذرنا أنفسنا معاً بكل صراحة، وكانت بيننا أسرارا حميمة، عانينا نكسات مشتركة وقطفنا ثمار النصر». [38] لكن القداس الذي أقيم لروح ريشا في لندن تحول إلى معركة عندما أقدم أمبروس ماكيواني Ambrose Makiwane الوطني الشاب من الأسرة الترانسكية الكبيرة التي كان يعرفها مانديلا عندما كان طفلاً، على إلقاء خطبة لاذعة انتقد فيها / العصبة الصغيرة/ التي اختطفت المؤتمر الوطني الإفريقي: «الإفريقيون يكرهون هيمنة الحزب الشيوعي». [39] وبعد ذلك بمدة قصيرة تشكلت مجموعة من ثمانية من أعضاء المؤتمر الوطني الإفريقي الثوار، كان بينهم أمبروس ماكيواني وابن عمه تينيسون. واجه تامبو حملة / حقودة/ ضد نفسه، عندما كتب إلى مانديلا، لجأت إلى «إطلاق العنان ضد الشيوعية والعنصرية»، مستخدماً اللهجة نفسها التي يستخدمها الطغاة البيض. [40] حاول تامبو إبقاء الثوار المعادين للشيوعية داخل المجموعة، ولكن في أيلول (سبتمبر) 1975 اتفق التنفيذي الوطني على طرد / عصبة الثمانية/ ، كما أطلق عليهم. وقد

كتب ألفريد نزو Alfred Nzo الأمين العام للمؤتمر الوطني الإفريقي: «الفصيل الخائن قد تعمد الانطلاق علناً في محاولة لإثارة القلقلة والفرقة بين أبناء شعبنا».[41]

حزن مانديلا كثيراً لهذا الانشقاق، بما له من ماض وطني خاص، كان يتعاطف مع الثوار، وأمل أن يتبنى المؤتمر الوطني الإفريقي «موفقاً ألطف وأقل تشدداً»، لكنه أدرك أنهم قد استفزوا القيادة استفزازاً عميقاً. وقد فات أوان تدخله.[42] أسس الثوار كيانهم الخاص، وأسموه تحدياً ANC (مؤتمر الوطنيين الإفريقيين). ونادوا بمانديلا زعيماً حقيقياً لهم، لكن مانديلا نفسه لم يترك مجالاً للشك في أن تامبو هو قائده هو. وكتب في رسالة مهربة: «هناك مؤتمر وطني إفريقي واحد. وهو المؤتمر الوطني الإفريقي الذي يتخذ من لوزاكا مقراً رئيساً، والذي رئيسه هو أو. ت».[43] وفي النهاية سيعود معظم الثوار إلى الانضمام إلى المؤتمر الوطني الإفريقي وسيرحب أمبروس ماكيواني بعودة تامبو إلى جنوب إفريقية عام 1990. لكن ابن عمه تينيسون انضم إلى حكومة الترانسكي بإمرة قيصر ماتانزيما، وقتل في تموز(يوليو) 1980 على يد قاتل حامت الشكوك حول أنه من مسلحي المؤتمر الوطني الإفريقي.[44]

تعرض تامبو لنيران ثقيلة، فهو جم لقيادته المملة وغير الإبداعية، وقلق حيال مزيد من الانشقاقات، إذ كتب لمانديلا مستخدماً رمزاً يصف الفصائل بأنها «نواد رياضية» والمؤتمر الوطني الإفريقي بأنه / الاتحاد/ : «نشأت سلسلة من النوادي، لكنها ليست معنية برياضة مربحة ما لم تنظم وتقبل في الاتحاد الرياضي». لكنه كان واثقاً من أن أعضاء في الاتحاد «سينظمون مباريات ثنائية غير رسمية، خاصة مع نواد جديدة».[45] ومازال يتطلع إلى نزلاء جزيرة روبين في شؤون القيادة فقد كتب إلى مانديلا عام 1975: «إن الهواء يردد أصوات شبابنا ينشدون في مديح قادتنا المسجونين. أي إسهام رائع تقدمه لوحدة شعبنا».[46]

ما زالت توقعات نجاح المؤتمر الوطني الإفريقي في الوطن الأم تبدو ضعيفة، ولكن في الوقت الذي كان السجناء يتابعون تأرجح الكفاح المسلح بين ارتفاع وانخفاض، لم يكونوا على إطلاع بالتغيير الاجتماعي الذي نما تلقائياً وسريعاً في جنوب إفريقية التي كانت تضعف ببطء البنى الحديدية للأبارثيد وتوسع المعارضة لها. وكانت المعامل مراكز الاضطراب الأكثر وضوحاً. حيث حرض الكساد والتضخم أوائل عقد السبعين العمال السود على طلب أجور أعلى، كانت الإضرابات خروجاً على القانون، لكن العمال السود أضربوا في دوربان أوائل عام 1973، وبعد ذلك في إيست لندن.

كانت حركة واسعة، وغير متوقعة، وبلا قادة رسميين يمكن اعتقالهم أو جعلهم كبش فداء. هؤلاء العمال المتوسطو المهارة لم يكن من السهل استبدالهم، لذلك فقد كسبوا بسرعة زيادة الأجور. وجعلهم هذا النجاح أكثر اهتماماً بالنقابات. وقد توخوا الحذر سياسياً، وربطوا أنفسهم بنقابات يقودها البيض، كان المؤتمر الوطني الإفريقي قد شجبها. لكن كما توقع المؤتمر الوطني الإفريقي فقد بدأت الآن «الفترة الأكثر عنفاً في الاضطرابات السياسية والصناعية».[47]

قدر مانديلا في سجنه أهمية الإضرابات، والدور الذي لعبه هاري غوالا ورفاقه في التحريض عليها.[48] فكتب أوائل عام 1976: «لم يكن هناك أي دليل تقريباً يشير إلى أن العمال يتطلعون الآن إلى ما وراء آفاق محددة بالمصالح المحلية الصرفة ويحصرون اهتمامهم في هزيمة الأبارثيد عموماً. إلا أن السرعة التي صعدت فيها الإضرابات، والتصميم والتضامن بين العمال، وموقفهم المتحدي، أظهر أنهم في معاملهم المختلفة لم يعد لديهم أي استعداد لتحمل أي نوع من التفرقة».

كما تشجع مانديلا من المعارضة للأبارثيد التي أبداها الليبراليون البيض ورجال الكنيسة والطلاب. وأمل أن الحزب التقدمي الجديد، الذي كان فيه ستة

نواب في المجلس النيابي انتخبوا في انتخابات عام 1974، سيساعد في توعية البيض بمساوئ التفرقة العنصرية. وأبدى اهتماماً خاصاً بالطلاب السود والبيض، الذين كانوا يدافعون عن الحريات المدنية. ويطالبون بإطلاق سراح السجناء السياسيين. ولاحظ مانديلا أن القادة المسيحيين يزدادون جرأة في نقد الأبارثيد. فحث زملاءه في المنفى على الاتصال بكل صديق ممكن، وكتب في صحيفة التحرير الوطني عام 1976: «إن المشاكل التي تواجهنا تبدو عصية فقط عندما نحاول حلها من خلال حركة تحرير منقسمة على ذاتها ولا تستطيع أن تجمع الناس على رص جميع إمكانياتهم من أجل هزيمة العدو المشترك».

كان مانديلا مصمماً على فتح خطوط على الأفارقة الأكثر ليبرالية، وخاصة بعد اتصالاته بالسجانين. وحذر رفاقه من مغبة رفض أي تعامل مع الأفارقة، أو أن «يضللهم» ما هو معروف من «عداء وازدراء الإنكليز لهذه الجماعة». في الصحيفة نفسها كان يتكهن بالفرصة التي ستتاح بعد خمسة عشر عاماً:

> لا يحتكر السياسيون الأفارقة شعبهم، تماماً كما نحن لا نحتكر شعبنا. علينا أن نتحدث مباشرة مع الأفارقة ونشرح موقفنا كاملاً. فهناك رجال شرفاء على طرفي خط اللون، والأفريقاني ليس استثناء. نحن أصحاب قضية قوية والقادة الأفارقة سيلقون دعماً بلا منازع طالما أن شعبهم يجهل القضايا المعنية.. أصبح الصدام العنيف أمراً لا بد منه. وبعد أن نخوضه ونحيل هذا البلد رماداً سنبقى مضطرين إلى الجلوس معاً والحديث عن مشاكل إعادة البناء، الرجل الأسود والرجل الأبيض، الإفريقي والأفريقاني.[49]

خلال جميع نكسات عقد الستين والسبعين بقي مانديلا يتطلع إلى دعم القوى الغربية ورأى في العقوبات الاقتصادية السلاح المستقبلي الأساسي ضد الأبارثيد. لكن لا الحكومة البريطانية ولا الحكومة الأمريكية أبدتا ما يشجع. وعندما وصل تامبو إلى لندن أول مرة أمضى وقتاً طويلاً يسعى إلى دعم حكومة

المحافظين، أولاً بزعامة هارولد ماك ميلان، ثم أليك دوغلاس هوم، وطال انتظاره لمقابلات في وزارة الخارجية، وقد قالت زوجه أديلايد عنه: «لم يتوقف عن قرع الأبواب». [50] لكن الدبلوماسيين كانوا حذرين. حتى أن واحداً منهم، وهو أي. جي. أم. ساثرلاند I.J.M. Sutherland اكتشف أنه يسكن قبالة منزل تامبو في هاي غيت عام 1962، وطلب من الخارجية البريطانية معلومات عنه، ولم يكن لديهم سوى قليل من المعلومات لكنهم كانوا على استعداد للقائه «إذا كان لديه أي شيء مهم يقوله عن جنوب إفريقية». [51] وجد تامبو شكوكاً عميقة في لندن حول ارتباطات المؤتمر الوطني الإفريقي بالشيوعيين، كما وجد كثيراً من الدعم للمؤتمر الإفريقي العام المعادي للشيوعية. وفي أوروبة الغربية لم يلق مساعدة سوى من حكومتي ألمانية واسكندنافية، وسيحفظ لهما مانديلا الامتنان دائماً. شعر تامبو أنه مضطر للبحث عن المساعدة في موسكو، حيث تلقى وعوداً بالتدريب العسكري والسلاح بلا مقابل. [52] مما أكد وجهة نظر بريتورية بأن المؤتمر الوطني الإفريقي يميل نحو الجانب الشيوعي في الحرب الباردة.

وعندما تولى حزب العمل السلطة في بريطانية في تشرين الأول (أكتوبر) 1964، لم تصل الأخبار كاملة إلى سجناء جزيرة روبين إلا بعد مرور بعض الوقت. فالرسالة التي ذكر فيها شقيق كاثرادا الخبر، عرضا وبشكل مختصر، تأخرت في البريد ولم تصل قبل ثمانية عشر شهراً. [53] كان مانديلا وتامبو قد علقا آمالاً كبيرة على أن تحمل بريطانية موضوع العقوبات محمل الجد، وأصدر رئيس الوزراء الجديد هارولدويلسون أوامره فجأة «بوقف جميع شحنات الأسلحة إلى جنوب إفريقية حالاً». [54] لكن وثائق أفرج عنها مؤخراً أظهرت أية كفاءة أبدتها الحكومة البريطانية في عرقلة المزيد من العقوبات. فقد كان جورج براون George Brown، وزير الاقتصاد، قلقاً حيال التبعات المالية لحظر الأسلحة، ووزير المستعمرات أنطوني غرينوود Anthony Greenwood كان يخشى أن تنتقم بريتورية بالتحرك ضد المحميات البريطانية الثلاث على

حدودها. وقال غرينوود: «إذا قرر الدكتور فيروورد أن ينفس عن غضبه عن طريق الأراضي فإنه يستطيع أن يلحق بها أضراراً جسيمة».[55] وقد كان اللورد كارادون Lord Caradon ممثل بريطانية في مجموعة خبراء الأمم المتحدة حول جنوب إفريقية، يطالب بإلحاح بفرض العقوبات، إلا أن وزير الخارجية باتريك غوردون ووكر Patrick Gordon Walker طلب من رئيس الوزراء أن يعنّفه، فقال كارادون عندها إن الحكومة تعارض العقوبات الاقتصادية. مع أنه قال لوزارة الخارجية: «يجب ألا نرفع تهديد العقوبات عن الجنوب إفريقيين تحت أي ظرف». وأضاف: «إن سيف ديموكليس، مع أنه مثبت تماماً في السقف لكن وجوده ضروري».[56] ربما ساعد السيف الوهمي في استرضاء اليسار العمالي، إلا أنه لم يضلل بريتورية.

أما واشنطن إبان حكم الرئيس ليندون جونسون فقد بدا أنها تضغط باتجاه مزيد من العقوبات الجدية، مما أثار قلق وزارة الخارجية في لندن. إذ طرحت وزارة الخارجية الأمريكية ورقة عمل جاء فيها إن بعض العقوبات المختارة «ستكون طريقة فعالة وغير مؤلمة نسبياً لإخضاع جنوب إفريقية للضغط». وسارع الدبلوماسيون البريطانيون إلى الرد بأن العقوبات لن يكون لها أي أثر، في الوقت الذي أخفوا مخاوفهم المادية الحقيقية. وجاء في مسودة سرية إن: «بريطانية ستعاني أكثر بكثير، في ضوء مدى تجارة الاستيراد والتصدير مع جنوب إفريقية».[57]

في كل الأحوال سرعان ما انشغل هارولد ويلسون بأزمة أكثر إلحاحاً في جنوب إفريقية. ففي تشرين الثاني (نوفمبر) 1965 تحدت حكومة أيان سميث البيضاء في مستعمرة روديسية المتاخمة جميع الضغوط البريطانية لإقامة انتخابات ديمقراطية، وأعلنت الاستقلال من جانب واحد. استبعد ويلسون استخدام القوة، ففرض العقوبات، ومن ضمنها حظر النفط الذي يفرض بحصار بحري، لكنه أشاح بوجهه عن تدفق النفط إلى روديسية عبر جنوب إفريقية من

شركات بريطانية.[58] لم يتأثر تامبو، وقال عام 1969: «إن حكومة العمال البريطانية قد شجعت الأقلية البيضاء وسمحت لها بالاستيلاء على السلطة السياسية واحتكارها».[59]

لم يكن لدى حكومة ويلسون وقت كاف للتفكير في جنوب إفريقية، ولا سيما في سجناء جزيرة روبين. وعام 1967 لم يبق لدى بريتورية من الأسباب ما يدفعها إلى تصديق «سيف ديموكليس» خاصة عندما أعاد وزير الدفاع البريطاني فتح مسألة تزويد جنوب إفريقية ببعض الأسلحة. وقد ألغى ويلسون تلك الخطوة، ولكن ليس قبل أن يثير مزيداً من الشكوك حول موقف الوزارة الأخلاقي من الأبارثيد.[60] وبعد ثلاث سنوات، أذعن هيلي للمؤتمر الوطني الإفريقي بعد زيارته مانديلا في جزيرة روبين «الآن أعتقد أنني كنت مخطئاً حتى في دعم النظر في الموضوع». لكنه لم يكن يشغل منصبه إذ ذاك.

كان الأمريكيون أقل حضوراً. فقد كانوا منشغلين بفيتنام وغير مهتمين بروديسية، فدخلوا مرحلة / إهمال لطيف/ لجنوب إفريقية، على حد تعبير السيناتور تشارلز بيرسي Charles Percy.[61] وعشية حملة الحقوق المدنية أعرب الأمريكيون السود عن امتعاض وشنوا حملة خطابية ضد الأبارثيد، واتخذ بعض السياسيين البيض، ومن ضمنهم الأخوة كينيدي، موقفاً راديكالياً. وقام بوبي كينيدي بزيارة لجنوب إفريقية عام 1966 لقيت تغطية واسعة، قال بعدها: «لو أنني كنت أعيش في هذا البلد لجمعت كل ما لدي، وخرجت منه الآن».[62]

لكن الكلام شيء والفعل شيء آخر! إذ قال روجر موريس: Roger Morris من مكتب الأمن القومي الأمريكي: «خلال عقد الستين كان الوجه المعلن لإدارتي كينيدي وجونسون هو التخلي عن الأنظمة العرقية شيئاً فشيئاً في الأمم المتحدة وأماكن أخرى، وفي الوقت نفسه التعامل التجاري السري معهم».[63]

بحلول عقد الستين كان التدخل الغربي يبدو أكثر بعداً، وكانت عودة حكومة المحافظين إلى بريطانية عام 1970 نكسة جديدة. وقد صدم رئيس الوزراء الجديد تيد هيث Ted Heath بوحشية الأبارثيد عندما زار جنوب إفريقية لأول مرة عام 1954، لكنه كان يعتقد أن وجود القاعدة البحرية البريطانية في سيمونزتاون قرب كيب تاون أمر بالغ الأهمية بالنسبة لدفاعات الغرب ضد القوى الشيوعية. وكان قد طلب معاودة بيع الأسلحة.[64] بدا أولاً أن بريتورية لا تريد أكثر من بضع طائرات هليوكوبتر، بما أن جنوب إفريقية اصبح لديها صناعة أسلحة متنامية، فقد ازدادت أهتماماً بمقاتلات ميراج من فرنسة. إلا أنها كانت تحتاج أيضاً تكنولوجيا اتصالات متقدمة من بريطانية وأمريكة، أبدت شركات كثيرة سرورها لتزويدها بها. رأى المؤتمر الوطني الإفريقي أن الغرب يدعم اقتصاد الأبارثيد وصناعته العسكرية المعقدة. وأعطت عودة حكومة هارولد ويلسون العمالية عام 1974 أملاً جديداً لنزلاء جزيرة روبين. إلا أن ويلسون غاص مرة أخرى في الورطة الروديسية، ولم يبق لديه مزيد من الوقت من أجل جنوب إفريقية. فقال تامبو في الذكرى الستين لتأسيس المؤتمر الوطني الإفريقي عام 1972: «لولا دعم الدول الإمبريالية لكانت جنوب إفريقية قد أفلست منذ زمن بعيد، حتى عندما كنا نقاتل بأيدينا العزلاء».[65]

اتخذ الأمريكيون موقفاً أكثر استرضاء تجاه حكومات الأبارثيد بعد وصول إدارة ريتشارد نيكسون الجمهوري إلى سدة الحكم عام 1969، وكان مستشاره هنري كيسنجر قد مل من جنوب إفريقية، التي لم يذكرها في المجلدين الأولين من مذكراته، وكان، غريزياً، يفضل الوضع الراهن، وقد أمر بإعداد مراجعة للسياسة السرية (NSSM39) قال تامبو بعد إعلانها في نيسان (أبريل) 1972 إنها وثيقة مشينة؛ تحابي الأنظمة البيضاء في جنوب إفريقية، واستخلص أن «جنوب إفريقية ستكون قادرة في المستقبل المنظور، على حفظ الاستقرار الداخلي ومواجهة العصيان بكفاءة».

واختار كيسينجر واحداً من خمسة خيارات طرحت لتخفيف الضغوط الأمريكية ورفع حظر الأسلحة، إضافة إلى زيادة الإعانة لإفريقية السوداء. وجاء في الوثيقة أن الأمريكيين ربما يشجعون الإصلاح بفتح الأبواب على بريتورية، لكن أول النتائج كان طمأنة فورستر.[66] بعد التحول السياسي بمدة قصيرة خرج السفير الأمريكي يصطاد طائر التدرج مع قادة حكوميين في جزيرة روبين.[67] أطلق الأمريكيون على سياسة كيسنجر اسم «خيار طفل القطران» لأن واشنطن كانت ملتصقة بأصدقائها الجدد في بريتورية. واستمرت في ظل رئاسة جيرالد فورد.[68]

نادراً ما كانت وزارة الخارجية الأمريكية إذ ذاك تذكر مانديلا ورفاقه السجناء. وعندما عقد السيناتور الليبرالي ديك كلارك Dick Clark جلسات استماع عن جنوب إفريقية لمدة ثمانية أيام عام 1976، ملأت كتاباً من 792 صفحة، لم يذكر اسم مانديلا ولا مرة واحدة. وترك لأندرو يونغ عضو الكونغرس الأسود من ولاية أطلانطا ليبرز أنه «إذا كان هناك من حل عقلاني لمشاكل جنوب إفريقية فإنها ستعالج مع أولئك الرجال المسجونين أو المعتقلين ويجري تدميرهم الآن».[69] مازال نزلاء جزيرة روبين يعلقون مزيداً من الآمال على الشرق، واستمر الاتحاد السوفيتي وأوربة الشرقية بالترحاب بقادة المؤتمر الوطني الإفريقي، وتزويدهم بالمال والسلاح من أجل كفاحهم المسلح، وتعليم مبعدي المؤتمر الوطني الإفريقي في جامعاتهم. كان دعم الألمان الشرقيين متميزاً، وقاموا بطباعة مجلة المؤتمر الوطني الإفريقي سيشابا Sechaba التي كانت تنضح بالدعاية السوفيتية والتهجم على القوى الإمبريالية. أبعد تامبو نفسه عن أي نفوذ شيوعي، وأدهشه أن موسكو لم تحاول التأثير في سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي! وكان مقتنعاً، شخصياً، بأن الإفريقيين لن يرتموا في أحضان الشيوعية عندما يحين الوقت.[70] إلا أن سيسولو وسواه من نزلاء جزيرة روبين بقوا مستبشرين بأن خلاصهم سيأتي من العالم الاشتراكي. وكان مانديلا أكثر

(براغماتية)، إذ كان يعتقد بأن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يعمل مع أي صديق يمكنه أن يجده في وقت الحاجة. وكثيراً من كان يتذكر أن تشرشل عمل مع ستالين في الحرب العالمية الثانية. وبقي شغله الشاغل هو توحيد المعارضة للأبارتيد. وعزلته في السجن أعطته منظاراً واضح الرؤية للتحدي، كما شرح أوائل عام 1976، واستطاع من موقعه البعيد في السجن أن يرى التحديات بوضوح، كما قال في أوائل عام 1976:

> إن ظروفي الحالية تعطيني مزايا نادراً ما يحظى بها رفاقي خارج السجن. فهنا الماضي يندفع إلى الذاكرة، وهناك متسع من الوقت للتفكير. يستطيع الفرد أن يرجع بذاكرته إلى الوراء لينظر إلى الحركة بمجملها من بعيد، والدروس القاسية التي يتعلمها في السجن تجبره على المثابرة ليكسب تعاون جميع زملائه السجناء، ليتعلم كيف يرى المشاكل من زاوية الآخرين أيضاً. وأن يتعامل بسهولة مع مدارس الفكر الأخرى في الحركة. لقد جمعتنا مصائرنا ولا خيار لنا سوى أن ننسى خلافاتنا في مواجهة الأزمة، ونتحدث عن مشاربنا وآمالنا وتطلعاتنا، وعن منظماتنا والطيف الواسع من الخبرات في مجال النضال.[71]

19

الوعي الأسود

1976 ـ 1978

كانت ويني، بلغتها المشفرة في زيارة للجزيرة، هي أول من أخبر مانديلا بالجيل الجديد من الثوار السود ذوي الميول القتالية الذين يشقون طريقهم ويبرزون في جنوب إفريقية، ونصحته بأن يحملهم محمل الجد، لأنهم يغيرون طبيعة النضال.[1] وكانت في موقع العارف، لأنها كانت مشدودة إلى أفكارهم وإلى قادتهم الشباب المكتملي الرجولة.

بدأت حركة / الوعي الأسود/ عام 1969 عندما انقلب ستيف بيكو، وهو طالب طب شجاع في جامعة ناتال، ضد القيادة البيضاء للاتحاد الوطني لطلبة جنوب إفريقية، وأسس منظمة الطلبة الجنوب إفريقيين السوداء (SASO) التي سرعان ما أصبحت دار الحضانة التي يترعرع فيها حزب جديد هو ميثاق الشعب الأسود (BPC). شعر بيكو أنه مسحوق تحت ثقل الرعاية الأبوية لليبراليين البيض، وأقسم أن الرجل الأسود يجب أن يتخلص من إحساسه بالنقص وأن يرى نفسه «حيث يضع نفسه، لا حيث يضعه الآخرون». بدا في كلامه ما يذكر بثورة رابطة الشباب منذ خمس وعشرين سنة، أو المؤتمر الإفريقي العام قبل ذلك بعشر سنوات. لكن بيكو اكتسب عمقاً ثقافياً وثقة أكثر من روبرت سوبوكوي، إذ شجعه استقلال إفريقية السوداء، وانتصارات الحقوق المدنية في أمريكة والكتابات المتزايدة عن القوة السوداء، خاصة كتاب فرانتز فانون Frantz Fanon / البؤساء في الأرض/ . وقد عبر عن الثقة بالافتخار بكلمة / أسود/ ،

obeikandi.com

الأمر الذي سيتبناه الهنود والملونون المتعاطفون، وبعد ذلك الصحافة: حيث استخدمت الراند ديلي ميل الكلمة لأول مرة في تموز (يوليو) 1972.[2] كان الجو العام متأثراً لأقصى درجة بالعالم الخارجي وخاصة أمريكة. وقد كتب باتريك ليكوتا أحد أتباع بيكو الذي أصبح يعرف باسم /الإرهاب/ في ملعب كرة القدم: «ببالغ المشقة اكتشفنا أصوات الاحتجاج القديمة. وجدنا فرانتز فانون ودافيد ديون وايميه سيسير من حركة نيغريتيود Negritude بعضنا نبش دبليو. أي. بي. دوبوا وجوليوس نيريري وكوامي نيكروما. أما الأصوات الشابة مثل ستوكلي كارميشيل وإيلدريدج كليفر. وجورج جاكسون فقد وصلتنا».[3]

كان بيكو مصمماً على إيقاظ شعبه من «السكوت الكبير» الذي ميز عقد الستين، وأن يعطيهم احتراماً ذاتياً في قلب الاضطهاد. وقد كتب عام 1970: «لقد أصبح الرجل الأسود، جملة وتفصيلاً، مجرد صدفة، ظل رجل، مهزوماً تماماً، يغرق في بؤسه، عبداً وثوراً يحمل نير الاضطهاد بوداعة الحمل». وسرعان ما حرض جيلاً جديداً مناهضاً من أطفال المدارس السود الذين رأوا آباءهم بهذه الصورة المذلة، وصمموا على النجاة منها. وبحلول عام 1973 كان الوعي الأسود يكتسح مجمعات السود. وحظرت الحكومة ثمانية من قادتها، من ضمنهم بيكو وملازمه بارني بيتيانا Barney Pityana. لكن استقلال موزامبيق وأنغولا حمل موجة جديدة من الأمل. وعام 1974 نظم حزب «ميثاق الشعب الأسود BPC» مسيرات دعم للحكومة السوداء الجديدة في موزامبيق. ردت الحكومة باتهام تسعة من قادته، على رأسهم ساث كوبر Saths Cooper (الذي سيرسل فيما بعد إلى جزيرة روبين)، بإثارة الفوضى بموجب قانون الإرهاب.[4] كان حزب المؤتمر الوطني الإفريقي الأثري الذي يعمل في الخفاء داخل جنوب إفريقية قد ضاق ذرعاً بحركة بيكو، وما تردده من أصداء المؤتمر الإفريقي العام، في الوقت الذي كان كثير من أتباع بيكو ينظرون بازدراء إلى

جمود ومحافظة المؤتمر الوطني الإفريقي، لكن ويني مانديلا الممنوعة من ممارسة النشاط السياسي، أثار حماستها غضب وثقة وتأكيد الثوار الشباب، وتذكر عن ذلك: «كان هناك فراغ كامل، ولو لم يأت بيكو إلى الحياة لخفت من التبعات التاريخية. كان التعامل مع ذلك الرجل تجربة منعشة، وكنت إذ ذاك الصوت الوحيد الذي وجد شجاعة كافية لأن يفعل». وشاركت في الافتخار الجديد بالسواد: «كنت تشعر أن دمك يغلي إذ تقف وتشعر بالفخر لأنك أسود.. وذلك هو الشعور الذي نقله ستيف إلي».[5]

بارني بيتيانا اصطحب بيكو لمقابلة ويني، التي استجابت بحرارة، يذكر بيتيانا أن: «ويني لم تشك أو تتردد، وفتحت قلبها لنا. وكان ستيف دائماً يذهب للقياها عندما كان في جوهانسبورغ».[6]

وبعد أن انتهى الحظر المفروض على ويني عام 1975 أدلت بمقابلات وألقت خطابات تحذر من موجة غضب بين أوساط السود الشباب.[7] ولكن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يكن له علاقة كبيرة بتنامي تلك الموجة، وعندما طلب الناشطان الشابان توكيوسيكسويل Tokyo Sexwale ونالدي تزيكي Naledi Tsiki من ويني أن تصلهما بالمؤتمر الوطني الإفريقي قالت إن صلاتها به قد / انقطعت/ .[8]

قابل مانديلا ورفاقه خبر / الوعي الأسود/ بالشك، لأن الأفارقة رحبوا في الأصل بالحركة مؤشراً على أن السود «يتطورون وفق خطوطهم الخاصة»، في الاستمرار مع الأبارثيد، ورأى مقالات متعاطفة كتبها بروفيسور أفريقاني في مجلة المرأة الافريقانية ويسجينوت Huisgenoot.[9] إلا أن إصرار الحكومة على تعليم اللغة الأفرقانية كان القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لأطفال المدارس السود. وقد فوجئ الجميع تقريباً بعنف الثورة التي اندلعت في حزيران (يونيو) .1976 عندما أعلن الطلاب في سويتو الإضراب ضد تعليم الأفريقانية، وسار عشرة آلاف من الشباب السود تعبيراً عن دعمهم، أطلقت

الشرطة النار عليهم، فقتل صبي في الثالثة عشرة هو هيكتور بيترسن Hector Pieterson وانطلق الأطفال متجاوزين جميع الحدود، فقتلوا اثنين من البيض. وأصبحت سويتو ساحة معركة دامية، اجتاحتها عربات مدرعة وطائرات عمودية. وفي الأيام التالية امتدت الإضرابات وأعمال الشغب إلى الكيب، وأواخر العام كان عدد القتلى بين خمسمئة وألف، وأنحى تقرير الحكومة فيما بعد باللائمة على المؤتمر الوطني الإفريقي والمؤتمر الإفريقي العام والشيوعيين، لكن المحرض الحقيقي كان بيكو وقادة طلاب المدارس أنفسهم، الذين لم يكونوا يعرفون شيئاً يذكر عن المؤتمر الوطني الإفريقي.[10] قالت ويني: «لم نكن نستحق كل ذلك الشرف، ولكننا لا نبالي أبداً».[11] وشعرت بأنها شخصياً معنية، إذ كانت موجودة عندما قتل هيكتور: «كنت جزءاً من تلك الثورة.. وبفضل ما قام به أولئك الأطفال وصلنا إلى ما نحن عليه الآن».[12]

سرت ثورة سويتو حول العالم (قال مانديلا فيما بعد) إنها أطلقت صرخة أشد من مجزرة شاربفيل.[13] لكن في جزيرة روبين كان أول مؤشر بوجود أزمة هو أن الأنباء نضب معينها تماماً.[14] وعندما بدأت القصص تتسرب بالتدريج، كتب مانديلا بياناً سرب إلى الخارج بواسطة ماك ماهاراج عندما غادر الجزيرة بعد ذلك بمدة قصيرة. أظهر البيان أول دعم نضالي يعرب عنه مانديلا للثورة، مركزاً على الحاجة إلى الوحدة والعمل في آن. بدأ البيان بعبارة: «لقد لعبت البندقية دوراً مهماً في تاريخنا..». واختتم بهذه الكلمات:

> «نحن المحتجزون داخل الجدران الرمادية لسجون نظام بريتورية نمد أيدينا إلى شعبنا. ومعكم نحصي عدد أولئك الذين ذهبوا ضحية البندقية وحبل المشنقة.. نواجه المستقبل بثقة. لأن البنادق التي تخدم الأبارثيد لا تستطيع أن تجعله لا يقهر. وأولئك الذين يعيشون بالبندقية سيموتون بالبندقية. اتحدوا! عبئوا طاقاتكم ! تابعوا القتال! فبين سندان العمل الجماعي الموحد ومطرقة الكفاح المسلح سنسحق الأبارثيد وحكم الأقلية العنصرية البيضاء!».[15]

وصلت أول أنباء مفصلة إلى السجناء في آب (أغسطس) 1976 من أريك مولوبي Eric Molobi، أحد ثوار الوعي الأسود الشباب الذي وصل إلى الجزيرة بعد سنتين في السجن، عذب فيهما حتى أوشك على الموت. كان حاداً في نقده للمؤتمر الوطني الإفريقي، وعندما أخبرهم عن الثورة أول مرة ما كانوا ليصدقوا.[16] لكن سرعان ما وصل فيض من الثوار الشباب إلى الجزيرة، يحملون تحديهم وعدوانيتهم. بعضهم هرب من جنوب إفريقية لينضم إلى معسكرات تدريب المؤتمر الوطني الإفريقي ثم عاد مقاتلاً في سهم الأمة (إم. كي) وقبض عليه. قال تيرور ليكوتا Terror Lekota: «تدفقنا داخل المكان محملين في شاحنات من كل مكان، كما لو أننا سقاطة هائلة من طرح الريح».[17] كثير من الرفاق رأوا الجزيرة مكاناً عالي الشأن، وقد قال سيفيزو بوثيليزي Sifiso Buthelezi: «هناك كان يحتجز أبطالنا. لقد كانت جزيرة روبين بالنسبة لنا تعادل الحرية».[18] لكن كانت هناك بعض الخيبات بقادتهم. حيث قال ليكوتا:

> وجدنا السجناء السياسيين صامدين في قتالهم، بتصميم متحدٍ، لكن معنوياتهم كانت مهزوزة، ولم يكن بإمكانهم رؤية الآفاق. كانوا محرومين من الأخبار ويعتقدون أن كل شيء قد مات.. حتى أنهم لم يعلموا بإضرابات دوربان في عام 1973. ونحن أمددناهم بالأمل وبررنا تصميمهم، ولكن أيضاً متاعبهم؛ كثير منا كان يحمل كدمات عاطفية إثر التعذيب. فنحن لم نكن سياسيين مرفهين، وإنما مجرد مادة أولية. كثير من الرفاق كانوا يظنون جماعة ريفونية محافظين قدامى، وأن المؤتمر الإفريقي العام كان أكثر إغراء بالشعار الذي يطلقه: إفريقية للإفريقيين.[19]

أُعجب مانديلا بمدى ثورة سويتو، وبيقظة الاحتجاج بعد / عقد الستين الصامت/ وسرّه أن تعليم البانتو لم يجعل السود يستسلمون لفوقية البيض، وإنما حرض رداً حاداً و«ارتد السحر على الساحر».[20] كان مأخوذا بسوية الثوار الشباب، الذين كشفوا عن أوجه جديدة لجنوب إفريقية السوداء «تشعر

بأنك قد اغتنيت، وتوسعت آفاقك وتعمقت جذورك في بلادك. وأدرك أن المؤتمر الوطني الإفريقي يخضع لتحدي اللحاق بالركب».[21] كثير من الشباب عذبوا من قبل الشرطة، ويحملون آثار التعذيب، وقد تأثر مانديلا، الذي لم يعذب أبداً، بقوتهم ومنعتهم.

لكن مدى الهوة بين الأجيال صدمته هو والسجناء الأوائل. وقد كتب موسيبودي مانجينا، الذي وصل إلى الجزيرة قبل سويتو بثلاثة أعوام: «مع أن بعضنا كانوا شباباً إلا أننا وجدنا أنفسنا نظهر شيوخاً ومعتدلين».[22]

وحتى هاري غوالا اعتقد أن «تصرفات الشباب أحياناً تكون أقرب إلى الفوضى».[23] حتى أن بعضهم أنكروا آباءهم وعدُّوهم جبناء. وقد كانوا ميالين إلى التحدي والمجابهة ميلاً لا هوادة فيه، وبعضهم /عامل الثقل/ ، لم يكونوا متطرفين سياسيين أبداً، وإنما من صغار قطاع الطرق أو التسوتسي.[24] وقد قال ماك كزيغو Mike Xego الناشط في الوعي الأسود، الذي انضم فيما بعد إلى المؤتمر الوطني الإفريقي: «إذا لمسنا السجانون فإننا نرد بلكمة سريعة».[25] وقال أريك مولوبي: «لقد عبثنا بالنظام كله، ورفضنا الدراسة. كنا غاضبين جداً، واستغرق تغيرنا قرابة سنتين».[26] تنبأ مانديلا ببروز جيل أكثر راديكالية. وقد حذر أثناء محاكمة ريفونية من أن الحكومة ستواجه عصيانات أشد شراسة، تجعلها تترحم على أيام قادة المؤتمر الوطني الإفريقي القدامى. لكنه صدم إذ وجد أن هؤلاء الثوار كانوا يبدون من الشك في المؤتمر الوطني الإفريقي ما يبدونه تجاه الحكومة. وقد قال توكيو سيكسويل وهو من مقاتلي المؤتمر الوطني الإفريقي وقد أتى إلى الجزيرة عام 1978: «قبل أن نذهب إلى الجزيرة قيل لنا إن مانديلا خائن وإنه يؤمن بسيطرة الكزوسا».[27]

قال مانديلا: «إن تعتبر معتدلاً ولد شعوراً فيه جدة لكنه لم يكن شعوراً مريحاً».[28] وأدرك أن عليه أن يحاول التفاهم مع الثوار الشباب، وطلب من بعضهم، ومنهم ساث كوبر من حزب ميثاق الشعب الأسود، وستريني مودلي

من منظمة طلبة جنوب إفريقية إعطاء محاضرات للسجناء الأكبر سناً. وأصبح أكثر إدراكاً لشعبية /الوعي الأسود/ ، مما ذكره بتجربته الخاصة في رابطة الشباب، واعتقد بأن الشباب سرعان ما يهتمون بالسياسات الأوسع للمؤتمر الوطني الإفريقي. وحاول تصور تأثيراتهم، فكتب للزعيم بوثيليزي Buthelezi: «إن الأطفال الذين تركتهم يدرجون بخطى متعثرة قد أصبحوا كباراً ذوي عقول راجحة.. يعيشون وسط تغيرات سريعة وتطور في العلم والتكنولوجيا، ربما ساعد التعليم وتأثير الصحافة في ردم الهوة بين الأجيال. لذلك، فإن علينا أن نسمح بما قد يبدو شطط الشباب». لقد قال وورد ثورث بإيجاز بارع: «الطفل هو والد الرجل».[29]

لكن مانديلا واجه أكبر اختبار لمهاراته السياسية في محاولة الارتباط بهؤلاء الشبان الشجعان الغاضبين المتعجلين الذين لم يجر معهم أي اتصال سابق، لكنه يحتاج لإدخالهم في الحركة الأوسع. وكانت له بعض الارتباطات المهمة مع قادتهم، وأجاب بحرارة عن رسالة ودية من هلاكو رشيدي Hlaku Rachidi، رئيس حزب ميثاق الشعب الأسود، الذي كان في السجن في مادر فونتين.[30] لكن وجد أن كثيراً من الثوار الشباب طائفيين وغير ناضجين في انشغالهم بالسود واستبعادهم للبيض.[31]

وحرص على ألا يستجيب للأسود الصغار بالعدوان مما يحرضهم على الرد بالقتال. ولم يقم بالدعاية للمؤتمر الوطني الإفريقي أو يحاول تجنيد أتباع من المنظمة الجديدة. وإنما لجأ إلى طرح أكثر ليناً يعتمد الإقناع التدريجي. وكان دائماً يذكر حكاية تعلمها إذ كان صغيراً، عن الريح والشمس إذ تحديا بعضهما في من يستطيع أن يجعل رجلاً يخلع ثيابه. في البداية عصفت الريح بين جنباته فتمسك بثيابه وشدها إليه بقوة. ثم سلطت الشمس أشعتها نحوه إلى أن خلع كل ثيابه.[32]

وانطلق مانديلا ورفاقه في محاولة تحويل الرفاق الشباب نحو سياسات

أكثر اعتدالاً. وقد قال مايك كزيغو: «لم يكن النظام وإنما المؤتمر الوطني الإفريقي هو الذي كسرنا. واحداً إثر واحد. لقد حاول التنظيم السري للمؤتمر الوطني الإفريقي في جزيرة روبين إقناعنا ـ كأفراد ـ فكانوا يحادثوننا ويسربون ملاحظات إلينا».[33] أصبح معظم الرفاق الشباب يعجبون بمجرد عناد المحاربين القدماء. وقد قال دان مونتسيسي الذي أتى إلى الجزيرة عام 1979: «كان يذهلنا أنهم على رغم كل هذه السنين التي قضوها في الجزيرة استطاعوا الاحتفاظ بشجاعتهم، وصفاء ذهنهم وتصميمهم على متابعة القتال. لقد نمت بيننا روح رفاقية عميقة من خلال مناقشات وفهم المشاكل التي تواجهنا في جنوب إفريقية. كما كنا نشعر تجاههم باحترام كبير فقد كانوا مثل آباء لنا».[34]

وقد قال سيث مازيبوكو: «كم تغيرت! لمجرد أني اجتمعت بنلسون مانديلا، وتعلمت منه ومن الآخرين. لقد نشأت على فكرة أن مانديلا حيوان. كان آباؤنا يقولون: «لا تدخلوا في السياسة لأنكم ستصبحون إرهابيين وتودعون في السجن مثل مانديلا..». ولما سمعت صوته القوي العميق يقول: «أيكم سيث وموروفي ودان؟». رفعت رأسي فرأيت مانديلا أمامي. في تلك اللحظة بدأت أناقش بعض معتقدات الوعي الأسود. فها هو قائدنا ينادي بالوحدة واللاعنصرية».[35]

كان الموقف من السجانين موضوعاً أساسياً فقد كان كثير من الثوار الشباب مصممين على تحديهم انطلاقاً من مبدأ استفزاز الحراس ليطلقوا الكلاب على السجناء. وقد أفاد مفتشو الصليب الأحمر الذين قاموا بزيارة في آذار (مارس) 1977 أن النزلاء الجدد: «حملوا إلى السجن توكيداً جديداً على كرامة السجناء الإنسانية. وكثيراً ما كانوا يدخلون في نزاع مع سلطات السجن ليس لمجرد أنهم يريدون إثارة المشاكل مهما كلف ذلك، وإنما لأنهم لم يكونوا مستعدين لتحمل معاملة عنصرية مهينة قالوا إنهم يلقونها على أيدي سجانيهم».[36]

كان بعض السجناء يعدون مانديلا خائناً لأنه توصل مع السجانين إلى تفاهمات، وساعد في حفظ النظام. إلا أنهم بدؤوا بالتدريج ينصتون إلى الكبار. كان إيريك مولوبي يستشيط غضباً من أحد السجانين الذي كان دائماً يشتمه ويضحك منه عندما يرد الشتيمة، إلى أن سأله سيسولو: «لماذا تعتقد أنه يضحك منك؟ السجانون هم حثالة الأفارقة. وهو يحب أن يراك تنزل إلى مستواهم، لماذا لا تحاول ألا ترد الشتيمة؟» في المرة التالية؛ ضبط مولوبي نفسه واكتفى بالنظر إلى السجان، الذي سرعان ما فقد اهتمامه به. فقال مولوبي: «ولكني ما زلت أشعر بعدم الرضى، لأن الوعي الأسود علمني أن أرد الصاع صاعين».

وبالتدريج أصبح الرفاق يرون في كثير من السجانين الوجه البشري الذي يلين بخاصة أمام المرح. ولدى اكتشافهم ذلك بدؤوا يستمتعون بالنكات القذرة، وكانوا يجعلون أفضل راو للنكات يسير بجوارهم ويجعلهم يضحكون. وقد قال مولوبي: «لقد تداعى الجدار فيما بيننا، وغير معظمهم آراءهم أخيراً، وقدموا لنا المساعدة. مما غير نظرتنا إلى النظام القاسي».[37]

وقال توكيو سيكسويل: «كنا جميعا مدانين، سجيناً وسجاناً.. مربوطون واحدنا إلى الآخر». ولاحظ أن بعض السجانين دُهش إذ وجد أن هناك سجيناً كاثوليكياً يريد أن يرى كاهنه، أو سجيناً يتحدث باللغة الأفريقانية «كانوا يظنون أننا نتحدث بالروسية أو الكوبية. وبالتالي وجدنا أرضية مشتركة ونمت بيننا صداقات قوية».[38]

سرعان ما تبين تيرور ليكوتا أن معظم السجانين غير متعلمين، وأن كثيراً منهم نشأوا في مياتم، وعانوا ظروفاً قاسية «وهم أيضاً أرادوا أن يفهموا لماذا نحن في السجن. وكم كان رائعاً ومنعشاً أن ترى أولئك الأشخاص العاديين يقدرون قضيتنا. تلك التجربة جعلتني أعتقد أن جنوب إفريقية أمامها مستقبل واعد».

لم يمض وقت طويل قبل أن يظهر تأثير المحاربين القدماء على الجدد بالتدريج. وقد قال تيرور ليكوتا: «بعد أربعة إلى ستة أشهر خبت جذوة الحماسة. فدخلوا في حوارات طويلة وبدأت آراؤهم تتغير».[39] فقبل أن يأتي ليكوتا إلى جزيرة روبين لم يكن يعرف عن المؤتمر الوطني الإفريقي إلا النزر اليسير: فقد قرأ خطاب مانديلا في ريفونية، ولكنه لم يسمع باسمه إلا همساً. وعندما وصل دس رسالة صغيرة إلى مانديلا يسأله فيها بعض الأسئلة السياسية. وكان مانديلا قد سمع عن شجاعته. فكتب له ثلاث صفحات عن تاريخ المؤتمر الوطني الإفريقي شرح فيها محاولاته الطويلة الأمد في الإقناع السلمي قبل أن يلتفت إلى أساليب غير قانونية. ويذكر ليكوتا: «قرأت الرسالة مراراً وتكراراً إلى أن حفظتها عن ظهر قلب. وعرفت أني سأنضم إلى المؤتمر الوطني الإفريقي». فتأثر مانديلا بهذا القائد الشاب الواضح القوي. ونصحه ألا يترك منظمته (SASO) منظمة طلاب جنوب إفريقية. لكن ليكوتا كان مصمماً على الانضمام إلى المؤتمر الوطني الإفريقي.[40] وقد قال دولا عمر Dollah Omar وهو محام من الكيب تحدث مع كثير من أعضاء / الوعي الأسود/ في الجزيرة: «كان تقيماً مؤلماً للذات. بدا بسيطاً ولكنه لم يكن كذلك».[41]

حرض تحول ليكوتا هجوماً تردد صداه في كامل الجزيرة. فقد حاول إقناع رفاقه في / الوعي الأسود/ في زنزانته بمزايا المؤتمر الوطني الإفريقي اللاعرقية. لكن بعضهم خطط لانتقام ضارٍ. فبينما كانوا يعزفون الموسيقى وعينهم على السجانين هجم واحد منهم على ليكوتا بمذراة (أداة زراعية) ضرب بها رأسه «شعرت أني قرميدة، وكدت أموت»، وما زال رأسه يحمل أثر تلك الضربة. اتهمت سلطات السجن المجرمين بالهجوم، ولكن مانديلا وسيسولو أرادا تفادي شقاق علني، وطلبا من ليكوتا ألا يقدم شكوى. فرفض ليكوتا أن يشهد، مما خفف التهمة وقربه من كل من مانديلا والشباب في الوقت نفسه. وسرعان ما لحق كثير من الرفاق الشباب الآخرين ليكوتا إلى المؤتمر الوطني

الإفريقي، ومن ضمنهم الشاب الذي هاجمه. بعد ذلك فوراً نقل ليكوتا إلى القسم ب، حيث كان أقرب إلى مانديلا و/الكبار/ . كان أحياناً يعيل صبره ببطئهم، ومباريات التنس التي يقضون فيها أوقات فراغهم، لكنه تأثر تأثراً عميقاً بأفكارهم.[42]

كانت الرياضة محفزاً أساسياً في عملية التوحيد. وقد سمح بها لأول مرة، عام 1967، وتطور نظام موسع من الفرق والمباريات الدورية وفق أسس دقيقة وسجلات بإشراف ستيف شويت Steve Tshwete رئيس رابطة الرياضيين الهواة في جزيرة روبين، إلى أن غادر عام 1979. ساعدت الرياضة في فرض النظام، كما تكشف في دقائق تفاصيل اللقاءات. وقد جاء في تقرير شباط (فبراير) 1972 : «تمت مناقشة التصرف الذي أظهره بعض الأعضاء، الذي لا يليق برياضي ولا بشخص مهذب. فقد غادر السيد ايه سوز الملعب في منتصف المباراة دون إعلام مدربه».[43] وتوسعت منظمة الرياضة لتشمل مجموعات موسيقا وغناء جماعي وأفلام وحفلات راقصة. وقد شكر رئيس نادي السجناء مايكل كاهلا Michael Kahla الأعضاء في تقريره السنوي لعام 1974 : «لقد علمتموني الإدارة والصبر والفهم تعليماً ما كان لأي مدرسة رسمية أن تعلمني إياه».[44] وقال راكس سيخوا Raks Seakhoa الذي أتى إلى الجزيرة صبياً قروياً فجاً: «تعلمت كيف أنظم الأشياء وأضعها موضع التنفيذ. فأسلوب حياتنا في جزيرة روبين يجعل الفرد متعدد البراعات».[45]

كان أبرز ما يراه مانديلا في الرياضة هو أنها طريقة للتغلب على التنافسات السياسية. فقد قسمت الفرق أصلاً إلى فريق المؤتمر الوطني الإفريقي، وفريق المؤتمر الإفريقي العام، ومنظمات أخرى. تشرف عليها لجنة مشتركة. إلا أن الجميع تداخلوا فيما بعد، واستطاعت الرياضة والثقافة تفادي الورطات السياسية: «كان عادياً أن تجد مجموعة من المؤتمر الوطني الإفريقي تجلس مع

المؤتمر الإفريقي العام، ويتحدثون بحماسة، ويتبادلون النكات حول كل شيء ما عدا السياسة».[46]

لكن كثيراً من سجناء /الوعي الأسود/ استمروا بالصدام مع المؤتمر الوطني الإفريقي، وكثيراً ما كانوا ينسجمون مع المؤتمر الإفريقي العام. ووصل التوتر إلى ذروته عندما تعرض عدة أعضاء من المؤتمر الوطني الإفريقي للضرب المبرح في الزنزانات العامة. وجهت سلطات السجن الاتهامات ثانية، هذه المرة ضد رجال المؤتمر الوطني الإفريقي، للتسبب في القتال. وكل المتهمون محامياً من البر الرئيسي وطلبوا من مانديلا إعطاءهم شهادة شخصية، لكنه كان محرجاً، يخشى شقاقاً جديداً مع /الوعي الأسود/. وقرر ألا يشهد، الأمر الذي أحبط بعض أنصار المؤتمر الوطني الإفريقي، لكنه ترك انطباعاً لدى /الوعي الأسود/ بتصميمه على تحقيق الوحدة.[47]

بقي مانديلا قلقاً حيال شقاقات سجناء «الوعي الأسود» الذين ما زالوا يهاجمون التعددية العرقية لدى المؤتمر الوطني الإفريقي وتأثيراته الشيوعية. وبعد عامين على ثورة سويتو كتب مقالة واضحة وجلية من خمس وخمسين صفحة، لم تنشر بعد، حلل فيها جذور وأهمية حركة «الوعي الأسود». وكان يدرك تماماً أنه قد قطع عن أحداث مهمة، إلا أنه كان يلحظ الجانب المسرحي وأهمية الصور والأداء، كما أوضح في مقطع حيوي في المقدمة، ألقى بعض الضوء على رأيه الخاص في السياسة:

> يجدر بالمرء دائماً ألا يصف الأحداث، وإنما أن يضع القارئ في جو تجري أحداثه الدرامية كلها داخل المسرح، كي يرى بأم عينه المسرح الحقيقي، وجميع الممثلين وأزياءهم. ويتابع حركاتهم، ويستمع إلى ما يقولونه ويعنونه، ويدرس تعابير الوجه ورد الفعل العفوي للجمهور إذ تتكشف أحداث الدراما. ومع أن هذه المزية لا تطالها يد السجين فإن المسألة مهمة خاصة بالنسبة لنا لأن نغامر وندخل إلى حيث يتردد الأشخاص الأكثر حذراً.

حاول مانديلا في مقالته أن يخرج بحكم متوازن بين الآراء المتطرفة للوعي الأسود، سواء كانت رجعية عنصرية أم كانت الحركة السوداء الثورية الحقيقة الوحيدة في جنوب إفريقية، إلا أنه قدم نقداً لاذعاً، إذ أرجع نمو الكبرياء الأسود إلى القرن الثامن عشر، عندما كان الإفريقيون يدافعون عن حريتهم أمام البيض. بالمقابل كان طلاب الوعي الأسود متأثرين تأثراً بالغاً بثورة الطلاب العالمية في عقد الستين وبالحملات الأمريكية ضد حرب فيتنام. وشعر بأن أفكارهم مستوردة من أمريكة / وابتلعت كاملة/ دون أي فهم للظروف المختلفة في جنوب إفريقية، حيث انضم البيض إلى حركة التحرير. بتبنيها لمفهوم الأمريكي للقوة السوداء «اتخذت حركة «الوعي الأسود» شخصية مذهب عنصري يربط، عشوائياً، فصيلاً من القوى التقدمية بالعدو».

وعيل صبره بغرور بعض سجناء «الوعي الأسود»، إذ ألقى واحد منهم «خطاباً إلى الأمة» أمام جمهور من عشرة أشخاص. وأزعجه فوضى نظرياتهم وإيمانهم بالوجودية «وهي فلسفة الخرافة والفردية والفوضى». وخشي أن يصبحوا متواطئين في المستقبل، تدعمهم الإمبرياليات الغربية لمعارضة الشيوعية والليبرالية في السياسات السوداء.

وأكد إيمانه «بالاشتراكية العلمية»، وأصر على أن الدول الاشتراكية هي الصديق الأفضل بالنسبة لأولئك الذين قاتلوا من أجل التحرر الوطني. ولكنه قال إن المؤتمر الوطني الإفريقي كان يستطيع الدفاع عن سياساته الخاصة وحريته في الحركة. وقد أشرف عليه، خلال تاريخه الطويل، قادة غير شيوعيين. وقال: «نستطيع أن نستأنس الراديكالي المفرط في اليسارية تماماً كما نستطيع أن نصد العناصر اليمينية التي تحذرنا عفوياً من الخطر الشيوعي والتي تتواطأ في الوقت نفسه مع أعدائنا». كان المؤتمر الوطني الإفريقي «شجرة سنديان السياسات الجنوب إفريقية».

إلا أن مانديلا قبل الأهمية التاريخية للوعي الأسود: «لقد وجد الطالب

الأسود موطئ قدمه، وخاطبت شعاراته عواطف الرجل الأسود، وامتدحت كبرياءه الوطني، وأوحت إليه بأن يؤكد هويته بالثقة». وبقي يأمل بأنه سيصبح جزءاً من حركة تحرير موحدة، وخلص إلى أن: «الواقعيين فيهم أدركوا أن العدو لن يهزم بالخطابات الملتهبة والحملات الجماعية والتلويح بالقبضات والحجارة وقنابل البترول، وأنه لا بد من تجنيد جيش حرية منضبط، تحت إمرة قيادة موحدة. ويستخدم أسلحة حديثة، ويدعمه شعب موحد، إذا أردنا أن نكلل بالغار». [48]

20

سحر السجن

1976 ـ 1980

في أواخر عقد السبعين بعد أن همد ثوار سويتو، أصبحت جزيرة روبين أكثر هدوءاً. والأوضاع فيها أقل قسوة مما كانت عليه لدى وصول سجناء ريفونية، واكتسب مانديلا سلطة هادئة على السجناء الأصغر سناً.

وقد أعطى السجين الصحفي ثامي خوانازي Mkhwanazi Thami، الذي أتى إلى الجزيرة عام 1980، وصفاً حياً لأسلوب مانديلا، فقال: إنه كان يمشي ببطء، يرتدي بنطال السجن وقميصاً أخضر، يتطلع أمامه كأنه غارق في تفكير عميق. أصبح له الآن إحديداب بسيط ومسحة من الشعر الرمادي لكن دون أي كرش. كان غالباً غارقاً في نقاش عميق يسدي النصيحة القانونية أو الشخصية للسجناء الآخرين، الذين ربما كانوا قد حصلوا على ذلك الموعد منذ فترة طويلة. كان يعالج مشاكلهم بمنتهى الجدية، وكان أحياناً يجهز ورقة مطولة كتبت بخط صغير جداً. وكان يتقن لهجة / الفلاي تال/ العامية الدارجة في النواحي بعبارات مثل / أوكاو بوي/ وقد قال مانديلا في خوانازي إنه: «جنتلمان بكل معنى الكلمة». لم يكن يبدو عليه الغضب أبداً، وكان يقنع السجناء الآخرين بالهدوء قبل أن ينفعلوا مع الأزمات. كان مسؤولو السجن ينادونه / مانديلا/ ، أو أحياناً / السيد مانديلا/ ، لكن زملاءه السجناء كانوا ينادونه باسمه القبلي / ماديبا/ .

كانت زنزانته الصغيرة مرتبة دائماً وقد كدست الوثائق القانونية فوق

الخزانة فيما وضعت صناديق الكتب تحت السرير، وتمثال صنعه أحد السجناء، وصورة ملونة من مجلة «ناشينال جيوغرافيك» لامرأة من إحدى القبائل الإفريقية كان يقول مازحاً إنها ستثير غيرة ويني، وعندما كان السجناء الآخرون يأتون إلى زنزانته كان يقدم لهم «حلويات» من دكان السجن، بينما يكتفي هو بمضغ الخبز اليابس، كان يعرف الكثير عن السجناء الآخرين وقصص عائلاتهم، كما كان على اطلاع جيد بأحداث العالم التي تلت النضال في كوبة ونيكاراغوا وأماكن أخرى.[1]

ذهل مايكل دينغاك باهتمام مانديلا الدائم بحقوق الإنسان: «يوماً بيوم، بالإضافة إلى برامج منظمته، كانت لديه عدة مواعيد مع أفراد، ودائماً بمبادرة منه، لمناقشة العلاقات بين المنظمات، وشكاوى السجناء و(الاستراتيجيات) المشتركة ضد سلطات السجن، ومواضيع عامة».[2]

مازال مانديلا محافظاً على مسحة من التمرد العنيد والاستقلالية. وبمجرد أن همدت ثورات سويتو وأصبح جو السجن هادئاً نسبياً، اقترح مواجهة جديدة استفزازية. إذ قال إن سجناء المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يتصرفوا بما يليق بقادة حركة؛ كأن يتحدوا أنظمة السجن، ويرفضوا الوقوف في حضرة السجانين أو أن يسمحوا لهم بمخاطبتهم بأسمائهم الأولى! فوجئ أصدقاؤه المقربون في القسم ب. ويذكر سيسولو أنه قال: «إن ذلك أمر غير مقبول وقد يؤدي إلى مجزرة»، كما عارضه كاثرادا أيضاً.[3] ولم يتفق مع مانديلا في الرأي سوى تويفو جاتويفو، قائد السوابو SWPO، وصديق مانديلا المخلص إيدي دانييلز، كما كان السجناء في الزنزانات العامة معارضين أيضاً حتى أن لالو تشيبا، الذي كان يحظى باحترام مانديلا، أعلن الإضراب عن الطعام احتجاجاً. وبعد أسبوع من النقاش الحاد، تخلى مانديلا عن الفكرة، مما أراح الجميع.[4]

في كل الأحوال كانت معاملة السجانين قد أصبحت أقل استفزازاً، فقد كانوا يبذلون جهوداً كبيرة بسبب عدد السجناء الجدد، وأصبحوا الآن أكثر

استرخاء. الغذاء أيضاً تحسن، وسمح للسجناء السياسيين بالعمل في المطابخ مما خفف تهريب الطعام. وسمح للإفريقيين الآن بالغذاء نفسه الذي يقدم للهنود والملونين، الذي تضمن ملعقة ونصف من السكر للإفطار. ما زالت تقارير الصليب الأحمر السرية تتضمن شكاوى كثيرة حول الغذاء، والرقابة، وعدم السماح بالاتصال بالمحامين، والسجانين المستفزين، والمعاملة التي لا تقيم وزناً لأحد، فقد كان السجناء الذين ليس لديهم أسنان غير قادرين على تناول وجبات الطعام، وأحد السجناء الذي رفض حلاقة ذقنه بسبب وجود حب الشباب قيد بسترة المجانين وحلقت ذقنه بالقوة.[5]

إلا أن الضغط الذي مارسه الصليب الأحمر وسواه بدأ يؤتي أكله. حيث أتيحت لكثير من السجناء فرصة الدراسة الجدية، وأصبحت جزيرة روبين تبدو أكثر شبهاً بجامعة صارمة ومتقشفة. وكان عشرات السجناء يتبعون دورات مع كلية المراسلة في جامعة جنوب إفريقية (UNISA)، وحصل بعضهم على عدة شهادات: فقد حاز كل من إيدي دانييلز وبيلي نير ومايكل دينغاك على شهادتين، فيما حاز كاثرادا على أربع شهادات. إلى جانب الدورات كان السجناء الكبار يقدمون حلقات بحث ومحاضرات، إضافة إلى التعليم الأساسي للمجندين الذي لديهم محو أمية فقط.

وقد اكتسب راكس سيخوا تعليمه كله في الجزيرة «كنا نكتب أبحاثاً عن أي شيء، ليس فقط في السياسة وإنما في الأدب والفن والرياضة والدين والفلسفة. وكانوا يستجيبون لأبحاثنا».[6] وقد قال مورفي مورروبي إن الجزيرة «مرجل يغلي بالأفكار».[7]

كانوا يخرجون مسرحياتهم الخاصة. فقد حصلوا على نسخة من مسرحية بيكيت «بانتظار غودو» ومثلوها، متسائلين عن مقولتها بالنسبة لحركة التحرير. حيث تساءل مكاليبي، «هل يحاول المتشرد أن يقول لنا إن بإمكاننا أن نستمر في الأمل ضد الأمل؟».[8] وكان بإمكانهم مشاهدة أفلام قديمة غير سياسية مثل:

«الوصايا العشر، وأنا والملك، وكليوباترا» وأعجب مانديلا بإليزابيث تايلور في دور كليوباترا، برغم أن بعض الرفاق نقد كونها لا تشبه ملكة إفريقية. كما أحب مانديلا فيلم ماري ملكة الاسكتلنديين، حيث قامت فانيسا ريد غريف بدور ماري، وأدت غليندا جاكسون دور الملكة اليزابيث ورأى في الفيلم مدلولاً سياسياً فقال لابنته زيندزي: «إن الفيلم يلحظ نهاية عهد الإقطاع وبداية المرحلة الحالية من الإمبريالية».[9] وهناك فيلم آخر أدى إلى مزيد من النقاش السياسي هو فيلم«المتوحش» (الذي منع لفترة طويلة جداً في بريطانية) الذي يقوم مارلون براندو فيه بدور قائد لعصابة دراجات نارية غير قانونية. كان قادة المؤتمر الوطني الإفريقي ملتزمين جانب النظام والقانون، كما رأى كثير من الرفاق الشباب أصحاب الدراجات أشراراً، مثل عصابة الدراجات النارية في جنوب إفريقية البيضاء الذين كانوا يستمتعون بضرب السود.[10] لكن أحد الميالين إلى القتال في «الوعي الأسود»، وهو ستريني مودلي، أصر على أن أصحاب الدراجات كانوا يرمزون إلى روح التحدي في ثورة سويتو. لم يقتنع مانديلا بوجهة نظر أصحاب الدراجات، لكنه دافع عن رأي مودلي.[11]

وسمح لهم بشراء آلات موسيقية والعزف عليها. وقد قال توكيو سيكسويل الذي كان يعزف الغيتار الكلاسيكي إن السلطات لم تكن لتدرك أنها «بالسماح لنا بهذه الآلات إنما كانت تعطينا مجالاً آخر لمتابعة نضالنا. حيث كنا نغني أغاني ضد الأبارثيد». ويذكر خوانازي أنه استمع إلى غوفان مبيكي يعزف أغاني شعبية أفريقانية على الغيتار، وريف موثوبينغ يدندن لحناً لموزارت، ومانديلا يغني لهاندل «ولد لنا صبي» وهو يلوح بيديه مثل قائد أوركسترا.[12]

منع مانديلا من متابعة الدراسة رسمياً لمدة أربع سنوات. حتى عام 1980. ولكنه قبل ذلك، كان يمضي وقتاً أطول في المناقشة، وكتابة الرسائل، وتقديم النصح القانوني لزملائه، والعناية بحديقته، وقبل هذا وذاك القراءة

بنهم. كانت معظم الكتب الموجودة في مكتبة السجن تافهة، وعندما تبرع الصليب الأحمر بمبالغ لشراء ثلاثين كتاباً عام 1976، كان خمسة وعشرون من الكتب المشتراة من قبل سلطات السجن بقلم دافن دو مورييه.[13] لكن مانديلا وجد روايات أكثر جدية وسعت معرفته السياسية مثل روايات نادين غورديمر، ورواية «عناقيد الغضب» لشتاينبك، والكتاب الروس الكبار، الذين قدموا نظائر لجنوب إفريقية. وقد أعجب بروايات دوستويفسكي، لكنها خلفت لديه إحساساً بالكآبة، وفضل عليه تولستوي فقرأ الحرب والسلام، خلال ثلاثة أيام، وأرسل نسخة منها إلى ابنته زيني بمناسبة عيد ميلادها الحادي والعشرين. وأدرك أن تولستوي أكثر اهتماماً بالأرستقراطيين منه بعامة الناس، لكنه استمتع بهزئه بهم (الذي يقطر جواهر وسماً)، وشعر بشبه بينه وبين الجنرال كوتوزوف، الذي سمح لنابليون باحتلال موسكو، وبهذا حقق هزيمته، والذي كان يفهم الروح الروسية.[14]

كما قرأ مانديلا لكتاب أفارقة، كي يفهم لغتهم وحضارتهم. فاستمتع بشعر أوبرمان opperman وروايات لانجينهوفن Langenhoven. لكن قراءاته كانت بشكل رئيسي بالإنكليزية. وقد قرأ لديكنز والشعراء الإنكليز، ومن ضمنهم ووردثورث Wordthsworth وتينيسون Tennyson، وشيللي Shelley، مستعيداً ما تعلمه لدى البعثة التبشيرية، وقد كان قادراً على الاستشهاد بأبيات من قصيدة /إحياء لذكرى/ أو /النرجس البري/. وأكثر ما كان يستمتع به هو المذكرات السياسية. وقد قال إريك مولوبي: «في الوقت الذي كان الرفاق يقرؤون /داس كابيتال/ (رأس المال) كان ماديبا يقرأ مذكرات الحرب لتشرشل، أو سيرة كينيدي أو فورستر». كان يحب مرح تشرشل وأسلوبه ـ الذي يشبه الموسيقى ـ. كما قرأ سيرة لينكولن وواشنطن وديزرائيلي وعدد من قادة حرب البوار ومنهم سموتز وكور دو لا ري Koos de la Rey، لكن الذي أثار إعجابه حقاً كان كريستيان دو ويت Christiaan de wet، الذي قاد ثورة

1914 .[15] وفي الوقت الذي كانت فيه الحكومة الأفريقانية تتهم مانديلا بأنه شيوعي، لم يكن يقرأ لماركس وإنما لأبطال رجالها.

أصبح أكثر ارتياحاً للإنكليزية منه للكزوسية، مما أشعره بالأسف.[16] وكان يحتفظ بكتاب أوكسفورد للشعر الإنكليزي Oxford Book of English Verse قرب سريره، لكنه تشكى من أنه لم يكن لديه شيء للشعراء الكزوسيين «الذين عبروا عن تطلعاتي وأحلامي، والذين يحركون كبريائي الوطني، ويعطونني إحساساً بالمصير والمنجزات».[17] لكنه أكد أن «الثقافة الغربية لم تستطع أن تكشط انتمائي الإفريقي».[18]

بحلول عام 1977 شعرت الحكومة بالثقة بأن الجو مريح في الجزيرة إلى حد يسمح بدعوة خمسة وعشرين صحفياً من جنوب إفريقية لزيارتها، أملاً في أن ذلك سيسكت الشائعات حول المعاملة القاسية التي يتعرض لها السجناء السياسيون.[19] واصطحبهم الميجور جنرال جاني روكس Jannie Roux، نائب مدير السجون وهو طبيب نفسي متخصص في علم الجريمة. كان روكس دليلاً سياحياً مقنعاً، لكن السجناء كرهوا أن يطاردوا خلسة كما لو أنهم كبار الحيوانات في حديقة حيوان سياسية، وأخيراً لحظوا مانديلا يضع نظارة سوداء على عينيه ويعتمر قبعة عريضة لينة، ويحمل رفشاً يزيل به الأعشاب من ممر مفروش بالحصباء، لكنه اختبأ وراء أجمة لدى مرورهم. قال الجنرال روكس: «لقد حددنا لكم مكانه، لكنه لا يريد أن يراكم، ولن نجره إلى لقائكم». لاحقت الكاميرات مانديلا حول الأجمة، حيث (قالت جريدة الستار) «نظر إلى الدخلاء بوجه غير باسم، والرفش في يده، ثم انحنى ليقتلع عشبة». نظر مراسل رويترز داخل زنزانة مانديلا «حيث وجد كومة صغيرة من ثياب السجن مطوية بعناية قرب صورة لثلاثة أطفال صغار. وكان بين الكتب الإنجيل الإنكليزي الجديد New English Bible وتاريخ اقتصاد أوروبة، وقصص الرعب والألغاز».[20] تأثر الصحفيون بسهولة. حتى إن محرر ناتال ميركوري رأى أن

جزيرة روبين تدار «بطريقة إنسانية متنورة تضاهي أفضل المؤسسات القصاصية في العالم».[21] ولكن لم يسمح لأحد بالحديث مع أي من السجناء، ولم يكشف أحد أنه مضطر لأن يقدم تقريره إلى المفوض.[22] كان المراسلون الأجانب الذين لم يدعوا أكثر تشككاً. واحتج ماك ماهاراج، وهو في لندن الآن، إلى المجلس الصحفي البريطاني من سوء التغطية، وطلب من الصحافة أن تنشر وصفاً حقيقياً، ولكنه لم ينجح.[23]

بالرغم من جميع التحسينات فقد بقيت الظروف مثيرة للاشمئزاز وقد تسببت حياة الرهبنة، المنقطعة عن الزوجات والصديقات والأطفال بكثير من الضغوط النفسية. وقد قال سيسولو: «أنت تفتقد الأطفال أكثر من أي شيء آخر. فمجرد سماع صوت طفل يشعرك بالسعادة».[24] نيفيل ألكساندر مثلاً سمع صوت طفل مرة واحدة فقط خلال عشر سنوات: «وقفنا بلا حراك كلنا يرتقب اللحظة التي تقع فيها أعيننا على الطفل. ولكن ذلك لم يكن مسموحاً به طبعاً».[25] وقال ليكوتا: «أحياناً يخيم قلق مفاجئ بأن يموت واحدنا في جزيرة روبين دون أن يتاح له لمس طفل».[26] وكان كثير من السجناء القدامى، ومنهم مانديلا، يخشون أن أطفالهم لن يسامحوهم أبداً لغيابهم. وقد كتب ليكوتا إلى ابنته: «إن جل ما يخشونه هو أن يكبر أطفالهم وينظروا بمرارة واحتقار إلى نضال عزيز جداً على أنفسهم».[27]

وعام 1981 أضرب السجناء عن الطعام بإيحاء من بوبي ساندز من منظمة الايرا مطالبين، بين أشياء أخرى. أن يسمح بزيارات أطفالهم الصغار. حذرهم مانديلا من أن الواجب يفرض عليهم البقاء والحفاظ على ملكاتهم الذهنية وحماية السجناء الأكثر ضعفاً.[28] إلا أنه انضم إلى الإضراب، الذي استمر ستة أيام. وأخيراً تم التفاوض على اتفاق تضمن السماح للأطفال اعتباراً من عمر ثلاث سنوات بزيارة الجزيرة.[29]

أفسحت حياة الرهبنة المجال أمام التعليم المكثف والنقاش. فقد طور

كثير من القادة السياسيين الآخرين، من جواهرلال نهرو في الهند إلى روبرت موغابي في روديسية وحتى ثوار جيش إيرلندة الجمهوري في إيرلندة الشمالية، طوروا نظرياتهم السياسية في السجن. لكن جزيرة روبين، التي تزخر بمئات السجناء السياسيين الذين يقضون أحكاماً طويلة الأمد، أتاحت فرصة أكبر لشحذ أفكارهم السياسية بالمناقشة (الديالكتيكية) والجدل (البوليمي)، وأن يضعوا النضال ضمن مضمون أوسع. كان أشبه بدورة مديدة في جامعة يسارية نائية. وقد أدت العزلة والورطة المشتركة التي يعاني منها السجناء، حيث لا مجال للاستهلاك أو الإثراء أو الدهماوية (استغلال الاستياء الاجتماعي لاكتساب نفوذ سياسي. المترجمة) أدت إلى تشجيع المثالية والمساواتية، وطورت رهافة حس إنسانية ومواقف اشتراكية. لكن الجزيرة كانت لها محدوديتها كمدرسة للحكم العملي. كما حفظت كثيراً من براءة وسذاجة من لا حول له ولا قوة. وليس لديه سوى خبرة بسيطة بتعقيدات الإدارة، وعوائق (بيروقراطيات) الدولة أو أخطار الفساد، لقد شجعت النظرية أكثر من التطبيق. في هذا الجو الجامعي المتسائل، سرعان ما تعرض مانديلا لتحدٍّ، فقد كان كثير من الرفاق الشباب ماركسيين أقحاح عندما وصلوا، يغذيهم وصول حكومات شيوعية إلى سدة الحكم في موزامبيق وأنغولا، وبما يروى عن أوروبة الشرقية وكوبة والاتحاد السوفيتي. وقد كان بعضهم بريئاً وساذجاً إلى حد يثير الدهشة حتى أن كاثرادا سئل مرة: «أصحيح أن الناس يصابون بنزلات البرد في روسية؟».[30] إلا أنهم رأوا إيمانهم بالماركسية الثورية مبرراً في جنوب إفريقية بالحكومة الفاشية وبالتواطؤ الجلي بين الرأسماليين والأبارثيد، والتراث الطويل من الأبطال الشيوعيين من جميع الأعراق، من موسى كوتاني إلى يوسف دادو إلى برام فيشر. في الجزيرة كان يحركهم الستاليني العريق هاري غوالا الذي انضم، بعد أن أنهى فترة عقوبته عام 1973، إلى شبكة سرية لتجنيد مقاتلين في سهم الأمة (إم. كي). وتنظيم الإضرابات، فألقي القبض عليه ثانية عام 1975 وصدر بحقه

حكم بالسجن مدى الحياة في الجزيرة عام 1977. عاد أكثر عنفاً وتوهجاً من أي وقت مضى. واستقطب الرفاق الشباب بخطابته. وقد قال ثامي خوانازي: «كنا نحتشد يومياً في زنزانته الصغيرة، نحلل جميع النزاعات السياسية في العالم. وكلما كان غوالا يزأر كان الأسود الصغار يزأرون معه». [31] وقال بيلي نير: «كان كاتباً جيداً، وماركسياً جيداً يتمتع بذاكرة رائعة. لكنه كان متشدداً ويطرح الأمور من زاوية طائفية متعصبة. وقد حبب نفسه إلى الشباب. ولم يتردد في أن يضرب أحداً، أو أن يتهجم على ماديبا». [32] وقال إريك مولوبي إنه كان: «الرجل الأوسع اطلاعاً فيمن عرفت. كان يعرف جميع التفاصيل حول المؤتمرين الثاني والثالث للشيوعية الدولية. ولم يخف أنه يتحدى مانديلا». [33]

رأى غوالا في نفسه حامياً للشعلة الثورية الحقيقية من الإصلاحيين البرجوازيين. وقال فيما بعد: [34] «لم يكن هناك أي سبيل لتسوية الخلافات الأيديولوجية وكان مصمماً على تحقيق ديمقراطية عمالية حقيقية في جنوب إفريقية، تسيِّر وسائل الإنتاج، فعندما قال ميثاق الحرية: «إن الشعب هو الذي سيحكم» كان يعني أن العمال يجب أن يحكموا. وقال خوانازي «إنه كان يرقب بعين النسر قيادة قضية ريفونية غير الشيوعية. وكان مستعداً للنباح في وجه أية حركة تبدو بأنها تهدد حلمه». [35]

فيما بعد سيمدح مانديلا غوالا لكونه «نصير النضال»، إلا أن سيسولو سينتقده علناً لأنه «ستاليني حقيقي صاحب نظرة ضيقة. كان يحلل تحليلاً خاطئاً. وأكثر الشباب الذين انتحوا جهة اليسار المتطرف سيتبعونه». [36] رأى الماركسيون أن الجزيرة تقدم فرصة نادرة للتعليم السياسي. وقد قال غوالا: «كان هناك حاجة صارخة لنظرية تفسر العالم تفسيراً صحيحاً. هذه النظرية كانت نظرية العمل كما طرحها ماركس وأنغلز وطورها لينين».

في البداية لم يكن لدى المناهضين الشباب وقت «لمخطوطات ماركس وأنغلز التي يعلوها الغبار»، كما تذمر غوفان مبيكي، ولم يكن لديهم معلومات

جيدة عن المؤتمر الوطني الإفريقي أو الحزب الشيوعي.[37] إلا أن مبيكي وغوالا وسواهما كانوا مصممين على تعليمهم. وكانت الدروس السياسية تُعْطَىٰ سراً، أحياناً بينما السجناء يسيرون في باحة الرياضة، وقد تمكنوا من اختلاس نسخة من /رأس المال/ من المكتبة، وقام فريق بنسخها أثناء الليل.[38] وكان /الناطق الأعلى/ قد جهز /المنهج آ/ الذي يضم تاريخ المؤتمر الوطني الإفريقي، ودورة مطالعة ذكر مبيكي بأنها ستستغرق ثلاث سنوات لتكتمل تماماً.[39] /المنهج ب/ كان يحتوي على تاريخ المجتمع الإنساني متأثراً تأثراً كبيراً بماركس وأنغلز.

أضرمت عودة غوالا إلى الجزيرة عام 1977 نار جولة جديدة حامية الوطيس من النقاش بين الماركسيين الأقحاح والوطنيين ـ كما كانوا يسمون جماعة مانديلا ـ لم تظهر تفاصيلها ووثائقها إلا مؤخراً. وضع غوالا مع المناهضين الشباب في القسم E، الذي سمي /قسم راجمي الحجارة/ وأصبح مرتعاً للماركسية وقال واحد منهم، وهو ناليدي تسيكي: «كان أشبه بالجمهورية السوفيتية في جنوب إفريقية».[40] وكان غوالا ينادي باستمرار «بالاستيلاء على السلطة» ـ نداء المعركة بالنسبة للمقاتلين الفدائيين ـ الذي يتطلب انتصاراً عسكرياً حاسماً، كما في كوبة. بالمقابل كان مانديلا دائماً يرى الكفاح المسلح وسيلة لإجبار الحكومة على الجلوس إلى طاولة المفاوضات.[41] كان نقاشاً غاضباً قال سيسولو: «إن الشباب أصبحوا أكثر حماسة حيال موضوع الاستيلاء على السلطة. وأية شكوك حول ذلك كانت تخلق المتاعب بالنسبة إليهم، برغم الاحترام الكبير الذي يكنونه للقيادة. ولأننا كنا حازمين، وفحصنا الوضع، فقد تمكنا من البقاء على خطنا. الخطر الأكبر كان في محاولة المستحيل، وأن نهزم تماماً، وأن تدمر البلاد».[42]

الموضوع الأكثر أهمية كان العلاقة بين المؤتمريين والماركسيين، الذي أعاد طرح جميع النقاشات التي ثارت حول ميثاق الحرية قبل عشرين سنة. كان

مانديلا دائماً يرى المؤتمر الوطني الإفريقي حزباً وطنياً محدداً، له تاريخه الفخور الخاص وسياساته التي «ترحب بكل من يسعى إلى الأهداف نفسها». .[43] لكن غوالا وغوفان مبيكي كانا يعتبران الحزب الشيوعي قوة مهيمنة، تزداد اقتراباً من المؤتمر الوطني الإفريقي: حتى أن غوالا أراد أن يستبدل بالنشيد الرسمي للمؤتمر الوطني الإفريقي «نكوسي سيكيليل ايافريقية» «النشيد الدولي». كان إريك مولوبي يظن «أنه يرى المؤتمر الوطني الإفريقي راكباً سيغادر المركب قبل الثورة».[44]

لم تكن هناك مواجهة مباشرة بين الشيوعيين والمعادين للشيوعية، أو بين الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي والمؤتمر الوطني الإفريقي. ويعتقد كثير من الأعضاء الموالين سابقاً للحزب الشيوعي الجنوب إفريقي، مثل ماهاراج وكاثرادا بأولوية المؤتمر الوطني الإفريقي، فيما كان المؤتمر الوطني الإفريقي نسيجاً من خيوط مختلفة عديدة تتضمن المسيحيين والمسلمين والنقابات وصغار رجال الأعمال والأكاديميين. كما أنه لم يكن شقاً عرقياً فقد أدخل المؤتمر الوطني الإفريقي منذ 1969 شيوعيين غير إفريقيين مثل جو سلوفو (مما دفع بعض الإفريقيين الأقحاح إلى الانسحاب إلى المؤتمر الإفريقي العام، وميثاق الشعب الأسود BPC) في حين جعل وجود بعض القادة الملونين والهنود الشجعان في الجزيرة من الصعوبة بمكان متابعة النقاشات العرقية. فقد كان الموضوع الحقيقي هو تكاتف الماركسية حيث وقف الشيوعيون المتشددون ضد أي تخفيف لمبادئ الماركسية وسيطرة العمال.

ثار النقاش بين السجناء الثلاثين في القسم ب عند مانديلا، وتبادل المعسكران المتنافسان الوثائق أو / الجدل/ حيث حددت الوثيقة ب1 الموقف الذي يفضله مانديلا من أن ميثاق الحرية كان دائماً يتطلع إلى ترسيخ أسس «ديمقراطية برجوازية» يمكنها أن تكون مقدمة لدولة اشتراكية كما في أوروبة، ولكن في هذه الأثناء يترتب على الكونغرس أن يحارب على أوسع جبهة ممكنة

ضد الحواجز العرقية، قبل أن يحارب ضد الرأسمالية.[45] الوثيقة ب2 مضت إلى أبعد من ذلك، فوكدت على أن الكونغرس عبارة عن جبهة وطنية، وليس حزباً، ويجب أن يعمل جنباً إلى جنب مع جميع أعداء الفاشية، ومن ضمنهم المؤتمر الإفريقي العام والجماعات الجديدة التي تتضمن حركة الزولو انكاثا Inkatha والوعي الأسود. كتب المؤلف: «لا أعتقد أن بوسعنا تحمل التصنيف الميتافيزيقي المتكبر للأعداء الثابتين والأصدقاء الثابتين».[46] إلا أن الوثيقة ب3 من الجانب الماركسي، التي أظهرت التأثير الواضح لغوفان مبيكي، أصرت على أن ميثاق الحرية يمثل العمال المضطهدين في مواجهة الطبقة الرأسمالية البيضاء.[47]

كان مبيكي دائماً معارضاً حاداً لقيام جبهة واسعة ضد الأبارثيد، وأصر على أن الاضطهاد العرقي يولد من النزاع الطبقي وأن ما يسمى بالحلفاء مثل (الوعي الأسود) كانوا في الحقيقة مرتبطين «بقوى إمبريالية واسعة الانتشار»، وأنكر أن السود يمكن أن يستفيدوا من الرأسمالية، وعارض مفهوم مانديلا أيما معارضة في مقالته عام 1956 في (الليبريشين) التي أصبحت مشهورة الآن. بأن الاستثمار الحر في إفريقية بعد الانتصار «سيزدهر كما لم يكن في أي وقت مضى». وأراد أن يسمع آراء منافسة من أقسام أخرى، تبعاً لمبدأ ماو المعلن: «فلتتفتح ألف زهرة».[48] طرح القادة في قسم مانديلا آراءهم في وثيقة أعطيت رمز Inq-M حيث Inq (بمعنى أولاً) ترمز إلى حركة الكونغرس، وM (اختصاراً للماركسية) ترمز إلى الحزب الشيوعي، جاء فيها أن النضال المباشر كان ضد الاضطهاد العرقي، وليس ضد الرأسمالية، وأنه لم يكن يعتمد على ماركس وإنما على ميثاق الحرية، الذي وعد بنظام (ديموقراطي) يستطيع الشيوعيون من خلاله طرح سياساتهم الخاصة.[49]

عند ذلك وسعت / الهيئة العليا/ في قسم مانديلا النقاش إلى زنزانات أخرى. لم يكن يفترض فيهم اتصال بعضهم ببعض، لكن السجناء نسخوا

النصوص بخط صغير جداً على قصاصات من الورق، سربوها بين الزنزانات، وهم يراقبون السجانين كالنسور «إن لهم عدداً من العيون والآذان يفوق ما لدى سلطات السجن». [50]

كان كاثرادا، الذي عين أميناً للمكتبة، قادراً على التنقل بين الزنزانات حاملاً كتبه. وقد سألته مجموعة من المناهضين الشبان «ما هي الديمقراطية الشعبية؟». ساعد السؤال في إطلاق أشرس نقاش. [51] كانت الكتب هي الذخيرة في حرب الأفكار. وقد قال مبيكي: «إذا وضعنا أيدينا على أي كتاب، مهما كان سميكاً، كان ينسخ ويوزع على أعضائنا في الغرف المتعددة». [52]

انطلق النقاش عبر الزنزانات العامة، وقد ضخمه هاري غوالا، وتابعه رفاقه الشباب المناهضون، الذين لديهم خبرة بالأرض الأم أحدث مما لدى المحاربين القدماء، الذين سرعان ما شعروا بأن تلك المزية تنقصهم. وقد قال كاثرادا: «لم يكن لدينا ذخيرة كافية، كنا نقلب الأرض عن كل ما يمكن أن نجد». [53] وتذمر المناهضون من أن Inq-M كانت مضللة تماماً ولا علاقة لها بالوقت الحالي فقد تغيرت جنوب إفريقية كثيراً خلال العقد الماضي، بينما كان المحاربون القدماء في السجن. وقد أسهمت المخازن الكبيرة والأسواق الضخمة والمؤسسات السلسلية في طمس وجود المقاولين الصغار. وكانت الشركات الاحتكارية الكبيرة تتخلص من الطبقة الوسطى بشرائها، والصناعات تقلب الفلاحة إلى بروليتارية ريفية، وحتى البيض بدؤوا يزاحون عن ملكية الصناعات وبيوت المال. نتيجة لذلك، قال الماركسيون: إن معظم جنوب إفريقية قد اتجهت نحو اليسار السياسي، ورفضت الإمبريالية الآن، وفي أجزاء أخرى من إفريقية كانت الشيوعية تمتد وتسيطر على الحكومات في أنغولا وموزامبيق، وتحرض قوى الثورة في زيمبابوي وناميبيا. وقالوا: إن الأبارثيد حركة فاشية، داخل جنوب إفريقية، تهدد جميع القيم (الديمقراطية) لذلك يجب أن تواجه (بديمقراطية) شعبية، وليس (ديمقراطية بورجوازية). واقتبسوا

عن جريدة / سيشابا/ لسان حال المؤتمر الوطني الإفريقي في المنفى، قولها عام 1969 : «غداة الثورة الظافرة سينادى بجمهورية شعبية ديمقراطية».[54]

كان مانديلا قلقاً حيال الحدة المتنامية بين السجناء. وكان دائماً يشجع على الحوار لكن المناقشات كانت تزداد توتراً. وفي قسمه هو لم تكن علاقته مع مبيكي تسمح حتى بالكلام، وأحياناً سيسولو يقوم بدور صانع السلام.[55] وكان التوتر ينتشر في الزنزانات. حيث قال راكس سينخوا: «كثيراً ما يكون النقاش حاراً لكنه أحياناً يصبح بشعاً جداً. وفي المستويات المتدنية».[56] كان مانديلا دائماً يرى أن دوره في السجن هو التهيئة للوحدة سواء بين المجلسين أو بين الأحزاب وقد قال سيسولو عنه: «كان دائماً يحاول أن يكون بناء، فيبتعد عن التعبير عن مشاعره، وكان يفضل صورة متوازنة[57]»، لكنه كان الآن بحاجة ماسة إلى الحفاظ على التوازن.

وأخيراً طلب إلى كاثرادا أن يكتب خلاصة للنقاشات ليحاول التوصل إلى إجماع. فقدم وثيقة متقنة الإعداد تتألف من إحدى وعشرين من الصفحات المحشوة. بدأت الوثيقة بالترحيب «بالثوار المتحمسين بين صفوفنا». وامتدحت جاهزية معرفة الرفاق واعترفت بتواضع أن Inq-M تضمنت أخطاء واضطراباً نجم عن عزلة السجناء في القسم ب. وأعادت الوثيقة التوكيد على أن المؤتمر (الكونغرس) كان يقود النضال الوطني، فيما يقود الحزب الشيوعي النضال الطبقي، وأن أساليب المؤتمر الوطني الإفريقي ستقررها الأحوال الواقعية داخل جنوب إفريقية، وأن ميثاق الحرية يستطيع في ظروف معنية أن يقدم «قفزة نوعية نحو الاشتراكية». ولكنه في هذه الأثناء يفسح المجال أمام المشاركة في السلطة بين جميع الطبقات والجماعات التي دعمت النضال، كما يسمح للإفريقيين بامتلاك الأرض والمصانع والتجارة، كما جاء في مقالة مانديلا في صحيفة (ليبريشين) التي، أكدت الوثيقة، أنها تعبر عن آراء هيئة العاملين في الصحيفة جميعاً.

حاولت وثيقة كاثرادا أن ترطب الآمال الأكثر ثورية للرفاق القادمين من ساحات المعارك. وحذرت الوثيقة من أن جنوب إفريقية لم تكن جاهزة بعد لإحلال دولة عمال محل الرأسمالية. كانت الطبقة الوسطى السوداء المتنامية تستثمر في الإيجارات الطويلة الأمد والسيارات، مما سيجعلهم أقرب إلى المحافظين وأبعد عن السياسة. وقد كان نضال جنوب إفريقية مختلفاً تماماً عن ثورات أوروبة الشرقية حيث أطاحت الأحزاب الشيوعية بالنازية بمساعدة الجيش الأحمر ولم يقل المؤتمران (الكونغرسان) إنهما يؤازران ديكتاتورية البروليتارية. وشجعت الوثيقة الرفاق على دراسة الثورات والماركسية، التي يمكنها (حسب قول مانديلا) أن تعمل كمصباح كهربائي قوي في نفق معتم، لكن الوثيقة أكدت أيضاً أنه «إذا أردنا استغلال وطنية الناس استغلالاً كاملاً علينا أولاً أن نتخلى عن أولوياتنا».

> أُمِرَّت وثيقة كاثرادا إلى الأقسام الأخرى مرفقة بملاحظة خطت بيد مانديلا تقول: «هذه الوثيقة حظيت بالموافقة الجماعية للهيئة العليا، ونحن نرسلها إليكم الآن لتكون موضع اهتمامكم. كما أننا نعممها أيضاً على الأعضاء هنا. وفي حال وجود أية تعليقات إضافية، سنحضر ملحقاً ونوجهه إليكم في الوقت الملائم».
>
> أماندلا![58]

اعترض السجانون الوثيقة وهي في طريقها إلى زنزانة توكيوسيكسويل. والغريب أنه لم تفرض أية عقوبة! ولم يكن هناك أي تعليق عليها. إلا أن المصالحة العامة بين الجانبين خففت حدة التوتر، كما لاحظ سجناء في زنزانات أخرى. وقد قال سوني فينكاراثنام Sonny Venkatrathnam فجأة عام 1978 «كان نيلسون وغوفان يسيران ويتحدثان. وكان ذلك المنظر غريباً بالنسبة إلينا».[59] يصر غوفان مبيكي على أنه لم يكن هناك أي تحد لسلطة مانديلا. وقد كتب فيما بعد: «كان القرار قد اتخذ من قبل الهيئة العليا بأن نيلسون سيكون الناطق باسمنا. واستمر في ذلك الموقع إلى أن افترقنا عام 1982».[60]

برغم المناقشات الحادة كانت جزيرة روبين تكتسب روحاً خاصة من التحمل والانضباط. واكتسب كثير من الثوار الشباب عادة ضبط النفس من السجناء القدامى، كما اكتسبوا روح العمل الجماعي والنقاش المنطقي، الذي أصبح سمة مميزة لشاغلي جزيرة روبين الذين سيمارسون فيما بعد نفوذاً من ذلك القبيل في جنوب إفريقية الجديدة. أما من وجهة النظر الغربية فقد بدا كأن النظام العسكري وصحبة الحرس أو النقطة الغربية قد اجتمعت مع الواقع الثقافي لأوكسفورد أو بال والقناعة الأخلاقية للمقاومة الفرنسية إبان الحرب. كما كان هناك عامل إفريقي هو / الأوبونتو/ فيما يتعلق بالعلاقات الإنسانية: «الإنسان إنسان بفضل الناس الآخرين». وذاك رأي كانت تشارك فيه الأعراق الأخرى. ولطالما فكر كاثرادا بأبيات أوسكار وايلد:

أسوأ الأعشاب، كالأعشاب السامة
تنمو وتترعرع في جو السجن،
ولا شيء يذوي هناك
كما تذوي الطيبة في الإنسان.[61]

قال كاثرادا: «ذاك لم ينطبق على تجربتي بل على العكس لقد تعلمت كثيراً عن العلاقات الإنسانية عندما كنت في السجن. فالسجناء السياسيون عموماً لديهم طرح إيجابي ينجدهم».[62]

ستبقى روح الانضباط الذاتي والتحمل مزدهرة بعد أن غادر مانديلا الجزيرة عام 1982. وقد قال إريك مولوبي: «كنا نشترك في نظرتنا إلى التسامح، لأن مستوى النقاش، بالمنطق والأفكار، كان عالياً جداً. ولم أشهد ثانية الكثافة نفسها في النقاش».[63] لقد طور معاصرو مانديلا انضباطاً وصبراً مماثلين. لكن مانديلا نفسه كان النموذج الرئيسي مضيفاً سلطته الشخصية وإصراره إلى المصالحة، المبنية على القوة، فبعد كل تضحياته ومجابهاته الصريحة، كان يصعب أن تتخيله في لبوس الخائن.

سيحتفظ خريجو السجن بالروح نفسها، أوجلّها، بعد أن غادروا السجن. وعندما وجه تيرور ليكوتا بنكساته كمستجد في الحكومة كان يعود إلى الجزيرة ليستعيد جو التمعن والمصالحة.[64] وقد قال راكس سينخوا: «أستطيع أن أميز أهالي جزيرة روبين على بعد ميل. فعندما يجدون أنفسهم في نزاع فإنهم يتميزون بضبط الغضب ثم تفريغه. وأنا سعيد جداً بهذا. فقد كان له أثر واضح على حالات الصدام، بما فيها حياتي الأسرية».[65]

بقي مانديلا النموذج المثالي لضبط النفس هذا. وكان حضوره يشع سلطة. وما زالت بنيته الجسمانية رائعة وهو يقترب من عامه الستين بمساعدة تمارين الصباح الباكر المنشطة. وقد زاره طبيب أسرته نثاتو موتلانا عام 1976 في ظروف شاقة، وحُذر من أنه ممنوع من التطرق إلى السياسة، وعندما بدأ الحديث عن الملاكمة ومحمد علي، سارع السجان وأخبره أن الحديث يجب أن يكون عن العائلة فحسب. وقال موتلانا فيما بعد: «كانت أكثر ساعتين عشتهما بؤساً، وعندما انتهت الزيارة أعتقد أن السيد مانديلا كان سعيداً بالذهاب». لكنه وجد صحته جيدة جودة مذهلة، ونظامه الغذائي مع أنه كئيب، إلا أنه يؤمن المتطلبات الأساسية. ووصف مانديلا فيما بعد بأنه «قوي. . قوي. . لولا بضع شعرات رمادية لكان نيل نفسه الذي عرفته لسنوات طويلة. أبهة تامة، تليق بزعيم كزوسي كبير، وصحة رائعة، عقلياً وجسدياً».[66]

في العام التالي، أعجب بريسيللا جانا، محامي الأسرة، «ببنية مانديلا الرائعة» وتمكنه من القانون، «لم يمارس المحاماة منذ خمس عشرة سنة، ولكن لا بد لي من القول إنه يعلق على الوثائق كمحام. وهذا كان مذهلاً، دون أن يترك العاطفة تؤثر عليه مهما يكن». وبدل أن يسأل عن زوجه وأطفاله سأل عن: «شعبي» وطلب من جانا دون أن يسمع السجانون: «قل لهم إن الأمل موجود، ولن يطول الأمر، ويجب أن يعرفوا أني ما زلت معهم».[67]

ولكن كانت هناك إنذارات بين وقت وآخر حول صحة مانديلا. وقد رآه

مفتشو الصليب الأحمر أثناء زيارتهم السنوية في آذار (مارس) 1977، وكان معهم طبيب، أفاد بأنه: «بدا متوعكاً، بطيئاً في الحديث وفي جميع حركاته. ضغط دمه180/ 100، ونبضه 78/ دقيقة وبعد إعطائه 2 ملغ فاليوم تحت اللسان بدا بحالة أفضل وزالت الآلام». عاده الطبيب ثانية في اليوم التالي. وكان يبدو بحالة جيدة ويشعر بانتعاش أكبر. ولم يعد يعاني من أية آلام لكنه ما زال متعباً. خرج الصليب الأحمر بانطباع أن «السيد مانديلا لا يحب أن يشتكي من صحته ويجب إبقاءه تحت مراقبة دقيقة».[68]

كان مانديلا يستهين بالتوعكات البسيطة. وقد قال لاحقاً: «أنا لا أومن كثيراً بالطب». وأضاف أن طبيبه موتلانا كذلك أيضاً.[69] ولكنه أحياناً يكون رواقياً جداً (يخضع من غير تذمر لحكم الضرورة القاهرة. المترجمة). وذات مرة كان يقتلع الخيزران على الشاطئ فزلقت قدمه ووقع وأصيبت ركبته وتورمت. وقال له الطبيب الإخصائي ألا يسمح للألم أن يتغلب عليه، وقال: «امش عليها وهذا كل ما في الأمر». «بقي يعرج لفترة طويلة ثم اختفى الألم، لكن الركبة لم تشف تماماً، وستسبب له متاعب كبيرة بعد خمس وعشرين سنة».[70]

عام 1979 اكتشف أن فيروساً «كان يأكل عيني»، ولكنه اختفى بعد أن راجع إخصائياً. فقال لويني: «المخلوق المسكين ليست لديه أية فكرة عن قوة إرادة الحياة لدي». وفي العام نفسه، بينما كان يلعب كرة المضرب شعر بألم مفاجئ في عقبه، أعطي عناية طبية عاجلة. وعلق ساخراً أن سلطات السجن خشيت أن يموت في السجن. فنقل إلى كيب تاون، مكبَّل اليدين ومحاطاً بالسجانين في رحلة بحرية عاصفة (قال لويني): «بدت وكأن جيشاً من العفاريت كان في حالة هياج».[71] أزال جراح شاب شظية عظمية تعود إلى أيام فورت هير، وأصر على بقائه في المستشفى حتى اليوم التالي، حيث استمتع بعناية

الممرضات البيض وجو المساواة العرقية. وخلص إلى أن «العلم لا يتسع للعنصرية». (72)

في 18 تموز (يوليو) 1978 احتفل مانديلا بعيد ميلاده الستين، حيث ألقيت خطابات من قبل رفاق مثل سيسولو وكاثرادا. ولم يصله سوى ثماني رسائل من الأسرة والأصدقاء. واحدة من ابن غوفان مبيكي (ثابو)، لم يستطع أن يرد عليها بأمان، وأخرى من الزعيم مانغوسوثو بوثيليزي، الذي كتب له رداً دافئاً تذكر فيه لقاءاتهما الودية عام1960 وقال إنه يشعر كأن عمره ثلاثون عاماً. (73)

تردد صدى عيد ميلاد مانديلا في جميع أرجاء العالم. ولم يسمح لويني أن تزوره، إلا أنها كانت الناطق باسمه أكثر من أي وقت مضى، فقدمت صورة الزوج الملتزمة والناشطة التي طالت معاناتها. وقد قالت للنيويورك تايمز: «إنه منتصب القامة، وفخور كما كان يوم اعتقل، أوه.. إنه ملائكي». وتلقت أكواماً من رسائل التهنئة بعيد ميلاده من حكومات وأفراد في الخارج، كان وراءها إي. أس، ريدي E.S. Reddy من اللجنة الخاصة بالأبارثيد في الأمم المتحدة. الذي نادى بالاحتفال بالمناسبة. (74) من بريطانية أرسل دعاة الحملة ضد الأبارثيد عشرات الآلاف من بطاقات عيد الميلاد (لم يصل أي منها) «ونادت جريدة التايمز اللندنية بمانديلا رمزاً للقومية الإفريقية». (75)

عام 1980 سمح لمانديلا أخيراً بمتابعة دورة بكالوريوس في الحقوق (LLB) في جامعة لندن، بعد أن عُلقت قبل أربع سنوات. وقال لويني إنه ينوي أن يتناول فلسفة التشريع، والقانون الدولي، والقانون الإفريقي والقانون التجاري أو القانون العائلي، وقال إنه سيسجل الرقم القياسي للدراسات الطويلة الأمد. (76) ووصله تقدير غير متوقع من الجامعة نفسها في العام التالي عندما اقترحه الطلاب مرشحاً لرئاسة الجامعة. قال لويني إنه لا يتوقع أن يحصل على مئة صوت، لكنه في النهاية حصل على سبعة آلاف صوت. وخسر أمام الأميرة

آن، التي يدعمها الطلاب التقليديون والأكاديميون، بدفع من اللورد أنان نائب الرئيس. لكنه استمتع بالمنافسة الملكية الطويلة الأمد التي اعتقد أنها ستلهم ويني في بيتها الصغير في براد فورد «لتقلب الكوخ إلى قلعة، وتجعل غرفه الضيقة رحبة كقاعات ويندسور».[77]

صار مانديلا الآن يتلقى مزيداً من الأخبار عن العالم الخارجي، فبحلول شباط (فبراير) 1978 سمح للسجناء بسماع أشرطة تسجيل مختارة من أخبار إذاعة جنوب إفريقية، مع أنها ما زالت خاضعة لرقابة مشددة. وقد كتب مانديلا إلى أحد الأصدقاء بأن: «السياسة العامة المتبعة ما زالت تقضي بعزلنا جسداً وروحاً عن العالم الخارجي».[78] ولكنه، على الأقل، في أيلول (سبتمبر) 1980، استطاع أن يحصل على سلعته المهربة الأغلى ثمناً وهي الصحف. فقد سمح للسجناء بالحصول على جريدة كيب تايمز والجريدة الأفريقانية دي بيرغر، ثم فيما بعد على جوهانسبورغ ستار، وراند ديلي ميل والصنداي تايمز الجوهانسبورغية، لكن الصحف كانت مليئة بالثقوب التي قصها الرقيب فوجد التغطية الإخبارية ناقصة* وقد قال مانديلا للدكتور موتلانا: «لدي فكرة موجزة عما يحدث في البلاد وفي العالم. ففي بعض الأحيان تكون التغطية الصحفية جيدة جداً، وكانت بعض الافتتاحيات والمقالات الرئيسية موضوعية وجريئة لحد ما. ولكن في معظم الأحيان كانت أفضل الافتتاحيات والتحليلات تترك كثيراً من التساؤلات الوثيقة الصلة بالموضوع بلا جواب. فالجزء الأكبر والأكثر حسماً في عملنا السياسي يتم في الخفاء أو من وراء الستار. ووسائل الإعلام عموماً لا تدري به».[79]

كان مانديلا نفسه يتعلم دروساً أوسع في جامعة جزيرة روبين. ولما كان دائماً يقظاً إزاء السجناء الآخرين، فقد أصبح أرهف إحساساً لتحفظات الآخرين

(*) بعض الجماعات المتشددة كانت تفرض رقابتها الخاصة فقد منع هاري غوالا السجناء في =

وشعورهم بعدم الأمان؛ مثل مدير تجاري تعرض «لتدريب في رهافة الحس». امتد سنوات. فبدا أقل غروراً، ولم يعد الزعيم (الأوتوقراطي)، وإنما (الديمقراطي) المرن الذي يستطيع أن يستمع ويسجل ملاحظات عن رأي الأكثرية. وقال لماهاراج إن الأساس الوحيد لتركه سيكون التخلي عن النضال ضد الأبارثيد.[80] ولكنه كان دائماً يحاول الاتصال بجماعات أخرى ليجد أرضية مشتركة ضمن إطار الأمة.

كان يمد يده إلى الأفارقة قبل الجميع، إذ كان السجانون ـ وهم البيض الوحيدون في الجزيرة ـ يمثلون الهيمنة العنصرية في صورتها المطلقة. لكن مانديلا كان قادراً على أن يراهم أفراداً يستطيع التواصل معهم، ويستطيعون أن يعلموه ما هي الأفريقانية. وحث زملاءه على محاولة فهم الأفارقة، لغتهم، وثقافتهم. وفي مقالته التي لم تنشر بعد عن / الوعي الأسود/ التي كتبهاعام 1978 ذكرهم بأن جهل المؤتمر الوطني الإفريقي السابق بالأفارقة واحتقاره لهم أعطاهم ثقة كبيرة جداً. وحذر من أن «الرجال الإنكليز السود» بتعليمهم الليبرالي قد يكونون على استعداد للتأثر بالإنكليز «الذين لديهم أسبابهم الخاصة لاحتقار الأفارقة». وببعد نظر ملحوظ، تطلع، بعد سنتين من ثورة سويتو نحو مستقبل مختلف تماماً: «اليوم يوجد في جنوب إفريقية حوالي ثلاثة ملايين أفريقاني لن يكونوا طغاة بعد التحرير وإنما أقلية قوية من المواطنين العاديين، الذين ستدعو الحاجة إلى تعاونهم وحسن نيتهم من أجل إعادة بناء البلاد».[82]

كانت الحكومة الأفريقانية في بريتورية تتلقى تقارير سرية من سلطات السجن تعطي تقييماً لشخصية مانديلا . وفي حزيران (يونيو) 1980 تحدث جاني روكس Jannie Roux ـ نائب مفوض السجون الذي أجرى عدة محادثات مع مانديلا ـ معه لمدة ساعتين ونصف، باهتمام خاص بعد المطالبة بإطلاق

= قسمه من قراءة الصفحة الأخيرة النسائية في جريدة صنداي تايمز الجوهانسبورغية.[81]

سراحه. أفاد روكس بأن مانديلا اعترض بشدة على أنه «اعترف بأنه شيوعي» كما قال رئيس الوزراء بي. دبليو. بوثان برغم أنه يجهر بمعارضته للرأسمالية، والملكية الخاصة للأرض وسلطة رأس المال. وأنه متأثر بالتعليم السوفيتي. وبدا أنه يرى أن المكان يتسع للسكان البيض في جنوب إفريقية القادمة، دون أن يمسكوا بزمام السلطة السياسية. وهو يفكر بمرحلة انتقالية مدتها خمس سنوات يعتادون خلالها على انتقال السلطة. إلا أنه يفهم تحذير روكس من أن البيض لن يذعنوا ببساطة. وكتب روكس: «يبدو أن طريقة تفكيره صلبة نسبياً ويصعب إجباره على قبول وجهة نظر معارضة». أرسل روكس تقريراً سرياً إلى الوزير الذي علّق «هذا النوع من الحالات يجب أن يعرض علي فوراً».[83]

في شباط (فبراير) 1981 تلقت وزارة العدل ملخصاً بالأفريقانية عن خلفية مانديلا. جاء فيه أنه قد كيّف نفسه مع أنظمة السجن لدرجة أنه أعطى انطباعاً بأنه حسن التصرف، ولم تسجل ضده أية انتهاكات لأنظمة السجن حتى عام 1967:

> إنه يتخذ موقفاً ثابتاً بأن يقدم احتجاجات متكررة عن الأوضاع، ولكن بطريقة تحول دون اتخاذ أية إجراءات ضده. ولكن هذا يجب ألا يعتبر سلوكاً حسناً: فهو يعطي الأوامر ثم ينسحب ليراقب أعماله عن بعد. ويبقى مانديلا على مساره المختار ويؤثر في كل من معه كي لا يحيد عنه.. واضح أن مانديلا لم يغير موقفه في جميع الأحوال وأن السجن لم يترك حتى الآن أي أثر إيجابي عليه.[84]

طلب وزير العدل الجديد كوبي كوتسي Kobie Coetsee مزيداً من المعلومات، فأعطي تحليلاً أكثر تفصيلاً، أبرز إحدى عشرة نقطة محددة:

أ) إن مانديلا لديه حافز متميز ويثابر على طرح مثالي قوي.

ب) إنه يقيم علاقات شخصية متميزة، وهو مرح بخاصة ويتصرف دائماً باحترام وود تجاه أشخاص السلطة.

ج) إنه متلاعب إلا أنه لا يفتقر إلى (التكتيك) أو التحريض.

د) ليس هناك ما يشير إلى مرارة واضحة تجاه البيض، مع أن تلك قد تكون لعبة مخادعة من قبله.

هـ) إنه يعترف بنقاط ضعفه، لكنه مع ذلك يثق بنفسه.

و) إنه مفكر عملي و(براغماتي) يستطيع التوصل إلى حل عملي من منطلق فلسفي.

ز) لديه مقدرة على التفكير الإبداعي المتكامل.

ح) لديه ذاكرة لا تصدق في استحضار الأشياء بأدق التفاصيل.

ط) كان لديه إيمان راسخ بقضيته وبانتصار القومية الإفريقية في النهاية.

ي) إنه يَعد نفسه مرتهناً للمهمة وهذا يرفعه فوق سوية الرجل الأبيض المتوسط الذي يعتقد أنه فقد مثاليته.

ك) إنه يَعد الانضباط الذاتي والاستمرار في أخذ زمام المبادرة شرطان أساسيان للنجاح.

وتتابع الوثيقة أن «ليس هناك أدنى شك في أن مانديلا يملك جميع مواصفات القائد الأسود الذي يحتل المرتبة الأولى في جنوب إفريقية. وقد تسببت فترة بقائه في السجن في رفع موقعه النفسي - السياسي بدل خفضه، وبهذا اكتسب صفة سحر السجن لقائد تحرير معاصر».[85]

وكان ذلك تحليلاً دقيقاً وملفتاً لشخصية مانديلا وتفكيره، سيساعد في تغيير موقف الوزير تجاه سجينه. لكنه لم يعط جواباً حاسماً لسؤال: ماذا يفعل بهذا المعارض الرائع؟ وستمضي تسعة أعوام أخرى قبل أن يطلق كوتسي سراح هذا «القائد الأسود الذي يحتل المرتبة الأولى».

21

أسرة منفصلة

1977 ـ 1980

كانتويني أكثر من أي وقت مضى طريق مانديلا الحيوية إلى العالم الخارجي. قال لها: «أشعر أحياناً وكأنني شخص على الهامش. أفتقد الحياة ذاتها». لكنها كانت قادرة على وصله بالحياة. وكان يسألها خلال زياراتها وبشوق عن الأصدقاء القدامى. متجنباً أية تلميحات سياسية. وفي كل عام كان يحصي رسائلها بعناية وكذلك زياراتها، التي أصبحت الآن مسموحة بدرجة أكبر؛ وفي العام 1978 أبلغها أن لديه حصيلة تقدر بخمس عشرة زيارة وثلاث وأربعين رسالة. خمس عشرة رسالة منها بالذات.(1)

كان باستطاعتها أيضاً أن تعكس آراءه ـ حسبما فهمتها ـ إلى العالم الخارجي عن طريق الصحفيين الذين جاءوا لزيارتها. قال هاري غوالا: كانت ويني تزور نلسون ثم تبدأ بالنقاش. وإذا قلت إن نلسون يرى الأمور بهذه الطريقة «فهذا يعني أنها القاعدة، لأن اسمه كان مبجلاً. وبهذه الطريقة مارست روبن آيلاند النفوذ».(2) كانت دوماً متكلمة صريحة. ولقد أبلغت الكريستيان ساينس مونيتور في العام 1981 أن الرئيس ريغان «لم يكن صديقاً للشعب الأسود».

وكان بمقدورها أن تقدم لمانديلا صورة عن المناخ السياسي في البلاد بعد انتفاضة السوويتو بوصفها كانت في حمأتها. وبعد الاضطرابات الأولى مباشرة تم تأليف هيئة الآباء السود في سوويتو لإقامة صلة مع الأطفال،

والتحقت ويني بالقسم التنفيذي بوصفها المرأة الوحيدة كعضو، وذلك مع السوويتيين الآخرين البارزين بمن فيهم جارها الدكتور موتلانا.

كانت جنوب إفريقيا في حالة جيشان. فقد قتلت الشرطة المئات من الشبان السود كما فر الآلاف من البلاد. وتحدثت ويني بدون أي كبح: «إننا سنقاتل حتى اللحظة الأخيرة من أجل العدالة». هذا ما قالته في اجتماع احتجاج في سوويتو.[3] وموتلانا الذي بقي مخلصاً لها على الدوام كان مذهولاً بشجاعتها وقوتها الجسدية: «كانت لها حيوية من نوع لم يكن متوفراً لدي، كما لدى الكثيرين. كانت تقف أمام رجال البوليس الذين يحملون البنادق (الأتوماتيكية) وتقول لهم أن يذهبوا إلى الجحيم. إنها لم تكن تخشى شيئاً». لكنه كان معجباً أيضاً بقدرتها على ضبط نفسها: «إذ كانت تتصرف أحياناً مثل رجل إنكليزي، شفة عليا صلبة، رافضة جداً».[4]

وما زالت الشرطة تعتبرها العقل المدبر للمقاومة: فبعد شهرين من انتفاضة السوويتو سجنت في القلعة مع نساء أخريات بمن فيهن سالجا زوجة موتلانا. التي وجدت في ويني زعيماً قوياً عظيماً يتحدى السجّانين في حين يبث الثقة بالسجناء الآخرين. «كانت مستعدة على الدوام للاستماع والابتسام والتهدئة».[5] وقد أمضت ويني ما يقارب خمسة أشهر في القلعة دون توجيه أي اتهام، وفي حالة مزرية مع أنها لم تكن بالقسوة السابقة. وهذا ما أثار قلق مانديلا. وذلك قبل أن يطلق سراحها في كانون الأول (ديسمبر). وعادت إلى سوويتو كناشطة أكثر من أي وقت مضى بين أصدقائها من الشبان. مع أن الشرطة كانت تراقبها عن كثب.

وبعد خمسة شهور على إطلاق سراحها، في أيار (مايو) 1977، تم نفيها! وفي روبن آيلاند سمع أحمد كترارا من قس هندوسي أن البوليس قبض عليها وأبعدها مسافة 250 ميلاً إلى براندفورت، وهي بلدة إفريقية كئيبة في أورانج فري ستيت، حيث يتحدث معظم السود هناك لغة سوتو التي لم تكن ويني

تفهمها. وتم وضعها مع ابنتها زندزي التي كانت تبلغ ستة عشر عاماً مع أثاثها في بيت صغير خاوٍ في البلدة السوداء بدون تدفئة ولا ماء جارٍ. وقد كتبت لمانديلا: «عندما فتحت الباب الأمامي كانت هناك كومة من الأقذار في غرفة المعيشة. وكانت معظم النوافذ محطمة، والمرحاض في الخارج».[6] وفي براندفورت أبقيت ويني تحت المراقبة. ومنعت من الاجتماع مع أكثر من شخص واحد. ورأى مانديلا في هذا الإيعاز عملاً حقيراً وضعيفاً.[7] فقد كتب إلى زندزي: «لا أستطيع تصديق ذلك. لقد خسرت أمك كل شيء تقريباً. ولن تحصل على أي عمل هناك ربما فيما عدا خادمة، أو عاملة في مزرعة، أو غاسلة ملابس. وستمضي أيامها كلها في الفقر».[8] وكانت مقتنعة بأن الحكومة قد أرسلتها إلى تلك المنطقة الكئيبة لإجبارها على العودة إلى الترانسكي حيث ولدت، لتساعد في إضفاء الشرعية على (الوطن المستقل).[9] لكن ويني كانت تحتقر تلك الفكرة! «الوقاحة فيها. فإذا كان على أحد أن يغادر، فإنها حكومة المستوطنين».[10]

بقيت ويني في منزل براندفورت سبع سنوات وكانت تسميه «سجني المنفرد». وتم تحذير جيرانها بوجوب عدم الاختلاط معها، في حين كان رقيب في الشرطة يراقبها باستمرار. وعندما حاول رجل بيعها دجاجة بينما كانت تتحدث إلى أحد الجيران، اتهمت بأنها تحضر تجمعاً. قالت لصحيفة النيويورك تايمز: «في أي بلد آخر يعتبر ثمن الدجاجة دليلاً؟» «ربما كانوا يظنون أنني أشتري دجاج رود آيلاند الأحمر». قالت مازحة.[11] واستعادت بسرعة روحها القتالية، متحدية الشرطة، ومدافعة عن المظالم المحلية وباعثة الحيوية في البلدة بثيابها البراقة - بعضها بألوان المجلس الوطني الإفريقي كالأسود والأخضر والأصفر. ورفضت أن تدفع الإيجار والخدمات، على أساس أن المنزل ليس بيتها بل هو سجن.[12]

نفي ويني لم يقلل من شعبيتها الوطنية: فمن عام 1977 حتى 1979

أظهرت استفتاءات الرأي أنها أهم ناشط سياسي بعد زعيم الزولو الزعيم بوثيليزي.[13] وفي براندفورت اكتسبت بعض الأصدقاء - ليس بين جيرانها السود فحسب، بل أيضاً بين الجنوب إفريقيين من أصل أوربي. وصادقها طبيب من أصل أوربي، كريس هاتينغ لكنه قتل في حادث سيارة - حيث ارتاب بعضهم في أن الحادث متعمد - كما أن شقيقته التي صادقت زندزي كانت الشرطة تروعها.[14]

أصبحت ويني أيضاً تربطها صداقة مع بيي دي وول، المحامي الوحيد في براندفورت حيث كان صديقاً قديماً لعضو مجلس النواب الوطني كوبي كويتسي، الذي كان يملك مزرعة في الجوار. وعندما احتاجت ويني إلى محام كان دي وول متردداً في البداية بقبول القضية، لكن محاميها من جوهانسبورغ إسماعيل أيوب حذره بأنه مجبر أخلاقياً على تمثيلها، ما دامت لا تستطيع الخروج من براندفورت. ودي وول الذي كان مرتبكاً جداً تحدث عن «الموقف المحرج» الذي هو فيه إلى كويتسي وإلى وزير العدل جيمي كروغر، وحاول العمل على إبعادها إلى مكان آخر. لكن موقفه تغير تدريجياً؛ فعندما جاءت ويني أول مرة إلى مكتبه تشكى من الحشد الكبير في الخارج. لكن بينما كانت تقوم بالمزيد من الزيارات بدأ ينظر إليها كصديقة، كما فعلت زوجته أديل، التي تنحدر من أسرة معروفة من أصل أوربي. لقد كانا مذهولين بهذه المرأة الذكية المتقدة. ودافعا عنها أمام الشرطة.

أصبح دفاع بيي دي وول عن ويني أكثر أهمية في العام 1980، عندما أصبح كوبي كويتسي وزيراً للعدل. بدأ دي وول يحثه أولاً على إلغاء إدانة ويني ثم إعادة النظر بسجن مانديلا. وبدأ كويتسي بإعادة التفكير بموقفه من مانديلا. وقال فيما بعد: «يمكن القول إن القضية برمتها تبدأ هنا».[15] وفي أثناء ذلك لم تتوقف الشرطة عن اضطهاد ويني وزوجها من خلالها.

وعلى روبن آيلاند شعر مانديلا بالذنب أكثر فأكثر لكونه ليس إلى جانب

ويني. وكان على الدوام ممتناً للأشخاص الذين تجرؤوا على زيارتها في براندفورت، أمثال فاطمة مير وأميرة قشالية. ولعامين منذ 1976 كانت لديه أحلام قلقة بشأن ويني. وكان يلازمه كابوس معين يتكرر. حاول فيه الوصول إلى الوطن من جوهانسبورغ بدون جواز سفر، وكان عليه السير حتى سوويتو. وكان سيهرع إلى بيته، ليجد الباب مفتوحاً، ولا أحد في الداخل، ويقلق بيأس حول ما حدث لويني والأطفال.[16] وقد كتب بعد شهر من وصولها إلى براندفورت: «كنت آمل أن أبني لك ملاذاً مهما كان صغيراً، بحيث يصبح لنا مكان للراحة والمعيشة قبل حلول الأيام الحزينة الصعبة. وسقطت ولم أستطع القيام بهذه الأشياء. إنني كمن يبني قصوراً في الهواء». وأخبرها يوم عيد زواجهما في حزيران (يونيو) 1979: «لقد أمضيت واحداً وعشرين عاماً من أفضل أعوامك وأنت تسبحين في تيارات غادرة لبحر غير ودود». وكتب بعد زيارة: «أراك في كل مرة وأنت تحملين علائم واضحة من المعاناة. وأنا يعذبني شعور بالذنب والخزي».[17] ومن جانبها كانت ويني معجبة ببصيرة مانديلا وتهذيبه: «كان واحداً من أعظم علماء النفس». هذا ما كتبته: «إنه محام بكل معنى الكلمة. إنه في مرتبة الكمال دون أن يفرض نفسه. وهو يميل إلى الفلسفة إلى حد كبير. هذه هي نفسيته الطبيعية».[18]

لكن مانديلا كان يتوق للاتصال الفعلي. وقد صب عواطفه في رسائل كانت مختلفة جداً عن رسائله السياسية المدروسة. فقد كتب إلى ويني وهو في الستين: «في سني هذه أتوقع كل أحاسيس الشباب وقد تلاشت بعيداً. لكن يبدو أنها ليست كذلك. فمجرد رؤيتك، بل حتى التفكير فيك يلهب أشد النيران فيَّ». وكتب في حزيران (يونيو) 1980: «أمضيت وقتاً طويلاً هذا اليوم وأنا أفكر فيك. وفي كل مرة أفعل ذلك. أشعر بالتوهج وأتوق إلى عناقك وأشعر بالصدمات الكهربائية التي يبعثها جسدك فيَّ، وضربات قلبك». كان حساساً بشأن عمره: «أنا لست معتاداً على رؤية أجزاء من جسدي وقد انسابت

وارتخت، وكأنني في الثانية والستين»، هذا ما كتبه لويني في كانون الأول (ديسمبر) 1976: «تعلمين جيداً أنني في الخامسة والأربعين فقط، ولا يكاد أحد يستطيع تحدي هذا الوضع عندما أستأنف تماريني».[19] لكن ويني صارت أكثر قلقاً الآن لفارق العمر بينهما؛ وقد أخبرت الصحفي أليستر سباركس في العام 1982: «نلسون في الثالثة والستين الآن، وأنا مثل شابة ما تزال تتوق لتجربة الحياة الزوجية».[20]

وعلى الرغم من اكتفائه الذاتي الوضاح في السجن، بدا مانديلا معتمداً على دعم ويني. كتب قبل شهر: «لولا زياراتك ورسائلك الرائعة وحبك، لتمزقت منذ سنوات وسنوات». وبعد شهرين: «أوجد حبك وإخلاصك ديناً لن أتجرأ على الوفاء به». وشعر أنه محظوظ أكثر من بعض زملائه في السجن.

وكتب في شباط (فبراير) 1980: «لسنا كلنا محظوظين، لكنني أريد منك أن تعلمي أنك أفسدتني كثيراً، وأن طفلاً مفسداً من الصعب دوماً السيطرة عليه». «هناك صلابة أقل بكثير فيّ مما كنت أعتقد». هذا ما قاله لها في حزيران (يونيو) 1980: «المسافة وعقدان من الانفصال لم تعزز الصلابة بي بل زادت من قلقي بشأن الأسرة».

ويحب مانديلا أن يتذكر غيرة ويني العنيفة إضافة إلى حبها: «مثلها مثل بنلوب التي وضعت طهارتها قيد التساؤل»[21] وذكر لزندزي كيف أنه طلب منه في إحدى المرات أن يوصل امرأة جذابة إلى صوفيا تاون، وذهبت ويني إلى غرفة النوم وهي ترتجف من الغضب. أو عندما كان ينتظر في المكتب لرؤية سكرتيرة جميلة، واكتشفته وسحبته خارجاً. وتوقع بشكل سابق لأوانه «إننا اليوم لدينا راعية متسامحة وذات روح عالية جعلت مني رجلاً».[22] كان يعجب دوماً بالنساء القويات. وعندما كتبت له ويني عن العام 1979 بوصفه عام المرأة علّق على النساء الجميلات اللواتي يظهرن في شتى أنحاء العالم: سيمون فيل رئيسة البرلمان الأوربي وروز ألين كارتز والسيدة الأولى الأمريكية، اللواتي

يرتدين البنطال، هذا إذا لم يشر إلى مارغريت تاتشر. وتذكر الحكام السابقين من النساء مثل إليزابيث الأولى، وكاترين العظيمة، لكنه فضل النساء الحديثات اللواتي حزمن أنفسهن برباط الحذاء.[23]

بدت ويني ظاهرياً كأنها تجاوزت عزلة وقسوة براندفورت، حيث كانت رابطة الجأش مثل مانديلا. وفي أيار (مايو) 1979 وصفت بحيوية «سيبيريا الصغيرة» الخاصة بها لصديقتها ماري بنسون في لندن: «الأيام الطويلة الفارغة تجرجر نفسها، الواحد مثل الآخر، على الرغم من جهدي الكبير في الدراسة. إن الوحدة قاتلة، والكوخ الرمادي باق. إنني يائسة أتطلع بنظرات عديمة الحياة مثل ساكنيه الذين يشكلون سلسلة بشرية من الإحباط عندما يمرون أمام نافذتي منذ اللحظة التي تفتح فيها الحانة حتى إغلاقها في الثامنة مساء؛ إنهم سكارى حتى الشلل». وتابعت: «مهما بدا ذلك كئيباً، فهناك شيء يطهر النفس في المنفى... ما هو الأعظم من كونك جزءاً من قضية كهذه مهما كانت مساعدتنا ضئيلة.[24]

كانت ويني تستغل تجربتها كعامل اجتماعي للقيام بنشاطات عامة مثل دار للحضانة ومجموعة خياطة ومستشفى، تساعدها التبرعات التي تدفقت عندما بدأ الصحفيون والديبلوماسيون بزيارتها. وبدأت الدراسة لتحصل على درجة في العمل الاجتماعي بالمراسلة، لكنها واجهت العديد من العقبات. كتب إليها مانديلا: «أشعر بالخيبة، بل حتى بالقرف لأنني أعلم أن العمل الاجتماعي هو الطبيعة الثانية لك. وإن حصولك على الدرجة سيكون مجرد تعويض عما عانيته من قسوة خلال السنوات الاثنتين والعشرين الأخيرة».[25]

الزوار وجدوا ويني امرأة لا تقهر. «فوجئت بسرور وتأثر لمزاجها الدمث وهدوئها ورباطة جأشها الكاملة». قالت صديقتها القديمة إلين كوزوايو عندما قابلتها مجدداً في عام 1982: «جاذبيتها، ضحكتها الموسيقية، وجهها الذي لم

يتغير وعنفوانها الحاضر دوماً هي صفات ويني نوفرامو في عقد الخمسين عندما التقيتها أول مرة»[26].

لكن صورة ويني الشعبية كانت خادعة: إذ لم تكن البطلة المستقيمة الملتزمة التي بدت عليها أمام العالم؛ واعتقد بعض الأصدقاء أن الإبعاد إلى براندفورت، ومعاناتها في السجن، قد غيراها إلى حد كبير. فبعيداً عن المراسلين وبدون علم مانديلا، كانت تتصرف بتهور كبير متباهية بشهرتها في حوانيت البيض، وفجأة تنفجر بعنف، وتشرب كميات كبيرة. وعمدة براندفورت الذي كان يدير مخزناً للمشروبات قال: إنها تأتي إلى هنا لشراء أشياء: شمبانيا، سينزانو، أشياء كهذه. وكانت فواتيرها تصل كما يقال إلى حوالي 3000 روبي في الشهر.[27] واحتقارها المبرر للشرطة، مترافقاً مع التهليل الدولي لها منحا ويني شعوراً قوياً بأنها فوق أي قانون؛ وفي أسلحة المؤتمر الوطني الإفريقي كانت تصبح شيئاً فشيئاً كمدفع فقدت السيطرة عليه. كان من شأنه أن يطلق قريباً بعض المتفجرات الخطرة.

أما الأبناء فكانوا يعانون ظاهرياً بدرجة أقل، لكنهم كانوا مدعاة للقلق بالدرجة ذاتها. قال مانديلا لويني في العام 1979: «لا أتوقف أبداً عن التفكير بأن بعض الأبناء ليسوا قادرين على تحقيق أحلام حياتهم، لأنني لست هناك لمساعدتهم في حل مشكلاتهم الكثيرة»[28] كان منشغلاً بالتفكير بتعليمهم ـ كما لاحظت كاثرارا ـ إلى مرحلة الابتزاز: «عندما تبدو كارهة أو بطيئة في قبول نصائحه، فإنه كان يمنعها من الزيارة إلى أن ترضيه بالبرهان على أنها تدرس بجدية»[29].

كان أقل قلقاً بشأن زيني، ابنته الكبرى من ويني؛ بعد أن أصبحت مخطوبة للأمير ثامبوموزي، ابن ملك سوازي (سوبوزا) الذي التقته في مدرسة ووتر فورد. وكان مانديلا قلقاً من أن زيني كانت صغيرة جداً على الزواج في سن الثامنة عشرة، ومن أنها لم تنه المدرسة الثانوية. قال لها: «إن الأولوية

الأهم هي دراستك». [30] لكنه كان فخوراً بالارتباط إلى «واحدة من أشهر العائلات في جنوب إفريقية» كما قال لويني. وقد رأى في سوبوزا ملكاً شعبياً يدعم المؤتمر الوطني الإفريقي. [31] وطلب من محاميه جورج بيزوس - بإجراء وهمي إلى حد كبير - أن يطلب من الأمير بيان كيف سيعيل ابنته. وقال بيزوس إن مؤهلات ثامبوموزي كانت جيدة، وأنه واقع فعلاً في الحب.

رأى مانديلا أن هذا الزواج له علاقة بسلالة حاكمة، بين أمير سوازي وأميرة تيمبو. [32] وقد شعر بالإحباط إذ لم يكن باستطاعته تسليم ابنته في احتفال زواج تقليدي عام 1977، لكنه كان يهتز طرباً لمولد ابنتهما التي أصر على تسميتها زازيوي (الأمل): «لن نشعر بالسعادة ما لم تؤكدي لنا أنك قبلت الاسم». [33] «إذ عمل على أن تكون صديقته القديمة هيلين جوزف هي العرابة وكانت في الثالثة والسبعين، وفي صورة التعميد اكتشف على الفور سيدة طويلة كانت تقف وكأنها فيلد مارشال». [34] وكعراب آخر اختار - بتسامح ملحوظ - الدكتور جيمس موروكا البالغ من العمر واحد وتسعون عاماً - وهو الرئيس السابق للمؤتمر الوطني الإفريقي الذي خانه والزعماء الآخرين في حملة التحدي في عام 1952 بتسميتهم بالشيوعيين.

إن وضع زيني الجديد كأميرة أجنبية منحها الميزة الديبلوماسية الثمينة بالسماح لها برؤية والدها في الغرفة ذاتها، وليس من وراء الزجاج. فعندما وصلت مع زوجها وابنتها الصغيرة إلى الجزيرة، كان بمقدور مانديلا أن يعانق زيني لأول مرة منذ سجنه، وأن يحمل الطفلة بسرور خلال فترة الزيارة. وكتب إنه ما زال قلقاً حول عدم تمتعها «بالطموح والدهاء». لكنه اطمأن إلى حد ما بعد مغادرتها مع أسرتها الصغيرة إلى أمريكا. واهتز طرباً لدى قدوم المزيد من الأحفاد. [35]

زندزي كانت مشكلة أكبر. فهي - ميل ويني - جريئة ولامعة الذكاء وسريعة الغضب. كانت قلقة جداً عندما زارته للمرة الأولى في السجن وهي في

السادسة عشرة، إلا أنها شعرت بالاطمئنان لدفئه. قال: «آه يا حبيبتي أستطيع رؤيتك الآن كطفلة في البيت تجلس في حضني. . . لقد بدأنا نحلم ونحلم ثم شعرت براحة كبيرة».[36] «لديها الكثير من النشاط في داخلها، وآمل أن تستخدمه كاملاً». هذا ما قاله فيما بعد لصديق.[37] لكنه قلق عليها في براندفورت، بعيدة عن أصدقائها، ووحيدة مع أمها المنهكة. فكتب إليها في عيد ميلادها السابع عشر عام 1977: «كيف تستطيع الأم المسكينة أن تظهر محبتها لمن ولد أخيراً في مكان غريب، حيث ليس لديها دخل، وحيث تواجه مشكلات كثيرة». «في ظروف كهذه هل من الصحيح فعلاً التحدث عن عيد ميلاد؟» كان قلقاً حتى الوسواس: فعندما كانت زندزي مرتبكة لتصورها حضور زفاف زيني بصدرٍ عارٍ، حسب العادة الملكية في سوازي طمأنها: «يجب أن يكون نهداك قاسيين كالتفاح، وخطرين كالمدافع». وكان مسروراً عندما أخبرته أنها تود أن تصبح كاتبة ـ والكتابة مهنة مميزة ـ فقد دعاها جيم بايلي صاحب «الدرم» لأن تصبح كاتبة عمود في مجلته النسائية الجديدة «الحب الحقيقي». وكانت قد بدأت أيضاً بكتابة الشعر.[38]

في العام التالي، 1978، نشرت كتاب شعر، سوداء كما أنا، بدأ بقصيدة عن والدها:

هناك شجرة قُطّعت إرباً إرباً
وتبعثرت الثمار
وأنا بكيت. . .[39]

ومنح الكتاب جائزة مقدارها 1000 دولار في أمريكا، وتم تنقيحه جيداً من قبل ألان باتون وآخرين. ووجد مانديلا أن لغته بسيطة وواضحة. لكنه نصح زندزي بوجوب صقل الحواشي غير المستساغة[40]، ولم يرحب بأنباء أنها تخطط للكتابة عن سيرة حياة أسرة؛ لقد شعر بالحزن للكتابة التي أثارت الجدل مؤخراً بقلم مارغريت ترودو، الزوجة المنفصلة لرئيس الوزراء الكندي،

وصوفيا لورين، الممثلة المفضلة لديه، وكان يفزع من الإثارة: «الأسرة السعيدة هي دعامة هامة جداً لأي شخصية عامة».[41]

أحب مانديلا زيارات زندزي لروبن آيلاند. فقد أخبرنا في آذار (مارس) 1979: «إنك تبدين صورة رائعة كلما رأيتك»، «لقد كنت رائعة جداً في سروالك» هذا ما كتبه بعد ستة أشهر. لكن وراء حيويتها كانت زندزي تعاني من التشوش والكآبة المتقطعة. كان عليها أن تراجع طبيباً نفسياً، ودراساتها بدأت بالتراجع. وحاول مانديلا طمأنتها أن الكآبة أمر شائع، وأنه يمكن إدراك كآبتها بسبب ظروفها، لقد امتدح ذهنها الفضولي، وشعورها المحبب بالمرح، وتعاطف معها في غضبها بسبب حياتها الممزقة. وحثها: «هناك القليل من المحن في هذا العالم التي لا تستطيعين تحويلها إلى انتصار إذا كانت لديك الإرادة الحديدية والبراعة اللازمة»[42] لكن زندزي لم تكن تتمتع بإرادة والدها الحديدية: لقد نضبت كتاباتها، وتراجعت عن الذهاب إلى جامعة ويتس. ووقعت في حب رجل يعمل بغير انتظام وهو أوبا سيكاميلا، حيث ولدت طفلة منه ـ زوليكا ـ ثم ولدت فيما بعد طفلاً قذافياً من رجل من راستافاريا اسمه مبويسيلو، كان يضربها.[43] وتركت ويني في براندفورت لتعود إلى منزل الأسرة في أورلاندو. كان مانديلا حامياً لها. إذ تفهم توق زندزي إلى العودة لمنزل الطفولة، لكنه لم يرغب في أن تعيش وحيدة، كان يأمل في أن تنضم إليها عمة مسنة أو زوجان صديقان، لكنه عرف أن الشرطة ستضايق أي شخص له علاقة مع المانديلانيين.[44]

شعر بالقلق أيضاً على ولديه الكبيرين من زوجته الأولى، إيفلين. قالت فاطمة مير التي بقيت على صداقة مع معظم أفراد الأسرة: «كان الأمر دوماً مدعاة لألم عميق، لأن أولئك الذين أحبهم. . . لم يحب بعضهم بعضاً كما كان يجب».

وماكفاتو ابن مانديلا الأكبر، كان ما يزال يدعو للخيبة. وبعد أن عادت

زوجته رين (رينيه) إلى الدراسة كان مانديلا يأمل بأنه سيدرك أنه «الجبان الوحيد في الأسرة». وطلب من ماكي شقيقة ماكفاتو حثه دوماً على التفكير بمستقبله. كتب مانديلا عام 1979: «عندما يدخل المدرسة فعلاً سأبذل قصارى جهدي لمساعدته، لكن ليس قبل ذلك بالتأكيد».[45] لكن ماكفاتو ظل يرفض التعلم الذي كان والده يقدره أكثر من أي شيء آخر.

لم تكن ماكي أفضل منه بكثير من حيث الصراحة. وهذا ما فاجأ مانديلا. وقد كتب لها بعد عيد ميلادها السادس عشر عام 1978 أنها يجب أن لا تولي أية أهمية لأشياء غير هامة مثل أعياد الميلاد وبطاقات ـ الكريسماس ـ عام 1978، بعد انهيار زواجها حثها على الطلاق بدون أي تأخير، «أنت ما تزالين يافعة ولك مستقبل باهر. إذا استطعت التخطيط بعناية منذ الآن وكنت مصممة فعلاً على السير قدماً».[46] وفي النهاية قررت أن «الحياة بدون مهنة عديمة الجدوى»، ودخلت فورت هير أواخر عام 1978، «من خلال مناورات أمي ويني». وأخبرته أن ذلك جعلها «أسعد فتاة».[47] وشعر بارتياح كبير، ونصحها بأن تقرأ صحيفتين على الأقل يومياً.

كان مانديلا يشعر بالقلق لأن كاماجو زوج ماكي لم يكن ينفق على الأطفال، وحذرها بشدة من صدمات الطلاق: «فالأطفال سيعذبهم ترعرعهم بدون أمان البيت حيث يعيش الأبوان معاً». وحث ماكي على أن تكون قوية: «ربما يدمر الطلاق بعض النساء لكن الشخصيات القوية لم تنج من آثاره فحسب بل تقدمت إلى الأمام».[48] وكانت ماكي في مجالات معينة أكثر أبناء مانديلا استقلالاً في التفكير، مستعدة دوماً للنقاش معه. كتب إليها في إحدى المرات بحزن: «لا تدعيني أشعر بالأسف لأنني هنا، لا أريد أن أصل إلى النقطة التي آسف فيها على ما أفعله، ما أنا بحاجة لأن أقوم به يُعد هاماً ليس لك ولبقية الأسرة فحسب بل أيضاً للشعب الأسود بأكمله».[49]

وفي وحدته في زنزانته كان مانديلا يشعر بالندم الشديد عندما يفكر

بالسنوات السابقة. قال فيما بعد: «أحد الأشياء التي كانت تعذبني هو كيف عاملت الناس الذين كانوا لطيفين جداً معي، لا سيما عندما كنت أواجه صعوبات، كانوا يبذلون قصارى جهدهم لجعلي سعيداً، بدون أي إكراه. وعندما أصبحت محامياً نسيت كل شيء عنهم».[50] لم يكن باستطاعته التخلص من ذلك الندم: «لم أظهر امتناناً كافياً لأولئك الذين كانوا لطيفين معي عندما كانت الأيام الصعبة تدق بابي». هذا ما قاله فيما بعد.[51]

كان يشعر بالقوة من التفكير بأبنائه والعدد المتزايد من الأحفاد. وكان يتحدث كثيراً عنهم لزملائه في السجن، ويحاول تصور حياتهم. كتب إلى ويني: «أشعر أني بأفضل حال عندما تغيب الشمس وتغلق البوابات الكبيرة» «هذا هو وقت الاسترخاء عندما أختار أن أتجاوز مواطن ضعفي وأعد مواطن قوتي الواحد بعد الآخر».[52] «لكنه كان يفتقد إلى حد كبير الاتصال الملموس الذي ربما يعبر عن الحب الخالص بينه وبين أبنائه، ويلطف الجانب الأقسى من طموحاته الأبوية». سأل أصدقاءه: «كيف يمكن للطفل أن يترعرع بدون أن يلمس أباه؟»[53] إن التصميم السياسي الفولاذي الذي أصبح قاسياً أكثر في السجن، والذي كان الملهم لرفاقه، لم ينسجم بسهولة مع الجانب الأرق للأبوة؛ وهو يستمر في إلقاء اللوم على نفسه لكونه رب الأسرة الغائب، الذي ضحى بها من أجل هدفه السياسي. وعندما كان يعمل في السر عام 1961 عرف أنه يختار طريقاً من شأنه أن يفصله عن أية حياة أسرية مستقرة. لكن وحدته في السجن أبعدته عن أبنائه وعن ويني أكثر مما كان يتوهمه في ذلك الوقت.

22

سجن داخل سجن

1978 ـ 1982

من سجنه في الجزيرة، كان منديلا ينظر إلى البلاد بمعلومات ناقصة جداً، لكن بتفاؤل عنيد. كتب إلى صديقته شيلا وينبرغ عام 1978: «القليل الذي يرشح عبر هذه الجدران الكئيبة يثبت لنا أن قواتنا تحرز النجاح». «شعبنا يرد الهجوم بشجاعة بحيث أتساءل كثيراً ما إذا كان الذين يعانون بدرجة أكبر هم أولئك الذين داخل السجن أم خارجه».[1] «لقد أزعجنا كل آت جديد تقريباً إلى الجزيرة بخصوص المعلومات التي تخص الوضع السياسي، هذا ما قاله لرادي زوجة صديقه القديم الشيوعي من دورربان جي. إن. سينغ: «وقد سعينا على الدوام للحصول على معلومات عن الرجال والنساء الذين هم القوة الدافعة التي تقف وراء منظمتنا».[2]

وفي عمر عقد الستين، كان مانديلا يدرك جيداً أن عليه أن يتفق مع جيل جديد كلياً، ولا سيما بعد نقاشه مع ثوار سوويتو. كان بحاجة ماسة إلى إبقاء الصلة مع السياسيين في الخارج؛ ولا سيما مع رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي أوليفر تامبو، الذي كان مركزه الآن في لوساكا ولندن، حيث تعيش زوجته أديلايد وأولاده في ماسويل هيل. كان مانديلا قادراً أحياناً على تهريب رسائل سياسية عن طريق الزوار، أو السجناء المغادرين أو الوسطاء الآخرين الذين لم يُكشف عنهم. كتب إلى أديلايد (تحت اسم ماتلالا) كتغطية لتامبو (المدعو باسمه المتوسط، ريجينالد) وكشف المراقبون سريعاً هذه الحيلة، كما أبلغ

أديلايد عام 1980: «إن قسم السجناء يريد قطع جميع أنواع الاتصال بين ريغي وبيني». لكن الرسائل استمرت في العبور.

كان قلق مانديلا الأول هو أن تامبو يجب أن لا يرهق نفسه، إذ إنه لم يكن قوياً. كتب إلى أديلايد في كانون الأول (ديسمبر) 1980: «ناشدته مرة أخرى أن يأخذ إجازة ولو لأسبوعين». وكان قلقاً أيضاً بشأن صحة أديلايد ذاتها، بعد سقطة تطلبت إجراء عدة عمليات، والتي ربما أودت بها إلى كرسي العجلات: «امرأة من فولاذ فقط يمكنها أن تتحمل تلك التجربة الرهيبة».[3]

لكن انشغال مانديلا الرئيسي، هو أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يتماسك، ويتجنب المنافسات القاتلة التي دمرت العديد من حركات التحرر؛ ويجب أن يكون تامبو الزعيم بدون ريب. وعام 1978 كان بعض المنفيين يدّعون أن سجناء روبن آيلاند كانوا ينتقدون طريقة معالجة الصراع، وأرادوا أن يقودوه بأنفسهم؛ لكن مانديلا وريموند مهلابا كتبا إلى تامبو منكرين ذلك. واعترفا أن بعض السجناء اشتكوا من عدم فعالية من هم في الخارج، لكنهم يقدرون جيداً الظروف الصعبة جداً، وقد قبلوا أن الزعماء في المنفى يجب أن يتحركوا «بحذر وأناة». وكانوا واثقين من أن «المنظمة لم تكن بهذه القوة عبر تاريخها». وشجعهم «المستوى الرفيع للوعي السياسي من جانب أبناء الشعب الذين وضعوا في السجن، بمن فيهم الرجال في أوائل عقد العشرين من عمرهم».[4]

عرف مانديلا أن بريتوريا كانت تبذل جهدها لبث التفرقة بين الإفريقيين وأن تدخل زعماءهم في نظام التمييز العنصري.. وكان قلقاً بصورة خاصة بشأن الأراضي القبلية الجديدة، أو (البانتو ستانات)، التي هي مظاهر «للتمييز الكبير». والتي منحت «الاستقلال» تحت سيطرة بريتوريا، مع مكافآت سخية للمتعاونين. وراقب السجناء العملية بغضب وإحباط مؤلمين. كتب والتر سيسولو عام 1976 أنه مع (استقلال البانتو ستانات) «فإن الـ Nats البيض

المولودين هنا سيكونون قد قطعوا شوطاً بعيداً في تفريق شعبنا عبر خطوط عرقية، وفي زرع بذور من شأنها أن تصبح بالتأكيد قنبلة موقوتة ستنفجر بيننا، بعد وقت طويل من اختفاء البيض المولودين هنا وحكم الأقلية البيضاء».[5]

عانى مانديلا من تألم شخصي كبير في تشرين الأول (أكتوبر) 1976، بعد أربعة أشهر من انتفاضة سوويتو، فمنطقته بالذات وهي الترانسكي أصبحت ما يدعى الجمهورية المستقلة (مع أن الدول الأجنبية الوحيدة التي اعترفت بها كانت إسرائيل وتايوان)، وانتخب ابن أخته كايسر ماتانزيما الرئيس الأول لها، وبدأ يرسخ نفسه سريعاً ـ مع شقيقه جورج ـ كديكتاتور حقيقي، تدعمه بريتوريا، ورأى ماتانزيما في نفسه صديقاً للأفريقانيين (من أصل أوربي) واعتقد أن خاله مانديلا يستحق السجن لأنه اخترق القانون.[6] واستمر في حثه على قبول عرض بريتوريا إطلاق سراحه إلى الترانسكي. ولم تكن لدى مانديلا الآن أية أوهام حول ابن أخته، لكنه احتفظ مع ذلك بالصداقة العائلية. وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1977 عندما طلب ماتانزيما زيارته على جزيرته ـ وسمحت بريتوريا بذلك بسرور ـ أغري مانديلا بالموافقة، معتقداً بتفاؤل أنه ربما استطاع إقناعه بالتحول نحو الديموقراطية إذا ما تحدثا وجهاً لوجه. واستشار رفاقه المقربين، لكن سيسولو وكاثرادا كانا ضد الزيارة، وكان مبيكي ومهلابا غير سعيدين أيضاً بشأنها، وكان معظم السجناء الآخرين معارضين لأي نوع من الصفقات مع خونة أمثال ماتانزيما.[7]

عام 1980 أظهر ماتانزيما قسوته الكاملة عندما أطاح بساباتا ملك تيمبو ـ الذي كان يتوقع من مانديلا الشاب أن يعمل كمستشار له، والذي أصبح مؤيداً أكثر فأكثر للمؤتمر الوطني الإفريقي.[8] وبعد طرد ساباتا جاءت مجموعة من زعماء تيمبو إلى روبن آيلاند طلباً لنصيحة مانديلا، وحثهم على دعم ساباتا ضد ماتانزيما وفر ساباتا بسرعة بعد ذلك، واتجه نحو لوساكا عاصمة زامبيا، حيث التحق رسمياً بالمؤتمر الوطني الإفريقي وأصبح معروفاً باسم «الملك الرفيق».

استمر مانديلا بالاتصال مع ماتانزيما، بل سعى وراء مساعدة مالية لابنة ماتانزيما، التي بعثت إليه برسائل حميمة في السجن.[9] لكنه كان واثقاً أن (البانتو ستانات) لن تحصل أبداً على الدعم الشعبي. كما كتب عام 1980:

> إن ما يسمى (البانتو ستانات) المستقلة ليست أكثر من احتياطي مبجل ليد عاملة رخيصة تشلها كثرة الصدأ، وتآكل التربة، والفقر. إنها ولايات زائفة احتقرتها وذلتها المجموعة الدولية، والتي لا يكاد يتوفر لديها أي أمل بالازدهار الاقتصادي. ولهذا السبب بالدرجة الأولى ترفض عدة (بانتو ستانات) الآن قبول الاستقلال.[10]

كانت لدى مانديلا أيضاً مشاعر متناقضة بشأن زعيم الزولو: مانغوسوزو باثيليزي الذي أصبح بحلول عقد السبعين الزعيم الأسود الأكثر بروزاً داخل جنوب إفريقية. كان باثيليزي أول زعيم للزولو ـ قبل ماتانزيما الذي كان أول زعيم للكسوزار يذهب إلى الجامعة، وقد أعجب به مانديلا منذ أن طرد من فورت هير لانتمائه إلى المؤتمر الوطني الإفريقي، وحيث إنه الآن سياسي داهية، يجمع سرعة الخاطر الذهنية مع الإدراك القبلي، فقد وافق عام 1970 على أن يصبح المنفذ الرئيسي للسلطة الإقليمية الجديدة للزولو، وهكذا تآمر مع سياسات (البانتوستات) وكان غامضاً دوماً تجاه المؤتمر الوطني الإفريقي. وظل على اتصال بتامبو، وعام 1973 دعا إلى إطلاق سراح مانديلا، وذلك «لإيجاد مناخ كامل للحوار المفيد».[11]

كان باثيليزي يزدهر بسبب رعاية الحكومة والشهرة، في حين تم إسكات المؤتمر الوطني الإفريقي. عام 1975، وبتشجيع من تامبو أعاد إلى الحياة هيئة ثقافية سابقة للزولو، «إنكاثا»، كوسيلة لتعبئة جماهير الزولو، حيث تبنى علم ولباس المؤتمر الوطني الإفريقي[12]، لكن تامبو أسف لأن باثيليزي «بنى الإنكاثا كقاعدة سلطة شخصية، بعيدة جداً عن نوع المنظمة التي تصورناها».

لقد سيطر على كوارزولو كإقطاعية خاصة به، وقدم نفسه إلى الخارج

بوصفه الزعيم الأسود الرئيسي، حيث اجتمع إلى عدد من رؤساء الحكومات، بمن فيهم الرئيس الأميركي جيمي كارتر. وعام 1978 وجد فريق من الباحثين الألمان أن 44٪ من الإفريقيين المدينيين في ثلاث مدن رئيسية في جنوب إفريقية كانوا معجبين بباثيليزي أكثر من أي شخصية سياسية أخرى، بالمقارنة مع 19٪ فقط لمانديلا.[13] وبحلول عام 1980 كان بمقدور الإنكاثا الادعاء بأن لها 350,000 عضو في حوالي ألف فرع. لكن الشباب الناشطين من السود بدؤوا يرون باثيليزي مثل كوينزلينغ: ففي تشييع روبيرت سوبوكوي عام 1978 اضطر لنفرار لأن الشباب كانوا ينادونه «دمية» و«خائن».[14]

بقي مانديلا صديقاً صداقة شخصية لباثيليزي، مثلما كان حالهُ مع ماتانزيما. وعندما أرسل إليه باثيليزي التمنيات بعيد ميلاده الستين، أجاب بود، مشيراً إلى أنه رأى صوره في منشورات الحكومة وأفلامها. ولإدراكه أن الرسالة كانت حساسة سياسياً، فقد عرضها على رفاقه المقربين، حيث اعترض اثنان منهم فقط عليها، ثم تم تهريبها إلى الخارج عن طريق تامبو تاركاً له أمر إيصالها أو عدمه إلى باثيليزي.[15]

استمر باثيليزي في ادعاء التأييد ممن هم في روبن آيلاند، قال في سوويتو في 21 تشرين الأول (أكتوبر) 1979: «من السجن أسمع رسالة من نلسون مانديلا ووالتر سيسولو يطلبان مني أن أستمر فيما أعمل فيه لصالح الملايين من الشعب الأسود». لكن بعد عشرة أيام فقط كان في صدام مباشر مع المؤتمر الوطني الإفريقي. وذهب إلى لندن للقاء سري مع تامبو، بدا ودياً، على الرغم من أن باثيليزي كان يعارض في الأساس الكفاح المسلح والعقوبات. لكن لدى عودته، سرب تفصيلات عن اللقاء إلى صحيفة الصنداي تايمز الصادرة في جوهانسبورغ، التي أعلنت أن «باثيليزي يخطط لجبهة سوداء» وجعلته يظهر على أنه الزعيم الأسود بلا منازع. وتحول بسرعة ضد المؤتمر الوطني الإفريقي. وفي تموز (يوليو) عام 1980، أعلن تامبو أن باثيليزي «وقف

إلى جانب العدو ضد الشعب». واحتفظ مانديلا بالصلة معه، كصديق قديم؛ لكن إنكاثا سيبقى على خلاف مع المؤتمر الوطني الإفريقي للسنوات الست عشرة القادمة، وكان يُعد العقبة الوحيدة الأكبر لمعارضة سوداء موحدة ضد نظام التمييز العنصري.

استطاع مانديلا أن يجد تشجيعاً أكبر في مكان آخر، ولا سيما من الكنائس، التي كانت حذرة جداً في معارضة التمييز العنصري في الوقت الذي ذهب فيه إلى السجن. والآن «أصبحت رياح التغيير تهب داخل الكنائس»، كما تنبأ الأب الكاثوليكي سمانغا ليزو مخاتشاوا عام 1968، وكان القساوسة السود يخرقون نموذج السيطرة البيضاء. وأصدر الكاثوليكيون «بيان القساوسة السود» مهاجمين التفرقة العنصرية ضمن كنائسهم، وأصبحوا أكثر صراحة ضد التمييز العنصري.[16]

وعين الأنكليكانيون رجل الدين الأسود اللامسؤول ديزموند توتو كعمدة جوهانسبورغ؛ وأصبح الأخير أمين سرٍ لمجلس الكنائس الجنوب إفريقي. وتوتو جار المانديلانيين في سوويتو، كان جريئاً في التكهن بحكم السود. قال في نيسان (أبريل) 1980: «نحن بحاجة إلى نلسون مانديلا لأنه سيكون بشكل شبه مؤكد رئيس الوزراء الأسود الأول»[17] وكتب مانديلا شاكراً توتو مذكّراً بأبطال أنكليكانيين آخرين ـ مايكل سكوت ـ تريغور هادلستون، وأمبروز ريغز، وملاحظاً «أن الكنائس تدمر عذر الحكومة بأنها تضطهد المناضلين من أجل الحرية كجزء من مؤامرة شيوعية عالمية. والغضب المتصاعد لرجال الكنائس ضد جميع أنواع القمع العنصري حرم الحكومة من سلاحها الدعائي الوحيد».[18]

كان مانديلا يصل إلى جميع الكنائس الرئيسية، بعين السياسي الذي يتطلع إلى أصدقاء المستقبل. فقد هنأ الدكتور غوبيول الذي أصبح رئيساً للكنيسة الميثودية، ملاحظاً أن أمين سره الجديد ستانلي موغوبا أصبح «مليئاً بالعزم».

والتصميم من خلال المعاناة في روبن آيلاند. وكان سعيداً لأن الميثوديين قد بدؤوا «بالمهمة الخطيرة جداً» في تنظيم بيتهم؛ وقد تذكر انتفاضة الميثوديين من جماعته بالذات، ورحب بالمؤتمر الأخير، الذي رأى أنه «يثبت المبادىء العظيمة التي بنى عليها الحواريون القدامى الكنيسة المسيحية». [19]

ورحب مانديلا ترحيباً خاصاً برياح التغيير ضمن كنيسة الإصلاح الهولندية التي هي أساس نظام التمييز العنصري. وقد تأثر بشجاعة الدكتور بييرز فود وهو واعظ أنيق كان والده مؤسس برويدر بوند، والذي ثار ضد كنيسته بالذات وأصبح المدير الأول للمؤسسة المسيحية الجديدة، حيث صادق العديد من لزعماء السود، بمن فيهم ستيف بيكو. وشعر بالسرور لتقرير مجلس كنيسة الإصلاح الهولندية الذي ندد بجميع أشكال القمع العنصري. وأدرك أن الكنيسة لا يمكن أن تعزل نفسها عن المشكلات الأخرى؛ وكتب إلى سام بوتي، وهو واعظ أسود ينتمي إلى كنيسة الإصلاح الهولندية وكان يعرف أباه جيداً، ليهنئه على المشاركة في مجلس الكنائس الجنوب إفريقية. [20]

كان مانديلا يوسع (ديبلوماسيته) أيضاً في الخارج، في رسائل مليئة بالتفهم والإطراء وعندما منح دكتوراه فخرية في ليثوذو قبلها «كتعبير ملموس للدعم الكامل والمستمر الذي تمتع به نضالنا على الدوام بين أبناء ليثوذو». وامتدح ملك باسوتو العظيم موشوي وي، الذي كان «من أوائل رجال الدولة السود الذين عبروا عن تقديرهم لمخاطر الانقسامات داخل شعبنا في نضاله ضد العدوان الامبريالي». «وتذكر أن ملك باسوتو غريفيتيس كان عضواً مؤسساً للمؤتمر الوطني الإفريقي عام 1912، وكيف أنه قابل ملكة باسوكو في جوهانسبورغ». [21]

وبعد وفاة سيريتسي خاما في المكتب وهو أول رئيس لبوتشوانا عام 1980، كتب مانديلا إلى خلفه مذكراً بصداقته مع السير سيريتسي ومهنئاً بوتشوانا بحكومتها؛ قال من الجدير بالذكر أنه في إفريقية «فإن الرجال الذين

ليست لهم تجارب سابقة مهما كان نوعها في الحكم، كما يحدث اليوم، يجب أن يكونوا قادرين على إدارة دول حديثة بنجاح كهذا». وكان ممتناً لبوتشوانا لضمانها الملاذ للاجئين من جنوب إفريقية الذين فروا من الاضطهاد السياسي.[22]

وأصبح مانديلا واثقاً أكثر بالمزيد من علائم الاعتراف في شتى أنحاء العالم. فعام 1979 منح جائزة نهرو السنوية حول التفاهم الدولي. ومن بين من منحت لهم في السابق الأم تيريزا ومارتن لوثركينغ وجوزيف تيتو. سافر تامبو إلى دلهي لتقديم كلمة قبول مانديلا، التي ذكر فيها كم أثر فيه نهرو، وكيف رفض نهرو في السجن الاستسلام للصعوبات الدنيوية، أو الذهن المغلق: «الجدران الأشد هولاً هي تلك التي تنمو في الذهن».[23] لم يكن يسمح لمانديلا ذاته حتى برؤية الألبوم الذي يحيي الاحتفال بالجائزة، لكن أحد الحراس هربه إلى زنزانته ليلاً.[24] قال لأديلايد تامبو: «يجب أن تعرفي هذا المكان جيداً لتقدري قيمة الصور بالنسبة إلى السجناء. إنها من بين تلك الأشياء التي تقلل بل حتى تزيل كلياً الشعور بالرفض والعزلة».[25]

في كانون الأول (ديسمبر) 1980 حرضت مدينة غلاسغو على نزاع سكوتلندي عاصف بمنحه الحق السياسي(*). شكر مانديلا بعمق الدكتور مايكل كيلين، لورد بروفوست، مادحاً السكوتلنديين، متذكراً كيف أنه تعلم في طفولته عن الوطنيين السكوتلنديين أمثال وليام والس، روبرت بروس، وإيرل أرجيل، وقدم صورة حية لتكهنه الحالي:

(*) عندما كتب رئيس المجلس البلدي لمدينة غلاسكو Glasgow رسالة إلى رئيس جنوب إفريقية، ونشرتها الصحف، يطلب فيها السماح لمانديلا الحضور إلى غلاسكو لاستلام جائزته، أرسل مجلس جنوب إفريقية في غلاسكو إلى بريتوريا بكل كبرياء يخبرهم أن ردة الفعل لتلك الرسالة لم تنل الموافقة (حتى من صحف حزب العمال) وكان الموقف منها الحياد أو العداء أو عدم الاهتمام.[29]

أنا أعيش في سجن داخل سجن، في جزيرة رديئة، في بلاد سجن معظم شعبها من قبل أقلية من المهووسين العنصريين تشغلهم قضايا اللون والعقيدة؛ الحاكم القوي الوهمي الذي جعل من التحامل العنصري ديانة، في بلادي بالذات، وبسبب لون بشرتي، لم أتمتع بتاتاً بالحرية في الشوارع فكيف بالحرية في المدينة.[26]

كان مانديلا لا يظهر في رسائله أبداً كسجين لمدى الحياة، بل مثل رئيس حكومة أو (دولة) في المنفى منتظراً إيجاد دولة جديدة موحدة. كان لديه بعض السبب للشعور بالمزيد من التفاؤل بشأن الدعم الدولي. فقد غضب الرأي الحر الغربي بشدة لتعذيب وقتل زعيم الوعي الأسود ستيف بيكو في أيلول (سبتمبر) 1977، مما عكس كل وحشية دولة التمييز العنصري. وبعد شهرين فرضت الأمم المتحدة حظراً إلزامياً حول جميع مبيعات الأسلحة إلى جنوب إفريقية ـ وهو الأول في تاريخها.[27] وندد السفير الأمريكي الجديد إلى الأمم المتحدة عضو الكونغرس الأسود أندرو يونغ ندد بحكومة بريتوريا بوصفها «غير شرعية»، في حين حذر نائب الرئيس الأمريكي والتر مونديل بريتوريا من أن لا يكون لديها «أية أوهام بأن الولايات المتحدة ستتدخل في النهاية لإنقاذ جنوب إفريقيا».[28] وفي لندن كان وزير خارجية العمال الجديد ديڤيد أوين ينتقد باستمرار التمييز العنصري، «على الرغم من شعوره بالإحباط من الحكومة البريطانية التي وجدها معارضة بشدة لتطبيق أية عقوبات»، ومن قبل سفير بريطانيا إلى بريتوريا، ديڤيد سكوت، الذي أصبح فيما بعد نائب رئيس لوبي التجارة UKSATA.[30]

في جنوب إفريقية بالذات، بدت الحكومة وهي تتدمر من الداخل بسبب الفضائح المتعاظمة. فوزير الإعلام، كوني مولدر تواطأ مع مديره المتوهج إسكل رودي ورئيس الاستخبارات الجنرال فاندنبورغ لإنشاء شبكتهم بالذات الفاسدة للدعاية، والديبلوماسية السرية بميزانية سرية ضخمة. وبحلول عام 1978، كانت فضائح إنفوغيت تطول رئيس الوزراء ذاته، واضطر فورستر للاستقالة، ودفع إلى الأعلى ليصبح سريعاً رئيس الدولة.[31]

بدا أن آمال مانديلا بحدوث انقسام في صفوف الأفريقانيين قد تحققت في النهاية، وأن الأفريقانيين الأحرار ربما يبدؤون بتحطيم الجبهة الصلبة للتمييز العنصري. كتب عام 1978: «مع التخطيط الملائم والمعرفة الأفضل للإفريقيين عموماً، يمكننا التحدث مباشرة إلى جمهور أوسع وأن نكسب أمثال برام فيشرز وجاك سيمونسيس وبيت فوغلمسيس وبريتين برتينباخ.[32] وتشجع هو وسيسولو من قبل كتاب أفريقانيين أمثال أندريه برينل وجان رابي، ممن كانوا يهاجمون القمع. كتب سيسولو عام 1976: «في حقل الأدب، بدا أن الكتّاب الأفريقانيين يظهرون أنهم أكثر إيجابية وصراحة حول مسائل القمع والتفرقة العنصرية من أمثالهم من المتحدثين بالإنكليزية الذين نقبوا بضعف إلى حد ما في مسائل كهذه عبر فترة أطول بكثير».[33]

لكن الحزب الوطني اختار بدل فورستر وزير الدفاع ب. دبليو. بوثا رئيساً للوزراء الذي برهن سريعاً على أنه معارض أشد قسوة. كان بوثا بطلاً قوياً لشعبه، ضخماً، متنحراً يقف وراءه جيش موالٍ، وقد رأى نفسه مقاتلاً ومصلحاً في آن واحد. شهد بسرعة إصلاحات هدفت إلى استرضاء وتهدئة رجال الأعمال المحليين والرأي العام العالمي، وإلى تأسيس طبقة وسطى سوداء راغبة في التعليم. سمح للسود في المناطق المدينية بشراء عقود إيجار طويلة، ووافق على إضفاء الشرعية على نقابات العمال السود. ومع هذه الإصلاحات، لاحظت وكالة الاستخبارات المركزية في منشورها بعنوان «استعراض إفريقية» أن: «فشل الحكومة في الاستجابة لمطالب اليد العاملة السوداء بالمساواة في مكان العمل من شأنه أن يدمر الآمال بالازدهار الاقتصادي والاستقرار السياسي».[34]

عزز بوثا أيضاً وبقوة آليته العسكرية في عهد وزير الدفاع الجديد مانغوس مالان. مصعداً الحملة لمحاربة «الذبح الجماعي» للقوى الشيوعية. وآثر سريعاً زعماء الأعمال وأدخلهم في النظام الأمني وصناعة الأسلحة المتنامية.

لم تكن لدى مانديلا الثقة بإصلاحات بوثا. «ليس هناك حتى مجرد همس حول حكم الأغلبية أو أي نوع من التمثيل المباشر للسود في برلمان البلاد» هذا ما قاله الدكتور كيلي في غلاسغو، وتذكر السنوات العشرين الأخيرة من الإبعاد والقتل والتعذيب: «كل جيشان ـ مثل مقاطعة المدارس والمظاهرات ـ يتم قمعه بعنف ويتحول إلى حمام دماء».(35)

صار المؤتمر الوطني الإفريقي الآن في المنفى يواجه قوة عسكرية ضخمة أكثر. لكن تامبو كسب القوة من انتفاضة السوويتو. كان أكثر تعاطفاً مع الثوار الشبان من مانديلا، متذكراً ماضيه في العصبة: «بدأنا بطريقة ما من الوعي الأسود أيضاً». كما كتب في مجلة المؤتمر الوطني الإفريقي ـ سيشابا ـ أواخر عام 1977(36) وعندما استطاع آلاف اللاجئين الشبان الفرار من جنوب إفريقية، جند المؤتمر الوطني الإفريقي أعداداً كبيرة في معسكرات تدريبه. وكان القلائل منهم قادرين على التغلغل مجدداً إلى داخل جنوب إفريقية، حيث كان العسكريون فعالين بدرجة متزايدة بمساعدة المخبرين والتعذيب، لكن منذ سوويتو، كان المؤتمر الوطني الإفريقي يعطي أهمية أكبر للتعبئة السياسية داخل جنوب إفريقية لدعم الكفاح المسلح. وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1978 ترأس تامبو وفداً للمؤتمر الوطني الإفريقي، ضم جوي موريس، جوي سلوفور وثابو مبيكي، إلى ڤيتنام بعد إعادة توحيدها. وعند عودتهم أصدروا «كتاباً أخضر» عن الأولويات الجديدة التي تم قبولها إلى حد كبير من قبل المجلس التنفيذي الوطني. وتنبؤوا «بحرب شعبية طويلة الأمد» أكثر من العصيان الشعبي الواسع». وحددوا المهمة الرئيسية بأنها «التوكيد على التعبئة السياسية والتنظيم لإشادة قواعد ثورية سياسية عبر أنحاء البلاد».(37)

رأى مانديلا بريقاً من الأمل لنفسه في آذار (مارس) 1980 عندما قدم بيرسي كوبوزا محرر «الصنداي بوست» الصادرة في جوهانسبورغ التماساً لإطلاق سراحه تحت عنوان «أطلقوا سراح مانديلا». وكان هذا الالتماس بوحي

obeikandl.com

من المؤتمر الوطني الإفريقي في لوساكا الذي ابتعد عن تقليد تشجيع القيادة الجماعية، مع أن بعض من في روبن آيلاند كانوا قلقين بخصوص عبادة الشخص.[38] وكسبت الحملة الزخم بسرعة داخل جنوب إفريقية. ففي اجتماع في جامعة ويتس بعد عشرين عاماً على شاربفيل، شرحت زندزي ابنة مانديلا الهدف من الالتماس بأنه «مجرد القول إن هناك بديلاً لحمام الدم المحتوم».[39] وجاء الدعم من دوائر غربية: فالعديد من البيض وضعوا متظاهري «أطلقوا سراح مانديلا» في سياراتهم، بل إن الجنرال فاندنبورغ الذي طرد من الاستخبارات السرية بعد فضيحة «إنفوغيت»، قال الآن إن مانديلا يجب أن يطلق سراحه؛ قال لكيت كاتزين من الصنداي إكسبريس الصادرة في جوهانسبورغ: «أعرف جيداً تاريخ الرجل، وأتحدى أياً كان بأن يجيء بأي دليل يبرهن على أن مانديلا كان عضواً في الحزب الشيوعي».[40] لكن وزير الشرطة لويس دي غرانج، أصر على أن مانديلا «يبقى مجرد شيوعي عنيد كما كان خلال حياته كلها». وبوثا الذي انهالت عليه الأسئلة والتحديات من الطلاب الأفريقانيين كرر أنه لن يطلق سراح «الماركسي الماكر».[41]

أدت الحملة إلى تجدد المزاعم حول شيوعية مانديلا ضد الدليل. جاء في تقرير سري جداً من مجلس أمن الدولة في أيار (مايو) 1982: «هناك ـ مع ذلك ـ افتراضات قوية بأن مانديلا في الحقيقة هو عضو في الحزب الشيوعي». لكنهم اعتمدوا على التهم القديمة بأنه حضر اجتماعاً للجنة المركزية عام 1962، وعلى نسخته «كيف تكون شيوعياً جيداً» التي عرضت في محاكمة ريفونية.[42]

ترددت حملة «أطلقوا سراح مانديلا» في شتى أنحاء العالم. ففي نيويورك شارك مجلس الأمن الدولي بالدعوة إلى إطلاق سراحه، كوسيلة وحيدة لتحقيق «نقاش فعال لمستقبل البلاد».[43] وفي لندن ناشد تامبو أن يكون عام 1980 هو «عام الكفاح الجماهيري الموحد»، وأعاد نشر البيان الذي كتبه مانديلا بعد انتفاضة السوويتو، بدعوته النضالية: «أولئك الذين يعيشون جنباً إلى جنب مع

البندقية يموتون بالبندقية. اتحدوا! تعبؤوا! استمروا في القتال».[44]

بدأ المؤتمر الوطني الإفريقي بالتسبب بالمزيد من التخريب الفعال. بالتماشي مع سياسته الجديدة «الدعاية المسلحة»، في حين يتجنب الأهداف المدنية والإرهاب. في حزيران (يونيو) 1980 وضع فدائيو المؤتمر الوطني الإفريقي القنابل في ثلاث منشآت رئيسية للبترول المستخرج من الفحم؛ وأضاءت الانفجارات السماء على بعد خمسين ميلاً. قالت صحيفة «راند دايلي ميل» إن جنوب إفريقية أصبحت الآن في «حالة حرب ثورية».[45] وكتب مانديلا إلى تامبو إن هجمات كهذه «عززت إلى حد كبير وضع المؤتمر الوطني الإفريقي وجعلتنا نرفع رؤوسنا عالياً. نحن دون ريب قوة يجب أن يحسب لها حساب».

لكن حكومة بوثا كانت مصممة على إبعاد قواعد المؤتمر الوطني الإفريقي إلى ما وراء حدود البلاد. ففي كانون الثاني (يناير) 1981 قامت قواتها بغزو موزامبيق، مهاجمة ثلاثة أبنية في العاصمة مابوتو، وقتلت ثلاثين من المؤيدين للمؤتمر الوطني الإفريقي. ورأى مانديلا أن ذلك مرتبط بوضوح بانتخابات نيسان (أبريل) المقبلة في جنوب إفريقية. «بي. دبليو. بوثا مستعد لخرق السلامة الإقليمية لدولة مستقلة». كما كتب إلى تامبو. وتابع «وقتل لاجئين عزّل من أجل البقاء في السلطة». كان يعتقد أن بوثا كان يحاول التقرب من إدارة ريغان في حملتها العنيفة ضد الشيوعية. لكن مانديلا بدا متفائلاً رغم ذلك: «ستكون ضربتنا المقبلة مدمرة لدرجة تجعل المزيد من مؤيدي الحكومة يدركون أن الـ Nats يقودون البلاد إلى كارثة تامة».[46]

بحلول عام 1981 كانت الهجمات والردود تتصاعد: جوي غابي مقال سابق من الـ MK وممثل المؤتمر الوطني الإفريقي في زيمبابوي تم قتله في هراري؛ وبعد ذلك مباشرة انفجرت قنبلة في مركز تسوق في بورت إليزابيث. وأعلن تامبو أن «أوضاع القتال» ربما تتصاعد مما يحتمل أن يعرض المدنيين للقتل. وخلال أربع سنوات ونصف كان هناك 112 هجوماً وانفجاراً. وكانت

حسب قول المؤرخ توم لودج في عام 1981، «كانت أكبر تمرد عنيف متعزز في التاريخ الجنوب إفريقي، وتشير جميع الدلائل إلى أنه سيستمر إلى حرب ثورية شاملة».(47)

كان التمرد يصل إلى نوع من العصيان ضمن الدوائر الانتخابية. إلا أنه كان يتصاعد أيضاً ضد الحرب الباردة الكونية عندما كانت القوى الغربية تراقب جنوب إفريقية السوداء من خلال تليسكوبات مصبوغة بالأحمر.

حملة ب. . دبليو بوثا العنيفة ضد الشيوعية كانت تحظى بالمزيد من الدعم من الحكومات المحافظة الجديدة في لندن وواشنطن، ومن المنظمات اليمينية والشركات في أمريكا وأوربا. رأوا في مانديلا عدواً رئيسياً، بينما أعَدُّوا بوثيليزي وبوثا أبطال المشاريع الحرة.

عندما جاءت مارغريت تاتشر إلى السلطة في بريطانيا عام 1979، كانت متعاطفة مع الجنوب إفريقيين البيض ـ حيث تأثرت بزوجها دينيس، الذي كان له أصدقاء جيدون في ناتال، وأصبحت معادية كلياً للمؤتمر الوطني الإفريقي الذي رأت أنه عبارة عن إرهابيين شيوعيين، يهددون قبضته الرأسمالية. وقد نصحها صديقها الخفي الأفريقاني لورينز فان ديربوست أنه في حين أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان أفراده شيوعيين Xnosa فإن الزولو كانوا شعباً فخوراً منفصلاً بقيادة بوثيليزي، قال أمين سرها الخاص تشارلز بويل «لقد أنصتت إليه بنشوة وشفتاها مفتوحتان».(48)

وفي واشنطن لم يكن رونالد ريغان «منغمساً جداً» بقضايا جنوب إفريقية (كما أشار إلى ذلك بدقة وزير خارجيته الجنرال ألكسندر هيغ). وأن تشيستر كروكر المكلف بإفريقية في وزارة الخارجية أخبر مراسلاً من جنوب إفريقية: «كل ما يعرفه ريغان عن جنوب إفريقية هو أنه إلى جانب البيض». مع ذلك، شرع كروكر بسياسة طموحة «لانغماس بناء» تهدف إلى إخراج الكوبيين من أنغولا، وإخراج الإفريقيين الجنوبيين من ناميبيا، وهذا يعني التعامل عن كثب

مع ب. دبليو بوثا ووزير خارجيته بيل بوثا، لكنه ترك المؤتمر الوطني الإفريقي جانباً كلياً؛ «كروكر لن يلتقي تامبو حتى عام 1986.»[49] ومفاوضات كروكر الهادئة دمرها مدير السي، آي، إيه المتعنت وليام كيسي الذي كان يعمل مع مستشار ريغان المقرب بات بوكانان. كان كيسي يدعم المؤامرات السرية ضد الشيوعيين عبر القارة. وفي جنوب إفريقية صادق رؤساء الاستخبارات في بريتوريا وأيد ب. دبليو. بوثا ـ حيث قدم له نسخة موقعة من كتابه.[50]

لقد تحطمت آمال المؤتمر الوطني الإفريقي بالحصول على التأييد من الدول السوداء المستقلة بسبب الفشل المتواصل لحكوماتها، وبسبب الانقلابات المتتالية والانقلابات المضادة. فعبر عقدين من الزمن عانى ثمانية وعشرون بلداً إفريقياً من الانقلابات العسكرية، وتمت الإطاحة بخمسين حكومة، استولى على البعض منها ديكتاتوريون تجاهلوا جميع الحقوق الإنسانية، أمثال عيدي أمين في أوغندة.[51] وبحلول أوائل عقد الثمانين كانت نيجيريا فقط بعائدات نفطها الضخمة وحكومة مدنية جديدة كانت الوحيدة التي ظهرت بمظهر المُشجِعة اقتصادياً.

كان رجال الأعمال الغربيون يشطبون إفريقية السوداء، في حين صورت جنوب إفريقية البيضاء نفسها على أنها الجزء الوحيد من القارة القابل للحياة والازدهار. وكان الأكثر نضجاً في روبن آيلاند يتعلمون الدروس حول مشكلات الديموقراطية من الانقلابات، والحروب، والديكتاتوريون إلى الشمال. وقرروا عدم السير في الاتجاهات ذاتها.

لكن الحرب الباردة كانت تمزق الآن السياسات عبر إفريقية بأكملها، حيث أيد الاتحاد السوڤييتي الأنظمة الماركسية في حين موّل الأمريكيون الزعماء المناوئين للشيوعية مثل موبوتو في زائير. وبذلك قدموا الأموال الكثيرة للفساد. ورأى الماركسيون في روبن آيلاند النكسات الإفريقية من خلال التدخل الأمريكي. وتطلعوا إلى الحكومة الشيوعية في الصومال ـ مثلاً ـ كشيء خيالي؛

فعندما أطاح الصوماليون بالروس عام 1977، وأتوا بالأمريكيين لم يمكنهم تصديق ذلك.[52] (شرح هاري غوالا أن الصوماليين لم يتبنوا فعلاً الماركسية ـ اللينينية، وكانت الديموقراقطية البورجوازية تمنعهم من ذلك).[53]

كان مانديلا يأمل في أن تتبخر الحرب الباردة بما أن النظامين المتنافسين اضطرا للتعاون في الفضاء وأمكنة أخرى. قال لزندزي عام 1978: «الحرب الباردة تضمحل الآن».[54] لكنها أصبحت حامية أكثر حول أطراف جنوب إفريقية بعد أن أصبح في أنغولا وموزامبيق حكومات ماركسية. وبدت موزامبيق بسرعة وفي ظل الرئيس ساموارا ميتشل حكماً اشتراكياً، لكن التكنولوجيين والمدراء البيض غادروا البلاد. وجعلت غارات الجنود المتمردين المناطق الكبيرة في حالة فوضى. وأصبحت أنغولا ساحة معركة للقوى العظمى المتنافسة: فالحكومة المركزية أتت بالقوات الكوبية في حين أيد الأمريكيون والجنوب إفريقيون جيش UNITA المتمرد التابع لجوناس سافيمبي. ومزقت أنغولا شر ممزق، كما أن المعركة من أجل البلاد استقطبت الطرفين.

معظم من في روبن آيلاند اعتبر أن السي. آي. إيه هم الأوغاد الرئيسيون، ورأى مانديلا في السي. آي. إيه عميلاً للامبريالية الأمريكية، «التي (حسبما كتب) تشجع العناصر اليمينية في كل البلدان، والتي تحاول تدمير وإطاحة الحكومات التقدمية المشروعة عن طريق العنف والتآمر والدولارات».[55] وظل يمتدح مع ذلك النظام الأمريكي الديموقراطي ـ كما جاء في كلمته في ريفونية، وعلم الرفاق الشبان عن الدستور الأمريكي وفصل القوى. لكن المناخ السائد فوق الجزيرة كان معادياً جداً للأمريكيين. قال إيريل مولوبي: «كانت أمريكا أكثر بلد مكروه، لم يتطلع أحد إلى المساعدة منهم». «كنا في إجماع في موقفنا السلبي إزاء الولايات المتحدة» قال كترارا.[56]

وبحلول آذار (مارس) 1982، كان مانديلا في السجن لما يقارب العشرين عاماً: وراقب من عزلته العالم الغربي وهو يتأرجح من اليمين إلى اليسار، ثم

إلى اليمين، منتهياً بريغان وتاتشر. معظم الحكومات نددت بالتمييز العنصري، لكن أياً منها لم تدعم بقوة السجناء أو المؤتمر الوطني الإفريقي في المنفى. وفي أثناء ذلك أظهر المقاتلون الشيوعيون في ڤيتنام وكوبا الطريق إلى الثورة المنتصرة، وكان الروس والألمان الشرقيون والماركسيون الآخرون يدربون فدائيي المؤتمر الوطني الإفريقي ويزودونهم بالأسلحة. واستمر المؤتمر الوطني الإفريقي في التطلع شرقاً أكثر من التطلع غرباً من أجل الخلاص؛ ذكرت الاستخبارات الروسية كي. جي. بي أن زعماء جنوب إفريقية السود يرون في الاتحاد السوڤييتي «القوة الرئيسية الوحيدة التي يمكن أن تساعدهم».[57]

لقد تحولت خارطة إفريقية عبر عقدين من الزمن بتراجع الامبراطوريات القديمة. كتب سيسولو عام 1976: «إن الثورة الإفريقية التي اجتاحت إفريقية طرقت أبواب جنوب إفريقية». «لكن الباب بقي موصداً».[58] وانفتح باب آخر عندما أصبحت زمبابوي مستقلة عام 1980، تاركة جنوب إفريقية ومستعمرتها ناميبيا فقط كبقية «للمعقل الأبيض» القديم. لكن الحكومات الجنوب إفريقية المتعاقبة ـ في ظل فيروورد، فورستر وبوثا ـ ردت بمزيد من البراعة والوحشية. ووجدت أصدقاء بين الدول الأخرى المنبوذة، ومجموعات اليمين في الديموقراطيات الغربية. ومع كل الاحتجاجات في شتى أنحاء العالم، كانت حكومة التمييز العنصري راسخة بقوة، والذين يعيشون في روبن آيلاند على الأقل لم يروا تصوراً سهلاً لانهيار الجدران.

23

عصيان مسلح

1982 ـ 1985

في نيسان (أبريل) عام 1982 جاء الضابط القائد لروبن آيلاند، البريغادير مونرو إلى زنزانة مانديلا ليخبره أن يجمع أغراضه لأنه نُقل من الجزيرة. رتب مانديلا المنذهل أشياءه المتكدسة في بضع علب كرتونية، ولم يكن لديه وقت ليقول الوداع. لقد نُقل مع ثلاثة آخرين هم والتر سيسولو، وريموند مهلابا، وأندرو ملانجيني ـ ليركبوا عبارة إلى كيبتاون. ونظروا إلى الوراء من مركبهم إلى الغسق على الجزيرة التي كانت موطنهم لثمانية عشر عاماً. وفي كيبتاون دُفعوا أمام حراس مسلحين إلى شاحنة ضخمة فوقها قفص تم إدخالهم إليه. وبعد إبقائهم وقوفاً لمدة ساعة من المسير، وصلوا إلى ضاحية توكاي الخضراء، المليئة بالكروم والحدائق. حيث أدخلوا إلى سجن بولسمور، وهو مجمّع ضخم بني ليتسع لـ 6,000 سجين من سجناء الصاري (المبني على العرف والعادة وليس المكتوب).[1] وبدا بولسمور من الخارج مشمساً وساراً. وفي الداخل كان عالماً تحتياً منغلقاً ذاتياً بممرات مظلمة وأبواب معدنية لها رنين تؤدي إلى صفوف من الزنزانات ذات القضبان المعدنية. وتم نقلهم إلى الطابق الأعلى، ليجدوا غرفة كبيرة بأربعة أسرة مع ملاءات ومناشف، ومرحاض خاص بهم. ومن هذه القلعة الحصينة سيراقب مانديلا قريباً بلاده وهي تندفع بسرعة إلى عنف أشد خطراً بكثير، حيث لم يكن باستطاعته السيطرة عليه.

كانت معاملة السجناء في بولسمور حضارية أكثر مما كانت عليه في روبن

آيلاند. كانت تقدم إليهم وجبات ملائمة من اللحم والخضار؛ وسمح لهم بالمزيد من الصحف والدوريات. بما فيها التايمز، والغارديان ويكلي؛ وكان هناك باحة طويلة على السطح، حيث يمكنهم الاسترخاء خلال النهار. وتمتعوا بآلات جديدة لم يروها قبلاً، بما فيها من تلفاز و(ڤيديو) ومذياع إف. إم.[2] وكان لمانديلا زنزانة منفصلة حيث بإمكانه القراءة وكتابة الرسائل.[3] وبالمقارنة مع الجزيرة بدا له وكأنه فندق بخمسة نجوم. لكنه أحس بالغربة والمزيد من العزلة. لقد فقد الرفقة والمناقشات، بل حتى قفر الجزيرة التي كانت أقرب إلى الطبيعة من هذا المجمع الإسمنتي.

عندما جاءت ويني لرؤيته بعد وقت قصير من وصوله وجدت أنه يبدو بحالة ظاهرية «جيدة جداً جداً». لقد أثر فيها البناء الأنيق للسجن، الذي يشبه مؤسسة تقنية حديثة، وتهذيب الحارس الذي كان مع مانديلا على الجزيرة وهو جيمس غريغوري. وقدّرت أيضاً الظروف الإنسانية بدرجة أكبر بالنسبة للزيارات. فهي ومانديلا يستطيع أحدهما رؤية وسماع الآخر بحال ملائمة. عبر زجاج نظيف ومكبرات صوت مسموعة. لكنها شعرت أنه بحالة معنوية أسوأ من السابق، لأنه انقطع عن أصدقائه وخضع «لمضايقة الروح».[4] وتشكّى من البرد والرطوبة في الزنزانة وفقدان أي منظر طبيعي؛ لم يكن قد رأى ورقة عشب منذ وصوله، واعتقدت ويني أن بولسمور جعل الجزيرة تبدو وكأنها فردوس.

افترض السجناء الأربعة أنهم أبعدوا عمداً عن رفاقهم بوصفهم زعماء فتنة، وتعززت شكوكهم عندما التحق بهم كاثرادا بعد بضعة شهور، وهو عضو آخر في المجموعة العليا للمؤتمر الوطني الإفريقي (حيث لم يكن ملانجيني كذلك). وبقي غوفان مبيكي الغائب الأكثر شهرة: الماركسي الرئيسي.. في روبن آيلاند اعتقد الميجور هاردينغ أن الحكومة قررت أن «أولئك الشباب حصلوا على نفوذ كبير على الآخرين. الآن يجب أن نتخلص منهم، ونعزلهم عن الآخرين». لكنه شك في أنهم تصرفوا متأخرين جداً: إذا صدّقوا خرافاتهم

obeikandi.com

بالذات عن الاضطرابات التي سببتها مجموعة صغيرة من الزعماء.[5]

المحاربون القدماء الثلاثة ـ مانديلا، سيسولو، وكاثرادا كانوا ما يزالون معاً بعد أربعة عقود، حيث كانوا ضمن حملة التحدي، ومحاكمة الخيانة ومحاكمة ريفونية لقد عرفوا بعضهم بعضاً منذ القديم. كتب كاثرادا في حزيران (يونيو) عام 1985: «بعد كل الخلافات والتوترات، كنا قادرين دائماً على حل المشكلات بنجاح وإحسان».[6] وكاثرادا الأصغر بينهم وجد أحياناً أن «الغربيين القدامى» كما أسماهم، جديين أكثر من اللزوم. فهم لا يقرؤون آندي كاب أو هاغار أو بلوندي. . . ولا يستمعون إلى البيكر سونز أو مور كامبل ووايز أو ليلي توملين، جميع شخصياتي المفضلة. ومن الجيد أنهم يشاهدون ويستمتعون بعرض كوسبي على التلفاز». لكنهم كانوا يكبرون برشاقة: «حياة السجن ربما لم تعتقل عملية الكِبَر لكن يبدو بالتأكيد أنها أبطأتها».[7]

اشتكى مانديلا عدة مرات بشأن الأوضاع المقيتة، حيث يوجد ستة في الزنزانة، والماء يتسرب عبر الأرض الإسمنتية، إن هيلين سوزمان التي كانت قد قالت مؤخراً في التلفاز البريطاني إن مانديلا يعامل معاملة جيدة نقلت شكواه إلى كوبي كويتسي محذرة من أنها ربما تضطر إلى سحب تعليقها؛ وفيما بعد زارت بولسمور ووافقت على أن الزنزانات كانت كئيبة وأن أسباب الراحة أسوأ من روبن آيلاند.[8] واستمر مانديلا في شكاواه. وبعد عام كتب محاميه إسماعيل أيوب مذكرة من سبع عشرة صفحة إلى الوزير. وبعد خمس سنوات كان ما يزال محروماً من الخروج لوقت أكبر من زنزانته. واحتج مانديلا بشدة لرئيس السجن قائلاً: «إن قسم السجناء لم يعط القضية أية أهمية».[9]

إلا أنه تأقلم في النهاية مع المحيط الجديد. كتب إلى فاطمة مير في حزيران (يونيو) 1983: «أشعر أنني بحالة جيدة، وأصغر مما أنا بعشر سنوات. والاختلاف الوحيد هو أنني لست نشيطاً كما كنت في روبن آيلاند».[10] وكتب في شباط (فبراير) 1984: «المعنويات عالية وبينما أكتب هذه الرسالة فإن الجسد

يغلي بالتفاؤل والأمل».[11] كان على علاقة جيدة مع الضابط القائد في بولسمور، البريغادير مونرو، مع أنه حصل خلاف حول مسألة الملابس، عندما لم يسمح له باستخدام قلنسوة صوفية. ناشد مونرو «أن لا تجعل مني أضحوكة بإجباري على رؤية أسرتي والممثلين القانونيين بدون غطاء رأس مناسب».[12] سمح له مونرو بإقامة حديقة على السطح، وزوده بستة عشر برميلاً قسمت من منتصفها وملئت بالتربة الجيدة. . كان مانديلا يمضي ساعتين يومياً بقبعة من القش وقفازين محولاً السطح إلى مزرعة صغيرة. حيث نما في النهاية تسعمئة نبتة مع جميع أنواع الخضار بما فيها القرنبيط والجزر.[13] كان فخوراً «بحديقة في العلو» كما أخبر ليونيل نغاكين.[14] «كان لديه نوع من الهاجس مع حديقته» كما كتب كاثرادا. «لا يمكنك تصديق مدى الوقت والطاقة اللتين كان ينفقهما على النباتات».[15]

صار مانديلا الآن قادراً على تلقي وإرسال اثنتين وخمسين رسالة في العام، كتب بيده الممتلئة؛ بأسلوب منهجي شبه ڤيكتوري، مليء بالمجاملات والذكريات والتهاني إلى الأصدقاء والأطفال، الذين كان يتذكر أسماءهم على الدوام. وتطلع إلى حياته الماضية وحاول اللحاق بالحياة الجديدة. ومن زنزانته بدا أنه يصل إلى أي جمهور انتخابي ممكن، بما في ذلك الأحرار. وسأل عن الأعضاء الماضين في مؤسسة العلاقات العرقية، مثل صديقه من سوويتو وجاره بارني نغاكين؛ السيدة كوينتين وايت، التي علمته اللاتينية في هيلدتاون؛ وإلين هيلمان التي جمعت مبالغ من أجل محاكمة الخيانة.[16] لكنه كان مهتماً بالكنائس التي كانت تتحول إلى سياسية أكثر فأكثر. وهنأ ديزموند توتو على تعيينه أسقف جوهانسبورغ. وكتب إلى الميثودي بيتر ستوري متذكراً منبراً على جانب الطريق. رآه قبل أربعين عاماً خارج القاعة الميثودية المركزية قائلاً: «إن أعظم ما في الحياة ليس في عدم السقوط بتاتاً، بل في الوقوف بعد كل سقوط». وتذكر أيضاً كيف أن قسيساً في روبن آيلاند وصف قديساً بأنه

«خاطىء يستمر في المحاولة».[17] وكتب إلى ستيفن نايدو نائب الأسقف الكاثوليكي في كيبتاون، متذكراً لقاءه مع الأسقف كلايتون[18]، وكتب إلى الشيخ جابر الرئيس الناشط للمجلس القضائي الإسلامي عن كيفية تعريفه بالإسلام لأول مرة من قبل زعماء المؤتمر. وأدرك مدى أهميته الكاملة عندما تجول في إفريقية عام 1962. لقد قرأ القرآن بالإنكليزية في السجن، إضافة إلى كتب عن الإسلام.[19] وكتب إلى الأخت برنارد نكوبي وهي راهبة كاثوليكية سياسية كانت تسجن بين وقت وآخر. ذاكراً كيف أنه يتطلع إلى الفيلم القادم (الملك داود) وأنه مسرور لأن السير ريتشارد أتينبورو كان يصنع فيلماً عن غاندي.[20]

لقد تاق إلى المزيد من الرسائل. واشتكى ليكبو مكنتان صديقه في الترانسكي، من أنه لا يكاد يوجد رجال يستطيع التراسل معهم. والقلائل الذين ما زال من الممكن الاتصال بهم يبدون غير واعين بتاتاً لحقيقة أن الرسائل يجب أن يجاب عليها. وبالمقارنة، برهنت النساء على أنهن مراسلات أفضل بكثير، وأكثر إدراكاً لاحتياجات السجناء.[21] وكان سريع الغضب في وحدته؛ كتبت أمينة كشاليا واصفة كيف أن زوجها يوسف الرئيس السابق للمؤتمر كان ينجح في مجال الأعمال، وأجابها مانديلا بتعليق عن الـ ringing till الذي اعتبره يوسف توبيخاً، وكتبت أمينة مجدداً وبتفهم: «من الواضح أن جعبتك مليئة بالأخبار، وأن الرجل الشريف الذي بداخلك يضطرك لأن تكشفه لي». وترجمت شعراً بلغة الأوردو استشهد به يوسف:

راقب الشمس الطالعة

واشهد بريق نقائها الشفاف

المختفي وراء الستار

لكن مانديلا اشتكى بحزن من رسالة أمينة الباردة: «هناك كتلة جليدية في

داخلي لا يمكن أن تذيبها إلا رسالة منك». وأكد لها أنه يوافق على عمل يوسف: «حتى في المجتمعات التي لا يكون فيها هدف الاستفادة هو الموضوع السائد في النشاط الاقتصادي، فإن مدراء الأعمال يسعون مع ذلك ليوم عمل جيد». واختتم بحزن متمنياً لو كان معهم فقط، «لكنت عانقت ببساطة يوسف وقبلتك». كان هذا تذكيراً مؤثراً بالحاجة للاتصال الملموس في العلاقات. وبعد خمس سنوات كان مانديلا ما يزال يرجع إلى التوبيخ؛ لم يكن يجرؤ على السؤال عن «الحانوت»، كما كتب، «خيفة أن تحصل ضربة لسانية أخرى واستشهاد قاس لشاعر من الأوردو... في عزلة زنزانة السجن فإن التوبيخ من زوجين محبين ربما يكون مؤلماً كسهم يغرز في القلب».[22] لكنه أظهر وجهاً جريئاً مقداماً بعد عقدين في السجن، في رسائل عرف أن المراقب سيقرؤوها. أخبر كيبو مكينتين: «لو كنت مضطراً سأكون على استعداد لتمضية واحد وعشرين عاماً أخرى بدون أي أسف، فأنا روحياً أعيش بعيداً جداً خارج تلك الجدران، وأفكاري لا تكاد تكون في الزنزانة».[23] قال لبارني نغاكين: «كونك مسجوناً وراء القضبان لاثنين وعشرين عاماً هو بأي مقياس تجربة تمزيقية يفقد فيها المرء جميع مباهج كونه حياً.. لكن كما تعلم، فإن الإنسان لديه قدرة مذهلة على التأقلم، والاعتياد، في الوقت المناسب، على بعض الأوضاع التي لا تصدق».[24] وقال لصديق آخر: «لو كان بإمكاني التكهن بكل ما حدث منذ ذلك الوقت، لاتخذت بالتأكيد القرار ذاته، لكن القرار الذي سيكون أرهب بكثير، وبعض المآسي التي تلت ذلك، ستذيب أي أثر من آثار القوة الفولاذية في داخلي».[25]

كانت زيارات ويني ورسائلها ما تزال الخط الحيوي الرئيسي لدى مانديلا. قال لها في آذار (مارس) 1983: «كنت تبدين جذابة بشكل ساحر حقاً في ثوبك خلال زيارتك الأخيرة. ورسائلك هي أكثر من منشّط. أشعر بأنني مختلف في كل مرة أسمع منك». حتى إنه كان يستمتع بمداعباتها «التي

أصبحت جزءاً من حياتنا، حبنا المتبادل، وسعادتنا». وقال لها بعد عامين: «هناك أشياء ثمينة تستحق العناء. وعلى رأسها بلادي المحبوبة وأمي الحبيبة».[26]

لكنه كان بحاجة إلى الأصدقاء أيضاً، قال لصديقته الهندية أديلايد جوزيف في لندن: «لتقدير قيمة الصداقة يجب أن يكون المرء في سجن، وبعيداً عن الزوجة المحبوبة والأبناء». وأضاف أنه عندما لم يستطع مساعدة أسرته في مشكلاتها «فإن الحياة أصبحت تعذيباً بكل ما في الكلمة من معنى».[27] وكتب إلى صديق أمريكي؛ آرثر غليكمان وهو في مزرعته في ماين: «في العد النهائي فإن مصادر المرء الداخلية، والثقة بأن له مليون صديق، هي التي تعطي الإيمان والتأكد بأنك تقوم بواجبك حتى وراء الجدران الكئيبة. أتمنى لو أكون في تلك المزرعة».[28] لقد استمد دوماً القوة من ذكريات نشوئه في بلده. «إن الفتى الريفيَّ بداخلي يرفض الموت، على الرغم من السنين الكثيرة من التعرض للحياة المدينية». كتب إلى إيفي شولتز عام 1986: «إن المرج المنبسط والأغصان والعشب والحياة الجسدية تجعل الحياة شيئاً ممتعاً حقاً».[29]

كان يندب موت الأصدقاء، لا سيما أمثال يوسف دادو وروث ڤيرست ممن ضحوا بأنفسهم في سبيل النضال. كتب إلى ابن بارني نغاكين وهو ليونيل في لندن: «العالم الذي عرفناه جيداً في وقت من الأوقات يبدو وهو يتداعى بسرعة. كنا مشغولين جداً خارج السجن، بحيث لا يكاد يتوفر لدينا الوقت للتفكير بجدية بالموت. لكن يجب أن تحبس في زنزانة سجن مدى الحياة لتقدر الحزن القاتل الذي يلفك عندما يدق الموت بابك».[30]

صار بإمكانه الآن أن يقرأ بغزارة أكثر. حيث هو أقل تقيداً بالمحتوى السياسي. كان لديه أربعة مجلدات من كتاب جي. دي. بيرنال: «العلم في التاريخ» وكتاب وشابيرا «الحكم والسياسات» وكتاب شورمان وشل «الصين الجمهورية» وكتاب سمير أمين «الاستعمار الجديد في إفريقية الغربية».[31] وفي

أيار (مايو) 1985 أخبر صديقاً له بأنه يقرأ «السياسات السوداء في جنوب إفريقية منذ 1945 لتوم لودجز. و«وقت أطول من الأصل» لإدي روكس. و«من الاحتجاج إلى التحدي» لكاريس وكارتر. وهي الكتب التي تم تهريبها إلى السجن من قبل كاثرادا.[32] وسره سماع أن ماردي بنسون كانت تكتب عن تاريخ المؤتمر الوطني الإفريقي: «ما نزال مسحورين بالأدب اليوناني للأزمنة القديمة. وعمل حول آ. جي. إل [الوثولي] أو تشيكيدي [خاما] ربما يثير اهتماماً مجدداً بعد أن تم إنقاذ ثمرة الجهد... قراءة الفجر أصبحت من ظواهر حياتنا، لا سيما خلال السنوات السبع والثلاثين الأخيرة، بحيث إن جهود جميع أولئك الذي اختصوا بهذا الموضوع لم تكن عبثاً».[33] كان بحاجة إلى الاسترخاء ـ كما قال لأديلايد جوزيف ـ «بصيغة روايات وسير ذاتية».[34] لكنه فضل الروايات السياسية. واستمتع برواية نادين غارديمر 1979 ابنة بيرغر، التي كانت قائمة جزئياً على صديقه برام فيشر، وكان مطمئناً لتورط غارديمر السياسي المتنامي: قال عن هيلين جوزيف: «لقد أصبحت مبلِّغة معلومات قوية وجريئة تصل رسائلها إلى ما وراء الآفاق المرئية، كم من الفتيات يعتبرون اليوم ثمينين مثلها[35]!».

لكن كلما ازداد مانديلا نهلاً من العالم الخارجي، كلما ازداد إحباطه لانقطاعه عن أي انغماس، وقد أصبحت بلاده أقرب إلى الحرب الأهلية: وازداد هذا الشعور منذ أن أصبح المؤتمر الوطني الإفريقي الآن يستعرض عضلاته أخيراً ويضع اسمه وزعامته موضع التنفيذ.

وحملة «أطلقوا سراح مانديلا» التي كانت قد بدأت في آذار (مارس) 1980 أصبحت تبرهن عن فعاليتها بنشر قضية المؤتمر الوطني الإفريقي. وكما قال غوفان مبيكي فيما بعد، كانت «الإشارة الواضحة إلى أن المؤتمر الوطني الإفريقي قد عاد إلى مركز المرح السياسي بالذات». وأعلن تامبو عام 1980 عن «عام ميثاق الحرية».

بعد خمسة وعشرين عاماً على إعلانه ـ وبدأ كاتبوا الميثاق بالظهور

مجدداً، حيث التزموا بديموقراطية غير عنصرية. وفي العام التالي شُنت حملة «ضد الجمهورية» في الذكرى العشرين لقيام الجمهورية. وأصبح السجناء الذين أطلق سراحهم من روبن آيلاند يلعبون أدواراً رئيسية على أرض الوطن. وقبل اغتياله في هراري عام 1981، أسس جوي غابي «مجموعة دراسات» في سوويتو ضمت العديد من الناشطين السود الواعين من روبن آيلاند، ومن بينهم بوبو موليفي، إريك مولوبي وميرفي موروبي. وفي دوربان كان الشبان الهنود والإفريقيون يخططون لعمل جماعي يشجعهم ماك ماهاراج الذي أصبح الآن مسؤولاً عن «إعادة البناء السياسي» للمؤتمر الوطني الإفريقي في لوساكا. وجاءت روح التمرد إلى عقد الثمانين من المجموعات السياسية المنفصلة، بمن فيها من الشيوعيين السود الواعين ورجال الكنيسة. لكن تامبو في لوساكا صمم على أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يضم أوسع جبهة ممكنة، وأن «يضع تحت مظلته الثورية جميع الحلفاء الفعليين والضمنيين، وأن ينشّط ويسيّر ويوجه ويقود الجميع في هجوم موحد ضد العدو».(36)

وحرض تحول خاطىء على المزيد من التمرد اتخذه ب. دبليو. بوثا عام 1982. بعد وقت قصير من وصول مانديلا إلى بولسمور. واقترح بوثا تغيير الدستور الجنوب إفريقي بحيث يسمح للهنود والملونين بانتخاب ممثليهم بالذات في البرلمان، لفصل البرلمانات التي لديها سلطة اقتراع على التعليم والإسكان والإنعاش. لكن الإصلاحات استبعدت الإفريقيين، الذين سيبقون بدون اقتراع. كانت حركة تهدف بوضوح لتقسيم الشعب غير الأبيض، لكن كانت لها النتيجة المعاكسة، مؤدية إلى دعوات جديدة لجبهة موحدة من جميع العروق والأحزاب، لا سيما من المؤتمر الوطني الإفريقي. وأعلن تامبو أن عام 1983 هو «عام العمل الموحد». ودعا إلى «جبهة واحدة للتحرير الوطني».

كان الملونون الموجودون في كيبتاون هم الذين قدموا الاحتجاج الجديد المفاجيء إلى حد كبير. إذ كانوا تقليدياً محافظين على الدوام، يتطلعون نحو

مانديلا يقابل أوليفر تامبو المنفي في مؤتمر في أثيوبية سنة 1962.

في القيادة العسكرية في الجزائر. التقى مانديلا وروبرت ريشا بالقادة الثوريين واستمع إلى نصائحهم حول حرب العصابات.

زير النساء الوسيم مع زوجته الشابة الجميلة ويني.

كُرْبَرَةُ الثعلب السوداء الملتحي.

الأمير الكروسي يرتدي الزي القبلي لمحاكمته في سنة 1962.

تمثال نصفي (أوسع من الحياة) لمانديلا في الضفة الجنوبية للندن يكشف الستارة عنها أوليفر تامبو سنة 1985.

obeikandl.com

مانديلا يخرج من السجن وقد وضع يده بيد ويني.

إل لقاء بين المؤتمر الوطني الإفريقي والحكومة في أيار (مايو) سنة 1990.

البيض أكثر من السود؛ وأغري الكثير منهم بالدستور الجديد، لكن الزعماء السود ذوي البصيرة الأبعد صمموا على مقاومة تقسيم صفوف أعداء التمييز العنصري، والالتحاق بالإفريقيين وضموا عضواً جديداً مفاجئاً لم يكن مانديلا لينسى شجاعته.

أصبح الكاهن آلان بويساك، وهو واعظ في الفرع الملون لكنيسة الإصلاح الهولندية أصبح مؤخراً رئيس التحالف العالمي للكنائس الإصلاحية. وهو اللاهوتي في السابعة والثلاثين فقط، وذو الصوت المرتفع، سيتبين سريعاً أن لديه Expensive tastes، أخلاقية شكوكية خاصة؛ لكنه كان خطيباً لامعاً، يقارن كثيراً بمارتن لوثركينغ، وكان فصيحاً في الدفاع عن الحقوق الإنسانية. ودعا لأول مرة «لجبهة موحدة». في اجتماع كبير في جوهانسبورغ في كانون الثاني (يناير) عام 1983. الكلمة كانت بادىء الأمر على انفراد، إلا أنها أطلقت رداً فورياً من جانب الناشطين، الذين شكلوا لجنة توجيهية من جميع العروق ومجموعات كثيرة مختلفة بما فيها لجنة «أطلقوا سراح مانديلا». وبينما سارت حكومة ب. دبليو. بوثا حثيثاً في خططها من أجل البرلمان الـ trice a meral. فإنهم صعدوا احتجاجاتهم. وفي 20 آب (أغسطس) 1983، قبل بضعة أيام من مناقشة البرلمان الأبيض للمقترحات، كان لديهم اجتماع جماهيري في سهل ميتشل وهو الضاحية الملونة في كيبتاون لإنشاء منظمة جديدة: الجبهة الديموقراطية الموحدة. وكانت المتحدثة في الافتتاح عضواً قديماً في المؤتمر الوطني الإفريقي، فرانسيس بارد التي ذكرتهم بكلمة ماكميلان «رياح التغيير» قبل عشرين عاماً، قالت إنها تستطيع الآن أن تستشم «هواء الحرية» وهو يكتسح إفريقية، وطالبت بإطلاق سراح «زعمائنا».[37] وقُرئت رسالة من مانديلا في بولسيمور، الذي سميّ أحد أنصار الحركة. لكن الكلمة المثيرة بدرجة كبيرة كانت من قبل بويساك الذي أكد «الحقوق التي منحها لله» للشعب؛ «نحن نريد جميع حقوقنا، نريدها هنا ونريدها الآن».[38] وسمع سيسولو عن الحدث

بسرور من ولده زويلاخي، الذي زاره في اليوم ذاته. «كان رابطاً بين المنفيين والشعب في البلاد».[39]

كانت مساعدة المؤتمر الوطني الإفريقي للجبهة الديموقراطية الموحدة تناقش في معظم الأجيال، لكن كان له نفوذ واضح على زعامة الحكومة».[40] فالرؤساء الثلاثة المشتركين كانوا من أبناء المؤتمر الوطني الإفريقي: ألبيرتينا سيسولو، زوجة والترز من جوهانسبورغ؛ أوسكار مفيشا، وقد أطلق سراحه من روبن آيلاند من الكاب الغربي. وآرشي غوميد من ناتال. وبوبو موليفي وتيرور ليكوتا اللذين أطلق سراحهما من روبن آيلاند عام 1982، انتقلا من الوعي الأسود إلى المؤتمر الوطني الإفريقي، وأصبحا أمين سرٍ عاماً وأمين سر للنشر قبل أن يعاد اعتقالهما.

وضعت الحكومة الدستور الـ «tricameral» الجديد أمام الاستفتاء للناخبين البيض في تشرين الثاني (نوفمبر) 1983. وعارضه زعماء الأعمال القلائل، بمن فيهم هاري أوبنهايمر «من الأنكلور أمريكان»، وبعض السياسيين التحرريين البيض بمن فيهم فان زيل سلابيرت من الحزب التقدمي، والذي تكهن بأنه سيعادي الإفريقيين. لكنه لقي التأييد من معظم رجال الأعمال، والصحف ذات النفوذ الصادرة بالإنكليزية وهي الصنداي تايمز والفانينشال ميل. وسعى السفيران البريطاني والأمريكي إيوين فيرغسون وهيرمان نيكل وراء «خطوة في الاتجاه الصحيح».[41] وفي أثناء ذلك اقترع 76٪ بقول نعم للدستور الجديد، وهذا نصر لبوثا.

كان قد عُين بوظيفة رئيس دولة، مشرفاً على البيض والهنود والملونين. في حين شعر الإفريقيون أنهم معزولون أكثر من السابق.

وبعد ذلك بوقت قصير حقق بوثا نصراً ديبلوماسياً على المؤتمر الوطني الإفريقي بتوقيعه معاهدة عدم اعتداء مع الرئيس سامورا ميتشل، في نكوماتي في موزامبيق المجاورة، وهذا ما عزل بالتالي قواعد المؤتمر الوطني الإفريقي.

وبدت صور ميتشل القصير إلى جانب بوثا الطويل وكأنها ترمز إلى انتصار القوة المتنحرة في بريتوريا، وتسدد ضربة قاصمة للكفاح المسلح الذي «أدهش العالم التقدمي» (كما عبر المؤتمر الوطني الإفريقي)؛ لكن المعاهدات ساعدت في تركيز جهود المؤتمر الوطني الإفريقي على التمرد الداخلي. قال عالما الاجتماع هيريبرت آدم وكوجيلا مودلي: «إن هزيمته الديبلوماسية في نكوماتي تحولت إلى نصر نفسي في الوطن».[42]

سمع مانديلا عن تلك النكسات مع كل إحباطات عزلته. ورأى أن بوثا يتظاهر بإصلاح التمييز العنصري في حين كان يوسعه فعلياً فصل الهنود والملونين عن الإفريقيين. ورأى في المجالس الجديدة «هواتف دمى» جديدة مثل المجلس التمثيلي للسكان الأصليين[43]، لكنه شعر بالارتياح بالنتيجة الصغيرة لغير البيض بالنسبة إلى انتخابات Tricameral في آب (أغسطس) 1984: فقط 31٪ من أصوات الملونين المؤهلين للانتخاب، و20٪ فقط من الهنود. وبدا البرلمان مسرعاً في توحيد الناشطين بدلاً من تفريقهم. وتعرض زعماء الجبهة الديموقراطية الموحدة إلى الاعتقالات والاحتجاز والاغتيالات، لكنهم وقفوا يداً واحدة، وأظهر بنيانهم غير المتماسك وغير المركزي مدى فائدته. لأنه في الوقت الذي أزيلت فيه الطبقات العليا، فإن المجموعات المحلية والنوادي الصغيرة كانت تقدم البديل باستمرار. وقال والتر سيسولو فيما بعد إن تأليف الجبهة الديموقراطية الموحدة «حوّل المد جذرياً ضد ما يحرزه نظام ب. دبليو. بوثا من تقدم».[44]

من عزلته في السجن، أصبح مانديلا قريباً أكثر من التطورات، لأنه سمح له بالمزيد من الزوار. وارتاب في أن بوثا ووزارته كانا يستخدمان أولئك الزوار «لاختبار المياه»، لكنه هو بالذات يستطيع استخدامهم لإظهار قوته وعقلانيته أمام جماهير مختلفة من الناخبين، كما بإمكانه اللحاق بما يحدث في العالم.

استطاع التواصل مع الصحفيين عندما زاره في آب (أغسطس) 1984

بنجامين بوغراند من الراند وايلي ميل (اعتبره مانديلا «مدير أعمال ملتصق بمكتب أنيق» في مين ستريت). لكن لم يسمح له بالإخبار عن الزيارة. لم ير بوغراند مانديلا منذ عشرين عاماً. وفوجىء لأنه وجد شعره مبيَضّاً، رمادياً كلياً، ووجهه مغضناً جداً. مع شقوق عميقة تمتد من أنفه إلى فمه. في حين بدت عيناه شبه مثبتتين. لكن ذهنه كان متوقداً جداً؛ كان مهتماً بكل شيء بدءاً من أرملة روبيرت سوبوكوي حتى نقل الصحف إلى الحاسوب. أغلق أصحاب صحيفة ميل تلك الصحيفة بعد وقت قصير، لكن مانديلا كتب إنه واثق من أن تراثها سيبقى حياً.[45]

استطاع التواصل مع المسيحيين، عندما زاره في تشرين الأول (أكتوبر) 1984 البروفسور هارفي فاندير ميروي، وهو صاحب من جامعة كيبتاون صادق ويني وكان ملتزماً بالمصالحة السياسية. وذهل فاندير ميروي بالشعور بالقوة الذي كان لدى مانديلا. والذي انعكس حتى عبر الزجاج السميك: «في عينيه، وملامحه والطريقة التي ينحني فيها قليلاً إلى الأمام وكأنه يبعث برسالته إلى الوطن، وصوته، ونغمته وميوله، واختياره للكلمات والدفء العميق ـ الابتسامة، التحيات، الامتنان المتكرر». وبعد أن امتدح البروفسور الرئيس كينيث كاوندا رئيس زامبيا امتداح مسيحي مخلص، سأل مانديلا بصراحة: «هل أنت مسيحي؟» أجاب: «بالتأكيد»؛ وأكد الحارس جيمس غريغوري أنه لم يكن يغيب عن وقت الصلاة. وغادر فاندير ميروي السجن وهو واثق من أن «هذا الرجل سيشارك في النهاية في حكم بلاده في المستقبل القريب. يجب أن نصلّي من أجل ذلك».[46]

كان بإمكانه التواصل مع المحافظين البريطانيين عندما زاره في كانون الثاني (يناير) 1985 اللورد بيثل، وهو نبيل جليل (ذكّر مانديلا بتشرشل). كانت الحكومة تأمل بوضوح بأنه سيكون متعاطفاً مع مواقفها. وفوجىء بيثل «عندما حضر إلى الغرفة برجل طويل بشعر فضي، وقميص أنيق أخضر بلون الزيتون، وبنطال مخطط جيداً بلون البحرية الأزرق، هز يدي وحياني بلغة إنكليزية

صحيحة وحضارية». كان يمكن له أن يكون جنرالاً بين موظفي السجن: «كان تصرفه بالتأكيد يبرهن على أنه الأكثر ثقة بنفسه بين الجميع. وكان أسود مع ذلك». وأكد له مانديلا أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان يكبح الكفاح المسلح، وأسف بعمق لقنبلة قتلت مدنيين أبرياء في بريتوريا قبل عامين. كان مهتماً بنجاح مارغريت تاتشر، وبنيل كينوك، زعيم العمال. وعرض لبيثل حديقته من الخضار - «مثل مالك الأرض الذي يريني مزرعته» - وامتدح أحد الضباط «كجنيناتي ممتاز فعلاً». وبعد لقائهما لساعتين من الزمن «شعر بيثل بالحزن لأنه حرم فجأة من صحبة الرجل الرائعة». وأخبر السيدة تاتشر إيجابياً، لكنها بقيت غير مؤيدة للدعوات لإطلاق سراح مانديلا بلا شروط. وكتب مانديلا إلى بيثل في نيسان (أبريل)، سائلاً عن ارتباطات السيدة تاتشر مع كل من غورباتشيف وريغان، لكن الرسالة لم تصل بتاتاً، وأُبلغ بيثل أن «كتاباً من السيد مانديلا ربما يلقى التأجيل».[47]

كان بإمكانه التواصل مع الأمريكيين عندما زاره بعد ذلك بفترة قصيرة البروفسور سام داش من جامعة جورجتاون الأمريكية. ودُهش داش أيضاً لنبله: «شعرت أنني بحضرة رئيس دولة وليس مقاتلاً فدائياً أو أيديولوجياً متصلباً». مانديلا، «بلهجة بريطانية لطيفة»، منتقد جداً وبصراحة الإصلاحات التي وعدت بها الحكومة، بما فيها إلغاء القانون الذي يمنع الزواج المختلط: «أنتم تتحدثون عن ملاحظة طفيفة. بصراحة أنا لا أطمح إلى الزواج بامرأة بيضاء أو السباحة في بركة بيضاء». أكد لداش أن المؤتمر الوطني الإفريقي قبل أن البيض ينتمون إلى جنوب إفريقية: «نريدهم أن يعيشوا هنا معنا، ويشاركوا في السلطة معنا».[48] كان تواقاً إلى المشاركة، وقلقاً (كما كتب لداش فيما بعد) بشأن الخسائر التي لم يسبق لها مثيل في الأرواح: «أنا على استعداد لأن ألعب دوري في السعي لتهدئة الوضع، والتفاوض حول ميكانيكية نقل السلطة إلى الإفريقيين الجنوبيين جميعاً».[49] لكن الشرطة الجنوب إفريقية كانت تراقب عن كثب مراسلي مانديلا: فحتى عندما كتب البروفسور داش رسائل شكر غير مؤذية إلى

هيلين سوزمان وجون دوغارد لكرمهما، فإنها أوقفت سراً (op'n deli Kate Wyré) من قبل فرع خاص وقُدمت إلى رئيس الوزراء مع مذكرة سرية جداً من المفوض، الجنرال وايليمس.[50]

صارت الاحتجاجات والعنف تتصاعد الآن يحثها شعور خاص بالتحدي. فإبعاد السود عن الانتخابات الـ Tricameral حرض على المقاومة في الدوائر الانتخابية ـ لا سيما ضد تعليم البانتو، ودفع الإيجارات. وتعززت الاحتجاجات من قبل الجبهة الديموقراطية الموحدة؛ لكن الانفجارات المحلية المزامنة للغضب كانت تنتشر عبر البلاد. والفكرة القديمة للمؤتمر الوطني الإفريقي ـ أبقوا بعيداً ـ تم إحياؤها مع بعض النجاح، ولا سيما في مثلث فال جنوب جوهانسبورغ. وبدت الحكومة وهي تفقد بسرعة أي تأييد أسود، واضطرت لاستدعاء القوات للسيطرة على الدوائر الانتخابية. قالت ويني مانديلا في السنة الجديدة: «إن الأمور تسير بسرعة، إنهم يفقدون السيطرة».[51] إلا أنها ستبرهن هي ذاتها على أنها أحد العناصر الأكثر فقداناً للسيطرة عليها. لم يستطع زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي تحمل التخلف وراء الجماهير ـ كما فعلوا في الماضي ـ وكانوا يراقبون التطورات عن كثب. وفي مطلع كانون الثاني (يناير) 1985، أصدر تامبو رسالة (دراماتيكية) بمناسبة رأس السنة: «اجعلوا جنوب إفريقية فاقدة للسيطرة». وادعى أن المؤتمر الوطني الإفريقي «قد اتخذ فعلاً اتجاهات مؤثرة» نحو هذا الهدف.[52] ووافق سجناء بولسيمور على رسالة تامبو، لكن كانت هناك مخاطر في سياسة كهذه بالنسبة لحزب ـ بدا الآن ـ أن عليه أن يحكم قبل مرور وقت طويل. وكما تذكر سيسولو: «لقد أقلقني ذلك، استراتيجية اللاقدرة على الحكم: المظهر السلبي ـ والناس أصبح لديهم أطواق(*)، وأشياء كهذه أعتقد أنها سلبية جداً وخطيرة. . . أعتقد أن ماديبا شارك في ذلك».

(*) «سلاسل العنق» Necklacing وهو تثبيت إطارات مملوءة بالنفط حول عنق الضحية وإضرام النار فيها، وهذا من خصائص أعمال العنف.

أثناء ذلك، لم ير السجناء أي بديل حقيقي لسياسة جعل جنوب إفريقية لا سبيل إلى السيطرة عليها. تذكر سيسولو: «كان الموقف دولياً مؤيداً لنا إلى حد كبير. فإذا لعبنا أوراقنا جيداً فلن يكون هناك سبب يجعلنا نخسر».[53] وانتقدت (استراتيجية) من قبل الأحرار البيض ورجال الأعمال. هاري أو بنهايمر الرئيس السابق للأنغلو ـ أمريكان، توصل إلى اعتبارها أخطر خطيئة يرتكبها المؤتمر الوطني الإفريقي.[54]

في تلك الأثناء، جمعت الحملة لإطلاق سراح منديلا الزخم. وشعر الرئيس بوثا أنه مضطر لرد ما، وانتهز الفرصة لعرض نفسه كصانع سلام. وبينما كان يتجول في أوربا شجعته مجموعة من الزعماء الألمان اليمينيين بمن فيهم فرانز جوزيف شتراوس ـ وهو صديق جيد للأفريقانيين ـ على عرض إطلاق سراح مانديلا شريطة أن يرفض جميع أنواع العنف. كان هذا حلاً لامعاً، كما أخبر مجلس الوزراء لدى عودته، «لأنه إذا رفض مانديلا ذلك فإن العالم بأكمله سيتفهم لماذا لم تطلق سراحه حكومة جنوب إفريقية». وحذره كوبي كويتسي ولويس لاغرانج وزيرا العدل والأمن والنظام من أن مانديلا ربما لا يستطيع التخلي عن أقوى ورقة مساومة لديه.[55]

في 31 كانون الثاني (يناير) 1985 أبلغ بوثا البرلمان أنه يعرض الحرية على مانديلا، شريطة «أن يرفض بدون قيد ولا شرط العنف كأداة سياسية». واستدعي مانديلا إلى المكتب في بولسيمور ليُعطى نسخة من هانسارد حول ذلك. كان مصمماً على تقديم رد علني، وفي المساء ذاته أعد بعناية كلمة رفضت العرض في حين أبقت الاختيار مفتوحاً أمام المفاوضات، واستبعدت أي إيحاء بحدوث انقسام داخل المؤتمر الوطني الإفريقي. أعطى الرد لويني عندما زارته بعد ذلك، وقرأته ابنته زندزي في 10 شباط (فبراير) في مدرج جوبيلاني الضخم في سوويتو، مبتدئة بكلمات: «أبي يقول...». أكدت الكلمة بشدة ولاء مانديلا للمؤتمر الوطني الإفريقي، وإلى تامبو «أعظم صديق

لي» وأصرت على أن بوثا هو الذي يجب أن يشجب العنف من خلال تفكيك نظام التمييز العنصري وإلغاء منع المؤتمر الوطني الإفريقي، وذلك قبل أن يقبل مانديلا بالحرية: «لا أستطيع ولن أستطيع تقديم أي تعهد في وقت عندما تكونون ـ أنتم الشعب ـ غير أحرار».[56]

كانت هذه المرة الأولى منذ أكثر من عقدين التي تُسمع فيها كلمات مانديلا علناً، رابطاً سياساته بالمؤتمر الوطني الإفريقي والجبهة الديموقراطية الموحدة. كان الحشد الضخم في ابتهاج غامر. وراقب تيرور ليكونا الذي أطلق لتوه من روبن آيلاند المشهد بتعجب: «أتذكر عدة مجموعات من المسنين جداً الذين يتكئون على العصي، يتجهون بتصميم إلى حافة المسرح المفتوح؛ هذا ما كتبه لابنته، وبعد أن تحدثت زندزي مضى العديد منهم بوجوه تبللها الدموع: «لقد سمعوا ما أرادوا سماعه».[57] وسُرّ تامبو للطريقة التي استقبلت بها الكلمة. وكتب إلى مانديلا عن طريق أديلايد بشيفرته مسمياً المؤتمر الوطني الإفريقي «الكنيسة» ومانديلا «أسقف ماديبين». وامتدح «الرسالة اللامعة والمحفزة التي انتشرت من حشد إلى آخر. . . كانت فيها لمسة توحيد قوية، وعكست درجة مثيرة من طبيعة الموقف إزاء الطريق المتغير دوماً لعالم المترددين على الكنيسة».[58]

بدا الأمر وكأنه ورطة تامة. لكن تبين أن بوثا لم يكن متصلباً مثلما ظهر في العلن. فبعد وقت قصير من كلمة زندزي استدعى وزير العدل كوبي كويتسي إلى مكتبه وأبلغه (حسب قول كويتسي): «تعلم أننا وضعنا أنفسنا في الزاوية. هل يمكنك إخراجنا؟».[59]

أثناء ذلك، كان مانديلا ما يزال في السجن. وقد تضاعف العنف ووصل إلى ذروة جديدة في آذار (مارس) 1985، في الذكرى الخامسة والعشرين لمذبحة شاربفيل، عندما قتلت الشرطة في يوتنهاج تسعة عشر من المحتجين. وفي مؤتمر المؤتمر الوطني الإفريقي في كابوي في زامبيا بعد ذلك بثلاثة أشهر

حذر تامبو من أن العنف سوف يتصاعد، وأن المؤتمر الوطني الإفريقي سيلاقي صعوبة أكبر في التفريق بين «القاسي» و«اللين» من الأهداف. لم يدع إلى انتفاضة شاملة (كما شرح فيما بعد)، لأنه عرف أنه لن يمكنه تحقيق ذلك؛ لكنه حذر من أن رجال الشرطة السود يجب أن يستعدوا لتحويل بنادقهم ضد أسيادهم.[60]

أصبحت جنوب إفريقية فاقدة السيطرة أقرب بكثير إلى التصديق، لكنها خطيرة أيضاً على الطرفين. وتمت مواجهة إرهاب الشرطة والتعذيب من قبل الناشطين من الشباب السود بتوسيع إرهابهم المضاد ضد الشرطة السود والمخبرين المشبوهين. بما في ذلك استخدام «الطوق» الشهير برداءته. ووصفت بريتوريا العنف بأنه، «الأسود ضد الأسود»، لكن العديد من أسوأ الأعمال الوحشية ظهر فيما بعد أن عملاء الحكومة هم الذين خططوا له. فمثلاً ضربت شابة اسمها ماكي سكوزانا وأحرقت حتى الموت في تموز (يوليو) 1985، من قبل مؤيدي المؤتمر الوطني الإفريقي كما قيل. وبعد مضي عدة سنوات ظهر أن قتلها كان جزءاً من عملية حكومية موسعة لاستخدام العصي القذرة، وجعلها مسؤولة عن المئات من الوفيات.[61]

كانت الحكومة أيضاً ما تزال تستخدم كايسر ماتانزيما لمحاولة إقناع مانديلا بأن يطلق سراحه إلى الترانسكي. ووجد مانديلا أن إلحاح ابن أخته «مدعاة إلى قلق كبير إن لم يكن استفزازياً». وحذره في كانون الأول (ديسمبر) 1984 من أنه إذا استمر في ذلك فإن ذلك سيؤدي إلى مواجهة غير سارة: «لن نقبل ضمن أية ظروف بإطلاق سراحنا إلى الترانسكي أو أي بانتوستات آخر»[62] وشعر مانديلا بالحزن للخلاف مع رجل اعتبره بطلاً في وقت من الأوقات. وأخبر فاطمة مير بعد ذلك بشهرين «ما نزال قريبين جداً أحدنا من الآخر. لكن شيئاً ما اشتعل في داخلي عندما تحول نحو الـ Nats. مما لا شك فيه أن السياسات مزقت العائلات، والبطل، والمتعبد».[63] عام 1985 رفض مانديلا

obeikandi.com

زيارة من قبل ماتانزيما، الذي اشتكى من أنه أهين إهانة فادحة. لكن مانديلا حذره مجدداً بوجوب عدم استخدام علاقتهما لجعل المؤتمر الوطني الإفريقي ينغمس في سياسات البانتوستات: «إن شخصية شهيرة "كثوري خطير" كما وصفتها أو مجرد زعيم بانتوستات يسمح بتشويه صورته إلى حد كبير عن طريق لغة الاتهام المضاد، وسوء الخلق والإفراط، لا يمكن أن يكون نموذجاً لموقفي بالذات من الشعب والمشكلات».[64] وبعد أربعة أشهر كتب ماتانزيما من جديد بخطه الضخم من المكان العظيم، كاماتا:

> يسعدني إخباركم أنه يسرني لقاؤكم ضمن شروط مشددة من السرية والثقة وسيسرني أيضاً عقد اللقاء بعيداً عن جدران سجنك.
>
> أفتقول، المخلص لك.[65]

بحلول تموز (يوليو) 1985 أصبح العديد من المراكز الانتخابية فاقد السيطرة إلى حد الخطر، كما قال تامبو. وأصبحت قريبة من مستوى الفوضى حول جوهانسبورغ. وفر العديد من الشرطة السود من بيوتهم في المناطق الانتخابية. وكانوا يعيشون في مخيمات في الضواحي. وحذرت الحكومة من أن المؤتمر الوطني الإفريقي يخطط إلى ثورة (كلاسيكية) على مرحلتين، تبلغ ذروتها بالاستيلاء على السلطة. «لقد انهار القانون والنظام كلياً» كما سجل مراسل البي بي سي غراهام ليتش، «مع عدم القدرة على التحقيق حتى في أبسط أنواع السرقة ما لم يدخل الضابط إلى الدائرة الانتخابية ترافقه ناقلة جنود مدرعة تحمل الشرطة والقوات».[66]

وفي 20 تموز (يوليو) أعلنت الحكومة حالة الطوارىء، سامحة للشرطة باحتجاز والتحقيق مع المشبوهين بدون أية قيود. لكن بدا أن المتمردين لم يكونوا خائفين. وبالتحدث مع الناشطين السود في سوويتو ـ بعد ذلك بشهر ـ شعرت بتحول كبير بطريقة التفكير: فتلاميذ المدارس وآباؤهم بدوا الآن واثقين من النصر، في حين شعر المتواطئون بالقلق من كونهم في الجانب الخاسر.

قال تامبو: «الطوارىء تعد لظروف صراع أكثر عنفاً، يتحرك نحو انفجار حقيقي». [67]

وتوقع زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي الثوريين بمن فيهم غوفان مبيكي في روبن آيلاند أن التمرد سيسبب «ثورة متدفقة» ستجعل الحكومة تركع على ركبتيها. إلا أن أخطر ضربة وُجهت إلى بريتوريا جاءت من دائرة هي الأقل توقعاً بالنسبة إلى المؤتمر الوطني الإفريقي ـ من أصحاب البنوك الدولية والمستثمرين الدوليين. ومن النادر جداً بالنسبة إلى رأس المال العالمي أن يرتبط بحملة أخلاقية: «الأسواق ليست عاطفية» كما يقول المالي جورج سوروز عادة. لكن في هذه الحالة ـ كما اعترف ـ فإن الأسواق تحركت ضد التمييز العنصري، ولو بطريقة فضولية. [68]

جذبت المعارك في المراكز الانتخابية تغطية تلفازية واسعة في بريطانيا وأمريكا، دمرت تأكيدات بوثا عن استقرار البلاد، في حين كان المحتجون المناوئون للتمييز العنصري يحثون المودعين والزبائن في المصارف المتعددة الجنسية على سحب ودائعهم لإجبار المصارف على وقف القروض والاستثمار في جنوب إفريقية. وكان لهذا نتيجة فورية، بما أن بريتوريا كانت لسنتين خلتا تعتمد اعتماداً متلاحقاً على القروض الأجنبية القصيرة الأمد. وكان أحد أكبر المقدمين للقروض تشيز مانهاتن بانك من نيويورك بقروض تصل إلى 500 مليون دولار. وقبل خمسة وعشرين عاماً تم النظر إلى التشيز على أنه صديق للتمييز العنصري، وقد قدم قرضاً كبيراً إلى حكومة فيروورد بعد وقت قصير من مذبحة شاربفيل. لكن في 31 تموز (يوليو) 1985، بعد أحد عشر يوماً من إعلان بوثا حالة الطوارىء، قرر التشيز بهدوء وقف تدفق قروضه، وطلب ديونه بما أنها أصبحت مستحقة. لم يكن قراراً سياسياً: فمدير المصرف المخادع ويلارد بوتشر، كان لديه القليل من الاهتمام بجنوب إفريقية، وأراد فقط تهدئة الشكاوى من مستثمري ومودعي نيويورك. لكن هذا كان كارثة بالنسبة إلى

بريتوريا. وبدأت المصارف الأخرى بسحب اعتماداتها، وبدأت وحدة العملة في جنوب إفريقية بالانحدار، وتوجب على مصرف احتياطي جنوب إفريقية تجديد قروضه من المصارف السويسرية والألمانية بمعدلات فائدة أعلى بكثير.[69]

عندما سمع مانديلا بالأخبار في بولسيمور فوجيء وفرح. وقال بعد ذلك بخمس سنوات: «يجب أن أكون صريحاً: لم أكن أتوقع مثل هذا الدعم الهائل من أصحاب المصارف؛ وهذا تعبير عن التأثير الذي حققه المؤتمر الوطني الإفريقي والمنظمات السياسية الأخرى على المجموعة الدولية».[70] قال سيسولو: «إننا لم نقدّر أهمية المصرفيين حق قدرها. لقد أعطوا إشارة إلى جنوب إفريقية بوجوب أن تكون حذرة».[71] وفي لوساكا أعلن أوليڤر تامبو إن «رفض المصارف الاستمرار في قروضها هو نصر هام في نضالنا».[72]

وكان بمقدور الرئيس بوثا أن يطمئن المصرفيين فقط بالقيام بتنازلات كبيرة، كان يتوقع إعلانها في مؤتمر الحزب الوطني، في دوربان في 15 آب (أغسطس): وكتب وزير خارجية بيك بوثا كلمة وعدت بالبدء بتفكيك التمييز العنصري وإطلاق سراح مانديلا. وضمت عبارة «اليوم عبرنا الروبيكون». (اتخذنا قراراً لا سبيل إلى الرجوع عنه). وطمأن بيك بوثا شخصياً الديبلوماسيين الأمريكيين بمن فيهم تشيستر كروكر ـ بأن رئيسه كان «على وشك القيام بإعلانات هامة جداً».[73] في داخل سجن بولسيمور، انتظر السجناء السياسيون الخمسة بترقب كلمة بوثا. وكانت ويني قد زارت مانديلا لتوها، والذي كرر أنه لن يقبل أية شروط لإطلاق سراحه، واقترح بأن بوثا يجب أن يزوره: كان بوثا «رجلاً ليس لديه أية مشكلات مهما كان نوعها بشأن رؤيته في بولسيمور».[74]

في تلك الأثناء كانت كلمة بوثا عبارة عن هبوط مفاجيء كلياً. فقد رفض اتخاذ ما أسماه «الطريق إلى التنازل والانتحار»، وألقى اللوم فيما يحدث من قلاقل في البلاد على المحرضين الشيوعيين البرابرة»، ورفع إصبعه بينما كان

يهدد: «لا تدفعونا بعيداً جداً». مانديلا كان شيوعياً، كما حذر، يجب أن يعد أنه لن يخطط ويحرض ويقترف أعمال عنف قبل إطلاق سراحه. وبالنسبة إلى العالم الذي كان في حالة ترقب كانت الكلمة عبارة عن «دلو من الماء المثلج في الوجه»(*)،[75] كما قال بيك بوثا فيما بعد.

بدا لعدة أسابيع أن أي شيء يمكن أن يحدث. وأظهر استفتاء أشرف عليه موري في وسط آب (أغسطس) أن 70٪ من الجنوب إفريقيين السود و30٪ من البيض توقعوا حرباً أهلية. لكن غالبية من السود ونصف البيض ما زالوا يعتقدون أن بلادهم يمكن أن تحكمها حكومة مشتركة من السود والبيض. وأراد 90٪ من السود إطلاق سراح مانديلا بدون شروط، مع أن 57٪ من البيض لم يرغبوا في إطلاق سراحه ضمن أية شروط.[77] وكان هناك تكهن حتى بأن مانديلا ربما يشارك قريباً في السلطة مع بوثا؛ ففي 22 آب (أغسطس) ضمت «جوهانسبورغ ستار» المحافِظة خدعة ادعي أنها تعود إلى عام 1990 بعنوان «مانديلا يهدد بالانسحاب من الحكومة المؤقتة».[78]

وبالتلاعب على وسائل الإعلام، بذلت الحكومة ما في وسعها لتصوير مانديلا على أنه إرهابي عنيف. فبعد كلمة بوثا زار مانديلا صحفيَيْن أمريكيَّين يمينيَّيْن من الواشنطن تايمز، وهما جون لوفتون وكال توماس، وكانا قد حضرا إلى جنوب إفريقية مع الواعظ من مذهب العصمة جيري فالويل. حاول مانديلا أن يشرح لهما لماذا ليس لديه بديل عن استخدام السلاح، وكيف أن المسيحي له «الحق باستخدام القوة ضد الشر». قال إن لدى أمريكا ديموقراطية راسخة بعمق. في حين ليس لدى الإفريقيين الجنوبيين السود حق الاقتراع، وأنهم تحكمهم «قوة استعمارية تتقدم ببطء على عكاز القرون الوسطى». وإثر ذلك

(*) لقد شاع فيما بعد أن دي كلارك خليفة بوثا قد قال له أن يشدّد من لهجة خطابه، رغم أنه أنكر ذلك بشدّة في حديثه إليّ. فقد أصر بوثا أنه كتب الخطاب بنفسه، مع بعض الأفكار التي أخذها من وزراء، وأنه عندما قرأ عليهم قبل إلقائه «لم يحتج أحد منهم».[76]

ادعت مقالة الواشنطن تايمز أن «مانديلا يحث على ثورة عنف»، وبدأ: «نيلسون مانديلا الإرهابي والثائر الجنوب إفريقي يرى أن [لا بديل] للثورة العنيفة». [79]

المستثمرون الغربيون الآن كانوا يفقدون الثقة ببوثا، وواجهوا صدمة جديدة بعد أسبوعين من كلمته. وكان من المتوقع أن يقود الواعظ الفصيح ألان بويساك مسيرة إلى بولسيمور تطالب بإطلاق سراح مانديلا والوعد «بقلب جنوب إفريقية رأساً على عقب». لكن بويساك اعتقل قبل المسيرة مباشرة، واندلع المزيد من أعمال الشغب. ففي بورصة جوهانسبورغ التي زرتها يوم «الثلاثاء الأسود» ذاك، انهارت الثقة الخارجية، وبدأت العملة الجنوب إفريقية (الرند) بالهبوط. وبإغلاق الأعمال هبط الرند إلى نصف قيمته مقابل الاسترليني بالمقارنة مع عام مضى. ورأى معظم سماسرة البورصة بمن فيهم من الأفريقانيين أن إطلاق سراح مانديلا هو الحل الوحيد. كان هذا تحالفاً استثنائياً: فرأس المال الدولي كان يقف الآن مع مانديلا، البعبع الشيوعي القديم.

والاقتصاد الجنوب إفريقي الذي اعتمد على الاستثمارات الخارجية والقروض بدأ يعتريه الشلل. وقامت مجموعة صغيرة من زعماء الأعمال يقودها غافين ريلي الرئيس الجديد للأنكلو ـ أمريكان، قامت باتخاذ الخطوة الجريئة بالسفر إلى زامبيا للقاء تامبو ورفاقه في المؤتمر الوطني الإفريقي. وشعر هاري أوبنهايمر، سلف ريلي «بالارتعاش» بشأن المغامرة، لكن رجال الأعمال فوجئوا براهفة حسه وذكاء زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي. قال طوني بلوم من مجموعة البريميير: «لا يمكن تخيل مجموعة أكثر جاذبية ولطفاً». وشرح تامبو أنه كره العنف والمعاناة ـ «حتى أنني أُخرج الحشرات من الحمام» ـ لكن على المؤتمر الوطني الإفريقي أن يجابه عنف الدولة. كان إطلاق سراح مانديلا الطريقة الوحيدة لبدء المفاوضات. لكن ريلي شعر بالرعب بعد وقت قصير من الزيارة عندما انفجرت قنبلة أخرى للمؤتمر الوطني الإفريقي. وشعر تامبو

بالحيرة لهذا الرد: «كان بسبب العنف الذي سببته زيارة ريلي لزامبيا».[80]

الأزمة المالية ساءت أكثر فأكثر. وزار حاكم مصرف الريزيرف جيرهارد دوكوك المصرفيين العالميين في محاولة لرفع قيمة القروض. لكنه عومل كمنبوذ.. ثم أحضر ب. دبليو. بوثا مفاوِضاً فرتيز لوتوايلر، الرئيس السابق للبنك الوطني السويسري، الذي حاول عقد صفقة مع المُقرضين، إلا أنه رفض لقاء مانديلا أو تامبو، قائلاً: «أنا أرفض مصافحة الأيدي مع شيوعي بدون أن أعدّ أصابعي بعد ذلك». في النهاية أقنع بوثا لوتوايلر أنه سيقوم بإصلاحات جديدة، وناقش لوتوايلر بشأن الديون التي ستستمر مؤقتاً. إلا أن المصرفيين الأجانب لن يستعيدوا أبداً ثقتهم بمستقبل جنوب إفريقية في ظل التمييز العنصري. واستمر المحافظون الغربيون في القول إن العقوبات لن تؤذي؛ إلا أن انسحاب المصرفيين سيمارس ضغطاً حاسماً على بريتوريا للتوصل إلى تسوية.[81]

وكان اللوبي المعادي للتمييز العنصري في أمريكا وأوربا قد صعد مطالبته بالعقوبات وبإطلاق سراح مانديلا، مستخدماً طريقة أعقد للضغط. وأجبر أصحاب الحملة الأمريكيون صناديق المنَح على سحب استثماراتهم في جنوب إفريقية، في حين كان البلاك كوكس Black Caucus في الكونغرس يعبىء لضربة سياسية. لكن الحكومتين الأمريكية والبريطانية قاومتا بضراوة الضغط الشعبي. وأبلغ الرئيس ريغان السيدة تاتشر أنه يكتفي بترك الأمر لها.[82] كانت لها قناعاتها الخاصة. كانت متأثرة باقتصاد جنوب إفريقية الحر المزدهر بالمقارنة مع الفوضى في الدول الماركسية السوداء في أمكنة أخرى في إفريقية؛ واستمرت في التحذير بأن مليون أبيض مؤهلون لأخذ جوازات سفر بريطانية، وأنهم سيغادرون جنوب إفريقية إذا انهارت البلاد، مثل البرتغاليين من أنغولا وموزامبيق.[83] واستمر مستشاروها اليمينيون بالتأكيد على الخطر الشيوعي

الآتي من المؤتمر الوطني الإفريقي والانقسامات القبلية بين السود الجنوب إفريقيين.

مع ذلك رفضت السيدة تاتشر العقوبات، وأصرت على أنها تستطيع التأثير على ب. دبليو. بوثا سراً، كصديقة متعاطفة. وكانا قد التقيا لأول مرة عندما زارت جنوب إفريقية كوزيرة للتعليم في مطلع عقد السبعين، عندما أخذها بوثا الذي كان وزيراً للدفاع في جولة حول كيب بوينت. والآن التقته مجدداً في حزيران (يونيو) 1984 عندما تناول الغداء في الـ Chequers، منزلها الريفي الرسمي مع وزير الخارجية جيوفري هاو. لم تشعر بالود نحوه، قالت: إن سكرتيرها الخاص تشارلز بوويل اعتقد أنه أفزعها. لكنها شعرت مع ذلك بأن لها نفوذاً خاصاً عليه. استمعت إليه بتعاطف قبل أن تخبره بوجوب إطلاق سراح مانديلا والتوقف توقفاً فعالاً عن إبعاد السود عن بيوتهم، وقصف الدول المجاورة. في أية حال، خرج بوثا مطمئناً: «عرفت من طريقة وداعها ووداع زوجها أنهما قد احترماني». وفوجىء لأنها لم تنكر أن مانديلا كان شيوعياً.[84]

عندما أعلن بوثا حالة الطوارىء بعد ذلك بعام. شعرت تاتشر بقلق شديد أكثر، وفي أيلول (سبتمبر) 1985 عقدت حلقة خاصة عن جنوب إفريقية؛ حضرها أكاديميون ودبلوماسيون وسياسيون، لكن لا أحد من المتعاطفين مع المؤتمر الوطني الإفريقي. وفي الشهر التالي زار تامبو لندن ليتحدث لأول مرة إلى رجال الأعمال والمصرفيين وكذلك السياسيين ـ وهذا اختراق كبير.

لكن تاتشر منعت أياً من أعضاء حكومتها بالتحدث إليه أو إلى أي زعماء آخرين من المؤتمر الوطني الإفريقي، الذين ما زالت تصفهم على أنهم مجموعة من الإرهابيين الشيوعيين: قالت إن أي شخص يعتقد أن المؤتمر الوطني الإفريقي يمكن أن يؤلف حكومة إنما «يعيش في بلاد الواقواق المكفهرة». لم يكن من المفاجىء أن تكون السيدة تاتشر مرتابة بالشيوعيين: إذ كادت تُقتل بقنبلة للجيش الجمهوري الإيرلندي IRA في برايتون في العام الفائت. إلا أن

المؤتمر الوطني الإفريقي لم يلجأ أبداً إلى ذلك النوع من الإرهاب، وعلى العكس من الجيش الجمهوري الإيرلندي لم يكن لديه أصوات لتحقيق تغيير سلمي.

في تشرين الأول (أكتوبر) واجهت تاتشر أشد تحدٍ بشأن جنوب إفريقية، في مؤتمر للكومونولث في ناسو، الذي رأى فيه مانديلا حدثاً أساسياً. كانت مصممة على الوقوف في وجه «الاندفاع الـ gadarene» نحو العقوبات، ونجحت في تحديدها إلى «صغيرة جداً جداً» كما قالت بانتصار. وبتلك الكلمات الأربع القليلة، كما تشكس جيوفري هاو فيما بعد ـ «أهانت ثلاث دزينات من رؤساء الحكومات الآخرين، وقللت من قيمة السياسة التي اتفقوا لتوهم عليها، وقللت من شأنها هي بالذات». [85] لكنها وافقت فعلاً على فكرة أن مجموعة من «الشخصيات البارزة» يجب أن تزور جنوب إفريقية بحثاً عن تسوية؛ ووافق الرئيس بوثا بضغينة على دخولهم.

تم اختيار فريق من سبعة أشخاص، بمن فيهم اللورد باربر، المستشار السابق من بريطانية؛ مالكولم فريزر، رئيس الوزراء الأوسترالي السابق؛ والجنرال أوباسانجو الرئيس السابق لنيجيريا. كانوا مصممين على زيارة مانديلا في السجن، وأصبح السجين في بولسيمور الآن أكثر شهرة بكثير من أي وقت مضى، في جنوب إفريقية وعبر أنحاء العالم على حد سواء. كتب كاثرادا في أيلول (سبتمبر) 1985: «يجب أن تتساءلوا جميعاً ما معنى العيش مع [شخصية مشهورة] مثل العم مانديلا، فلا يمر يوم بلا شيء عنه في الصحف أو الإذاعة». لقد جعل لنا انطباعاً عظيماً لدى الشعب؛ شرح كاثرادا، ومع ذلك «فلديه الاهتمامات العادية والطبيعية والرغبات والآمال والحب والكره إلخ..». [86] ومع كل توقعات العالم المنصبة عليه بدا مانديلا في سيطرة تامة على عواطفه ـ مسبباً السخط أحياناً لزملائه المساجين. «مهما كان متأثراً أو منفعلاً بشأن حادث ما، أو حدث، فإن باستطاعته دوماً إظهار هدوء لا يُصدق». هذا ما قاله كاثرادا

فاطمة مير شهنيز في شباط 1986: «نحن واثقون (وقد أخبرناه) أنه إذا دعي إلى المكتب وأُبلغ أنه سيطلق سراحه غداً، فإنه سيعود إلى زنزانته ويخبرنا بذلك بعد ساعة أو أكثر... لا شيء في حديثه أو سلوكه يعطينا أبسط تلميح بأنه الرجل الذي يدور حوله مثل هذا الارتفاع المفاجيء في المشاعر عبر العالم بأكمله».(87)

أصبح من الصعب الآن تخيل أية تسوية لا تشمل مانديلا، كما أن بقاءه أصبح حاسماً. وبدا في السادسة والستين بصحة جيدة استثنائياً. لكن أواخر عام 1985 أظهر فحص طبي في مستشفى فولكس تضخماً في غدة البروستات وهذا مرض شائع بين الرجال في عقد الستين ـ حيث أصر طبيب البولية الدكتور وايلم لوبشر على أنها تتطلب عملية جراحية. وشعر الوزراء بالخشية من أنهم ربما يُلاموا إذا حدث أي خطأ: وحذر الضابط القائد في بولسمور البريغادير مونرو من أن حرباً أهلية ستندلع إذا مات مانديلا. وحضر ثلاثة أطباء آخرين إلى المستشفى لتقديم مشورتهم؛ نتاكو موتلانا، طبيب أسرة مانديلا، واثنان من الاختصاصيين من سويسرا وجوهانسبرغ. ووافقوا جميعاً على ضرورة العملية ـ لكن من يقوم بها؟ ودهش موتلانا عندما أصر مانديلا على طبيب كيبتاون الأفريقاني الدكتور لوبشر.(88)

وحضرت ويني لزيارته قبل يوم من العملية. وفي الطائرة ذاتها ـ مصادفة ـ كان وزير العدل، كوبي كويتسي، الذي كان يعرف الكثير عن ويني من خلال صديقه في براندفورت بيي دو وال. كان في قسم الدرجة الأولى، لكنه عرف ويني ووقف ليؤكد لها قلق حكومته على صحة مانديلا، وفيما بعد دخلت ويني بحزم إلى قسم الدرجة الأولى وجلست إلى جانبه، متحدثة معظم الساعتين من الطيران. كان مانديلا قد طلب في وقت سابق رؤية كويتسي، إلا أنه لم يتلق رداً. وبوصول الطائرة إلى كيبتاون، قرر كويتسي زيارته في المستشفى.

وصل كويتسي إلى جانب سرير مانديلا دون الإعلان عن ذلك. ودُهش

بتحية أظهرت كأن مانديلا هو المضيف الذي يرحب بصديق قديم. قال كويتسي فيما بعد: «لقد كان وكأنه رمز من رموز العالم القديم، مواطن روماني مسن بجلال ووقار واستقامة وبساطة». وتأثر كويتسي أيضاً باهتمام مانديلا بالإفريقيين والأفريقانيين. ووجد مانديلا أن كويتسي كان مهذباً أكثر بكثير من سابقه جيمي كروغر، وأدرك أنه كان يرسل من يجس النبض، وشك مانديلا في أنه ربما أراد صنع نوع ما من الصفقة، إلا أنه لم يفش ذلك. وطلب مساعدة كويتسي في السماح لويني بالعيش في جوهانسبورغ. ودعا كويتسي ويني إلى منزله الرسمي وعرض السماح لها بالعودة شريطة أن لا تكون فوضوية؛ لم تقدم ويني مثل هذا الوعد، لكنها عادت في أية حال إلى جوهانسبورغ، وهي ناشطة أكثر من أي وقت مضى.[89]

اهتم مانديلا اهتماماً كبيراً بعملية البروستات. كتب إلى صديق له: «لقد مزق الجراحون جوفي بلا رحمة. لقد فتحوا العظم العاني، وأزالوا غدة حيوية، وأحدثوا ثقباً عميقاً تحت السرة مباشرة وأدخلوا أنبوباً غليظاً. وكان هناك آخر من الأمام، كما أن إبرة طويلة وخطيرة مثل الرمح تم طمرها في الساعد». لكنه توصل إلى حب واحترام جميع الممرضات في تلك الوحدة. «لو كنت غنياً لتبنيتهن جميعاً كأطفال لي».[90] ولاحظ أن الممرضات في قسم العناية المشددة «يعاملن كل شخص وكأنه المريض الوحيد» وقال إنه إذا كان سيموت فإنه يفضل أن يكون في المرج المفتوح مُحاطاً بالأغصان والورود البرية؛ لكن إذا مات في المدينة، فإنه سيغادر بابتسامة عريضة بين ممرضات كأولئك».[91]

تسبب مرض مانديلا، والنشاط الرسمي المتدفق الناجم عن ذلك بموجة جديدة من الشائعات بأنه سيطلق سراحه قريباً، واحتشدت الجموع خارج السجن. وحثت جوهانسبورغ صنداي تايمز الرئيس بوثا على انتهاز فرصة مرض نلسون مانديلا ـ قبل أن يموت الرجل وتنفتح أبواب الجحيم ـ وترحيله إلى خارج البلاد ببطاقة ذات اتجاه واحد للعلاج الطبي في الخارج».[92] وأرجعت

وزارة الإعلام الشائعات إلى «حملة مستمرة لتشويه الإعلام من قبل خبراء الدعاية وراء الستار الحديدي». [93] لقد رأى السجناء ذاتهم ما يكفي من الآمال وهي تجيء وتروح. وذكّر مانديلا ويني بآمالهما عام 1964: «الوحيدان اللذان بقيا غير واثقين ولا مشوشين بهذا الهيجان هما نحن». [94] مع ذلك ما زال يتخيل عودته إلى بيته وتذكر وجبات ويني الشهية، محذراً إياها: «إذا لم أحصل على ذلك الصنف عند عودتي فإنني سأفكك الزواج في يوم ما بسبب ذلك». لكن بحلول نيسان (أبريل) 1986 كان يكتب إليها: «ليس هناك مخلوق حي في جنوب إفريقية اليوم، مهما كانت مرتبته عالية، يعلم متى سيطلق سراحنا». [95]

obeikandl.com

24

انفلات الزمام

1986 ـ 1988

منطقك يخيفني
بأي برودة احتقرت الخداع؟
«افتح يا سمسم» ـ وصد أعقدين على مفصلات الباب
يتقشر من لمسة عصا الساحر؟

وول سونيكا[1]

لم يتم إرجاع مانديلا بعد عمليته لينضم إلى رفاقه في الطابق الأعلى في بولسمور، بل إلى قسم منفصل في الطابق الأرضي. كان مكانه الجديد فسيحاً يضم ثلاث زنزانات كبيرة، إحداها للنوم، والثانية للتمارين الرياضية، وواحدة للدراسة؛ لكنها كانت رطبة ومظلمة وكئيبة، مع القليل من المناظر، وكان ما يزال هناك خمسة عشر باباً معدنياً مغلقاً بينه وبين المدخل.[2] لم يكن لديه الآن باحة على السطح ليقوم بممارسة الرياضة فيها، بل مجرد باحة محاطة بزنزانات السجن، حيث كان السجناء العاديون يصرخون شاتمين الرجل المسن بقبعته من القش ـ «يا كفير ـ لماذا تتجاهلنا؟» ـ إلى أن وضع الضابط القائد ستاراً على النوافذ.[3]

كان مانديلا وحده لأول مرة منذ بدء سنواته الخمس والعشرين في السجن، في حين أن الأزمة في الخارج كانت تندفع نحوه. وقد أصر على أنه لا يُعَدُّ نفسه الزعيم المختار، قال جورج بيزوس الذي كان يزوره أحياناً: «لم

obeikandl.com

يدع أبداً أنه رجل مصير، كان يتحدث دوماً بلغة الجمع. . . أعتقد أنني لم أسمعه أبداً يقول «فعلتُ ذلك».[4]

لكن الحكومة وضعته الآن في هذه العزلة المهيبة، وكان واثقاً من أن الوقت قد حان بالنسبة إليه ليلعب دوراً قيادياً. وعندما زارته صديقته أمينة كشاليا، شعرت أنه فوق ذروة جديدة: «كان لدي شعور بأن التغيير قد أتى أخيراً. وعليه أن يتحمل المسؤولية ويحاول إحداث اختراق. أدرك أنه سيخرج، وأنه بإمكانه صنع (ديموقراطية). لذلك اتخذ المبادرة».[5]

شعر مانديلا بالقلق بسبب تصاعد العنف في البلاد، حيث خشي من أنه ربما لا يستطيع أحد السيطرة عليه في وقت ما. قال: «إذا لم نستطع البدء بحوار قريباً. فإن الطرفين سينغمسان في ليل حالك من الظلم والعنف والحرب». ولقد احترم قوة الحكومة المسلحة: ولم يكن يعتقد ـ مثل العديد من السجناء الشباب ـ بأن المؤتمر الوطني الإفريقي يستطيع الاستيلاء على السلطة عبر ثورة متدفقة أو نصر عسكري. لكنه اعتقد أن الأعداء بدؤوا يرون أنفسهم بوصفهم «على الجانب الخطأ من التاريخ». وبما أنه كان صبياً راعياً في وقت من الأوقات فقد اعتقد بأن «هناك أوقاتاً يجب أن يتحرك فيها الزعيم أمام القطيع»[6] لكن هل يتجرأ على التحرك بدون التشاور مع زملائه؟ كان هذا أصعب قرار بالنسبة إليه. قال لي: «أعلم أنني إذا طلبت موافقتهم، فإنهم سيقولون لا. فإذا استمرت فإنهم ربما يتحركون ويطردونني. لكنني كنت واثقاً من أن العدو ذاته يريد تراجعاً، عبر جسر فضي».[7]

بعد عدة أيام من التوحد والتفكير سُمح لمانديلا بالالتقاء مع السجناء الأربعة الآخرين من المؤتمر الوطني الإفريقي وعلى رأسهم سيسولو. كانوا قد خططوا للاحتجاج في اليوم الذي تم فصله عنهم، معتقدين بحق أن الحكومة كانت تحاول إبعاده عنهم وعن ثوار روبن آيلاند مثل هاري غوالا. «إنها (الستراتيجية) التي يستخدمها الحكام عبر العالم، فرّق، تسد». هذا ما قاله

سيسولو الذي افترض بحق أن جهاز الاستخبارات قد تنصت على محادثات السجناء في روبن آيلاند. لكن كانت لديه ثقة بمانديلا ـ كما قال فيما بعد «يجب أن تكون رجلاً قوياً جداً لتملي شروطك على نيلسون» ـ هذا في حين كان يعلم أنه يستطيع أن يتبرأ من مانديلا إذا أخطأ خطأً فادحاً. ولم يتشكك مانديلا ذاته بشأن عزله عن الباقين. أبلغ زملاءه القدامى بغموض متعمد أن الحكومة ستجد من الأسهل التقرب منه على انفراد ـ وليس أنه خطط للتقرب من الحكومة. قال لهم فقط: «ربما ينجم شيء جيد عن هذا».[8]

كان على مانديلا أولاً أن يطمئن تامبو، وهكذا جنّد جورج بيزوس ليقوم بالرحلة إلى لوساكا. وبيزوس الذي أبلغ أولاً كوبي كويتسي ـ الذي سأله بحذر عن مانديلا ـ قام بزيارتين ليخبر تامبو بشأن نقاش مانديلا مع كويتسي، مؤكداً له أن مانديلا لن يلتزم بشيء بدون موافقة المؤتمر الوطني الإفريقي. واستشار تامبو زملاءه، الذين وافقوا على مبدأ المحادثات التمهيدية، وأرسلوا الرسالة إلى مانديلا بالتنفيذ، ثم أخبر بيزوس مانديلا وكويتسي بعد ذلك بأن تامبو لا خلاف بينه وبين مانديلا. هذه لم تكن أخباراً جيدة بالنسبة إلى الحكومة. وبعد بضعة أسابيع كتب مانديلا إلى كويتسي لاقتراح «محادثات بشأن محادثات». لم يكن هناك جواب.[9]

لكن في أثناء ذلك حدث انفتاح جديد. ففي شباط (فبراير) 1986 قبل زيارة بيزوس الثانية مباشرة لتامبو، وصل إلى جنوب إفريقية ثلاثة من بين «الأشخاص السبعة» البارزين في الكومونولث في محاولة لإيجاد سبل البدء بحوار سياسي. ووجدوا دليلاً منتشراً إلى حد كبير عن تهديدات الشرطة واستفزازاتها، «لقد أتينا إلى بلد في حالة اهتياج» كما ذكروا فيما بعد.[10] لكن العضو النيجيري في المجموعة ـ الجنرال أوباسانجو ـ وهو زعيم ضخم ومنتفخ يرتدي أثواباً وخفاً مفتوحاً يهز فيه بأصابعه، كسب بسرعة ثقة وزير الخارجية بيك بوثا، الذي وجد فيه شخصاً واقعياً: كتب بيك بوثا فيما بعد أن أوباسانجو

وصف الصراع بأنه «بين قوميتين، كلاهما تريدان الأفضل لبلادهما، لكنهما يقاتل بعضهما بعضاً من أجل السلطة». سُمح للجنرال برؤية مانديلا في بولسيمور، وتأثر تأثراً كبيراً. وأكد لبيك بوثا أن مانديلا ليس شيوعياً، بل مجرد زعيم وطني إفريقي.[11]

بدا الرئيس بوثا الآن وهو أميل إلى المصالحة، كما بدا أنه يتطلع إلى طريقة لإطلاق سراح مانديلا. كان قد ألغى فعلاً حالة الطوارىء في الوقت الذي وصل فيه الأشخاص البارزون. وبعد ذلك بوقت قصير ألغت الحكومة قوانين المرور المكروهة، وهذا ما جعل واشنطن ترحب بذلك بوصفه «حدثاً هاماً».[12] «مانديلا نافع للمؤتمر الوطني الإفريقي داخل السجن أكثر مما هو خارجه» اعترف بوثا. «إذاً لماذا الإبقاء عليه في السجن؟» قالت هيلين سوزمات.[13] وأبلغ المحافظ البريطاني المتعاطف اللورد ويت ـ وهو صديق للسيدة تاتشر ـ أن لديه معلومات جيدة بأن مانديلا سيُقتل إذا أطلق سراحه، وأنه ـ بوثا ـ سيُلقى عليه اللوم.[14]

بتاريخ 12 آذار (مارس) سمح للأشخاص السبعة البارزين كلهم بزيارة مانديلا. وشعر كوبي كويتسي ـ الذي رافقهم ـ بالسرور لرؤية دهشتهم لأنهم وجدوا مانديلا بهذا الشكل القوي. «بالنسبة لي كانت لحظة تألق. شعرت أنني تفوقت عليهم: لقد توقعوا رؤية ذلك الشخص الهزيل، وهناك كان في حالة سيطرة تامة» ترك كويتسي بالذات الغرفة بحذر، على الرغم من توسلات مانديلا، تاركاً موظفاً ليكتب الملاحظات.[15]

وجد الأشخاص البارزون مانديلا «منعزلاً ومتوحداً»، لكنهم فوجئوا بمظهره النظيف وحضوره المسيطر. كان يرتدي لباساً رمادياً من ثلاث قطع pimotripo، كان الخياط قد صنعه له بسرعة، وحذاءً رمادياً مماثلاً. علق البريغادير مونرو مدير السجن: «أنت تبدو الآن مثل رئيس وزراء». وقال الأشخاص البارزون «إنه ينضح بالسلطة، ويتلقى احترام كل من حوله، بما في

ذلك سجّانوه». [16] وقد تأثر اللورد باربر أكثر الأعضاء محافظة في المجموعة بثقة مانديلا بنفسه ومرحه، وشعر بالسرور لأن واحداً من أول أسئلته كان عن (الكريكيت): «هل دون برادمان ما زال على قيد الحياة؟» (كان كذلك). وعد باربر بأن يرسل إلى مانديلا نسخة من كتابه عن الفرار من كولديتز خلال الحرب العالمية الثانية. [17] لكن ما أثر في الزوار أكثر من أي شيء آخر كان تحليل مانديلا الواضح الجلي للأزمة. فقد شرح: «أنه ليس هناك شيء مثل فترة طويلة في السجن لتركيز ذهنك، ولإيصالك إلى تقييم أكثر اتزاناً لحقائق مجتمعك». [18]

وذهل الأشخاص البارزون للعنف المتصاعد في جنوب إفريقية. إذ أن الإرهاب كان يقابل بإرهاب مضاد، وحكموا أن «الأحداث قد خرجت خروجاً متزايداً عن سيطرة الحكومة». بدا المؤتمر الوطني الإفريقي وهو يحقق هدفه لجعل جنوب إفريقية منفلتة الزمام، وهذا ما يشعل أكبر سلاح لهم ضد الحكومة؛ لكنه سلاح خطير وذو حدين. ساعد أوباسانجو في كتابة مسودة «فكرة عامة عن التفاوض» بحذر شديد في وضع الكلمات، فربط بين إطلاق سراح الحكومة للسجناء ووقف العنف من جانب المؤتمر الوطني الإفريقي. وقبل مانديلا ذلك بسرعة كنقطة بداية، بدون أن يتشاور مع زملائه (وهذا ما أثر في باربر) في حين شرح أنه يجب أن يقدموا موافقتهم. تشجع بيك بوثا بالفكرة التي جسدت (كما اعترف فيما بعد) جميع العناصر التي ستقبلها الحكومة بعد ذلك بأربع سنوات. لكن الصقور في الوزارة انزعجوا لأن المؤتمر الوطني الإفريقي وافق على وقف العنف فقط. وليس على وضع حد نهائي له: لقد خافوا (حسب قول بيك بوثا) من أن المؤتمر الوطني الإفريقي سيستخدم العنف كورقة مساومة: «استمروا في المحادثات... وإلا». [19]

يبدو أن خطر العنف الفاقد السيطرة كان يمثله شخص ويني مانديلا. فقد أظهرت الآن وجهين مختلفين جداً. فمن جهة كانت تبرز كبطلة دولية. «أم شعب» - وهو عنوان كتاب عنها عام 1985[20] - بينما هي تصر الآن على أنها لم

تسم نفسها كذلك أبداً: «لا أستطيع الوقوف على المنبر والقول [لا تدعونني بهذا الاسم لأنني لست كذلك]». أنا لم أتنافس أبداً مع الأم ألبيرتينا [سيسولو] أو الأم ليليان [نغويي]». لكنها كانت واثقة من دورها الفذ كممثلة لمانديلا: «سأقول بفخر، إنني المؤتمر الوطني الإفريقي، لأنني كنت الصوت الوحيد وكان أفراد شعبي يُقتلون لمجرد التلميح بالاسم. . . ومن أجل إنقاذ نيلسون، ومن أجل أن يذكر اسمه على شفاه الأطفال على أثداء أمهاتهم، توجب عليّ أن أعرض نفسي عمداً لكل أنواع القسوة».[21]

صارت ويني الآن أكثر صراحة، مسيطرة على كل من رآها تقريباً. بدت وهي تبحر في عواصف خطيرة كسفينة في إبحار كامل، محلقة فوق أنصارها وأعدائها على السواء. وكانت تستطيع إظهار تقييم برؤية واضحة بشأن الأزمة المتفاعلة. عندما كلمتها بالهاتف في براندفورت خلال إبعادها. كانت تعلق بحدة على السياسيين الزائرين، بدءاً من تيدي كينيدي حتى مالكولم فريزر. كان انتقادها للحكومة شديداً: «الأفريقانيون يرتكبون الخطأ الفادح تلو الآخر»، كما قالت لي في أيلول (سبتمبر) 1985: «نحن نشكرهم لتوحيدنا، قال بوثا إنه عبر الطريق الذي لا رجعة منه؛ لكننا نحن الذين عبرناه». وقالت بعد ذلك بستة أشهر: «الحكومة الآن هي السجين، والسجناء هم السجانون».[22]

لكنها كانت تظهر ميلاً للعنف، كانت الشرطة تستطيع استغلاله والتلاعب فيه. وبدت أكثر قسوة عندما عادت إلى سوويتو عام 1984 بعد نفيها في براندفورت. كانت ترتدي اللباس العسكري من الخاكي، وحذاء الجنود وعَمرة. قالت زندزي مازحة: «أعتقد أنني سأحضر لها بندقية دمية وقِراب مسدس، لتتجول وتظهر في المحكمة بهذه الهيئة».[23] لكن مظهرها المحارب كان يصبح حقيقياً جداً. ففي 13 نيسان (أبريل) 1985، في مانسيفيل قرب جوهانسبورغ أدلت بأكبر تصريح استفزازي، والنار في عينيها: «ليس لدينا بنادق

ـ لدينا حجارة فقط، وصناديق كبريت وبترول. ويداً بيد معاً وبصناديقنا من الكبريت وأطواقنا سنحرر هذا البلد». [24]

كانتويني تحرض الجماهير على العنف تحريضاً واضحاً. وحتى ذكر مثل هذه الكلمات كان إهانة خطيرة في ظل قوانين الطوارىء، لكن بعد أن بث التلفاز والصحافة فيما وراء البحار كلمتها، كانت الحكومة مسرورة لنشر هذا المثال من وحشية المؤتمر الوطني الإفريقي. ثار غضب صحف جنوب إفريقية: ووصفت جوهانسبورغ ستار كلمات ويني بأنها «غير مسؤولة ومتطرفة» ـ على الرغم من أن معلق الصحيفة ريكس جيبسون شرح أنها في أوقات أخرى قالت أشياء كثيرة كانت «أفضل، وأكثر وداً، وأكثر فائدة». [25] شعر المؤتمر الوطني الإفريقي بالتردد في وجه عنف الحكومة بالذات، وكان أوليفر تامبو كارهاً لانتقاد الكلمة علنياً. قال لمؤتمر قمة لدول عدم الانحياز في هراري: «لسنا مسرورين بالطوق إلا أننا لن نشجب الناس الذين دُفعوا إلى تبني التطرف». [26] كان تامبو مذهولاً في سره! وفي لندن طلب من جار وصديق ويني في سوويتو الدكتور ماتلانا أن يسكتها. [27]

خفضت ويني من لهجتها قليلاً، مدعية أن الكلمة خسرت لأنها بلا مضمون. لكنها لم تسحبها. والتصريح لم يكن بالضرورة موافقة على الأسلوب «كما تدعي الآن. كان يهدف إلى القول إننا معرضون الآن لظروف كهذه بسبب قسوة التمييز العنصري». كانت مدركة بأنها كانت تتحدى خط الحزب. «المؤتمر الوطني الإفريقي كان قد شرع في التحدث بلغة المصالحة، وأشخاص متطرفون أمثالي بدؤوا يصبحون إرباكاً لأولئك الذين كانوا يشدون الحبال، والآلية، محاولين تنفيد عملية سامية. [28] وكما بدا فيما بعد، كانت هي ذاتها تقوم بمجازفات أكثر عنفاً مع حراسها.

وكما أخبر مانديلا محاميه جورج بيزوس وإسماعيل أيوب، شعر هو ذاته بالصدمة لأي تشجيع لاستخدام الطوق، وكذلك السجناء الآخرون في

بولسيمور: «نريد فقدان السيطرة لكن ليس التطويق». قال كاثرادا[29]: وعلى صعيد المعركة كان الخط أصعب من أن يُميز.

عندما عاد الأشخاص البارزون إلى جنوب إفريقية في أيار (مايو) صدمهم تصاعد العنف، ولا سيما بين اليقظين الذين كانوا يهاجمون ـ بتشجيع من الشرطة ـ مؤيدي الجبهة الديموقراطية الموحدة في كروس رودس، المخيم المُحتل خارج كيبتاون. وبدت الحاجة إلى اتفاق ملحة أكثر فأكثر: وبدا بيك بوثا متفائلاً. قال فيما بعد إن الأشخاص البارزين «يقتربون من النجاح أكثر مما يدرك معظم الناس».[30] وكانت هناك شائعات جديدة بأن مانديلا سيطلق سراحه. كتب مانديلا إلى صديق في 12 أيار (مايو): «التحدث عن الإطلاق المحتوم هو على شفاه الجميع. لكن الحقيقة الواضحة هي أننا ما زلنا هنا».[31]

في 16 أيار (مايو) زار الأشخاص البارزون مانديلا أيضاً، في بيت الضيافة المريح في السجن، حيث تُقدم المقبلات. سألهم ما إذا كان الرئيس بوثا يأخذ «فكرتهم عن التفاوض» مأخذ الجد. لم يكونوا متأكدين، وارتاب مانديلا بأن بوثا يريد مجرد تأخير المفاوضات. وأكد لهم أن بإمكانه السيطرة على العنف إذا ما أطلق سراحه؛ لكنه أراد التأكد من أن الحكومة ستسحب القوات من المناطق وستسمع له بالسفر بحرية.

تشجع الأشخاص البارزون، وطاروا إلى لوساكا ليخبروا تامبو عن الفكرة. وارتاب هو أيضاً بأن بوثا يطبق (تكتيكات) تأخير، وشك في حسن نيته؛ لكنه اعتقد أن الفكرة ستحصل على تأييد زملائه في المؤتمر الوطني الإفريقي. وعاد الزوار إلى كيبتاون في 19 أيار (مايو) ليطرحوا اقتراحاتهم أمام لجنة وزارية. وأصر الصقور مجدداً على وجوب أن يشجب المؤتمر الوطني الإفريقي العنف بكل أشكاله، وليس مجرد وقفه؛ إلا أن الأشخاص البارزين أجابوا أنهم لا يستطيعون أن يطلبوا طلباً معقولاً من المؤتمر الوطني الإفريقي

التخلي عن السلطة الوحيدة المتوفرة أمامه فيما إذا تخلت الحكومة عن طاولة المفاوضات.[32] كانت تلك ورطة من النوع (الكلاسيكي).

في أية حال، رأى مانديلا فرصة حقيقية للسلام. ففي ذلك الصباح ذاته طلب السماح برؤية زملائه لمناقشة الاقتراح، وتحدث فيما بعد إلى محاميه إسماعيل أيوب وإلى ويني. واحتار لأن جماعته كانوا مترددين، وشرح أيوب أنهم احتاجوا إلى الوقت للتشاور مع الآخرين، بما في ذلك مدير المؤتمر الوطني الإفريقي، والجبهة الديموقراطية الموحدة.[33]

لكن كوبي كويتسي اعتقد أن الرئيس بوثا كان ممزقاً الآن: فقد أدرك أن عليه أن يطلق سراح مانديلا سريعاً؛ لكنه لم يجرؤ على الظهور بمظهر الضعيف. وشعر بالتألم لأن البريطانيين والأمريكيين لم يقدروا مدى تنازلاته، وتشجعت عدوانيته بالضربة الجوية الأمريكية الأخيرة على ليبيا «ينسى كروكر أن بلاده بالذات قامت بهجمات عبر الحدود» قال لي مؤخراً. وفجأة تحول بوثا الآن إلى التصلب. فعندما اقترح وزير الدفاع ماغنوس مالان أن الجيش يجب أن يضرب قواعد المؤتمر الوطني الإفريقي في الدول المجاورة، وافق بوثا على الاقتراح بلا مناقشته سواء مع الوزارة أو مجلس أمن الدولة.[34]

وفي حين كان الأشخاص البارزون يتحادثون، كانت قوات جنوب إفريقية توجه ضربتها. بغارات على لوساكا وهراري وغابارون ـ وكل عواصم الكومونولث التي كان الأشخاص البارزون قد زاروها مؤخراً. وأكدت الغارات أسوأ هواجسهم بخصوص عدم قدرتهم على الثقة بحكومة جنوب إفريقية؛ واعترف بيك بوثا فيما بعد أنهم كانوا «استفزازاً واحداً مبالغاً فيه». وفي لندن رأت فيهم السيدة تاتشر «كارثة تامة». وفي واشنطن ذكر تشيستر كروكر أن الرئيس بوثا «تحول جذرياً باتجاه طريق القمع» وفي بولسيمور كان مانديلا واثقاً من أن الغارات «قد سممت المحادثات كلياً».[35]

استسلم الأشخاص البارزون. تناولوا الغداء مع ويني مانديلا، وطاروا

إلى الوطن في ذلك المساء، عارفين أن مهمتهم لأربعة أشهر قد انهارت. وبعد ذلك بعشرة أيام سمعوا من بيك بوثا أن الحكومة رفضت «التهديد بالعنف كوسيلة مساومة»، وأنها ليست «مهتمة بالتفاوض حول نقل السلطة» وأجابوا أنهم لم يروا أية ميزة في المزيد من المناقشات. وهيأت أمانة سر الكومونولث تقريراً صريحاً (وقعه اللورد باربر بكره شديد، مما أثار امتعاض السيدة تاتشر) مُختتماً بتحذير رزين: «إذا كانت الحكومة تجد نفسها غير قادرة مع رجال أمثال مانديلا وتامبو، فإن مستقبل جنوب إفريقية كالح بالتأكيد».[36]

كان الرئيس بوثا الآن مصمماً على اتخاذ إجراءات صارمة كلياً؛ وفي 12 حزيران (يونيو) فرض حالة طوارىء على مستوى الدولة بأكملها، مانحاً الشرطة سلطات قاسية أكبر، حاصروا المنافذ، وقطعوا الطرق الرئيسية، وفتشوا البيوت واحتجزوا 4000 من السود في ثلاثة أسابيع. حذر ب. دبليو بوثا من أنه لم يستخدم بعد عشر القوة المتوفرة لديه، لكن هذا كان كافياً لنشر الذعر. وعندما كنت أزور جوهانسبورغ في ذلك الوقت وجدت أن زعامة السود إما كانت مختبئة أو في السجن. والتجمعات الوحيدة المسموح بها كانت في الكنائس: قام أسقف جوهانسبورغ ديزموند توتو بإلقاء موعظة هي عبارة عن خطبة قتالية في الكاتدرائية، سائلاً وذراعاه ممدودتان، «لماذا نسمح لهذا البلد بالدمار؟»[37] يبدو أن جميع الآمال بالمحادثات قد سحقت.

في ذلك الوقت بالذات قرر مانديلا اتخاذ موقف جديد. لم يتم التخلص منه باستخدام بوثا للقوة الوحشية. أصر على «أن أكثر اللحظات إحباطاً هي التوقيت لشن مبادرة». وشجعه أن الأشخاص البارزين اعتقدوا بوجود أرضية مشتركة كافية للمفاوضات.[38] إن نيل بارنارد رئيس جهاز الاستخبارات الوطني سيفيد فيما بعد أنه أعد فعلاً الطريق للمحادثات، وأنه منذ مطلع عقد الثمانين نصح جهاز الأمن الوطني الحكومة بأنه «ليس هناك فائدة من حسم الأمر بالقتال».[39] لكن مانديلا هو الذي قام بالخطوة الأولى ـ كما كان يذكّر مناوئيه

دوماً.[40] طلب رؤية ناظر السجون، الجنرال ويليمز (القائد السابق لروبن آيلاند) «من أجل قضية ذات أهمية وطنية قصوى». وبعد أربعة أيام طار ويليمز من بريتوريا لملاقاته في منزله الرسمي في بولسيمور. أخبره مانديلا أنه يريد رؤية ب. دبليو. بوثا لبحث اجتماع بين المؤتمر الوطني الإفريقي والحكومة. وبدهشة اتصل ويليمز فوراً بكويتسي الذي عرض رؤيته على الفور.

نُقل مانديلا بسرعة إلى سافيرنيك، المقر الرسمي لوزير العدل في كيبتاون، حيث كان كويتسي بانتظاره. واستمع الوزير بدقة، وسأل أسئلة دقيقة لمدة ثلاث ساعات: هل يستطيع مانديلا التحدث باسم المؤتمر الوطني الإفريقي. ضمن أي شروط سيوقف المؤتمر النضال المسلح؟ هل يقدمون ضمانات دستورية بالنسبة للأقليات؟ ما هي الخطوة التالية؟ لم يكن هناك شك لدى مانديلا حول ذلك: يجب أن يرى الرئيس بوثا. وعد كويتسي بإيصال الطلب، وصافح بحرارة. وأعيد مانديلا إلى زنزانته. لم يخبر أحداً عن الاجتماع، لكنه استعد لمزيد من المحادثات، مع الثقة بأن زملاءه سيقبلون بالأمر الواقع. لكن لم يسمع شيئاً لشهور.

كانت هناك علائم تشير إلى أن الحكومة كانت تعده لمزيد من الحرية. فنائب قائد السجن، الليفتنانت كولونيل غاوي ماركس ـ عرض أن يتجول به عبر كيبتاون، حيث رأى أول ومضة للحياة العادية منذ اثنين وأربعين عاماً، شاعراً وكأنه سائح في بلد غريب. «كان من اللافت الآسر مراقبة النشاطات البسيطة للناس في العالم: الرجال المسنون يجلسون تحت الشمس، النساء يقمن بالتسوق، الناس يتنزهون مع كلابهم». لكنه لاحظ أيضاً أن البيض كانوا يتمتعون بحياة أكثر غنى ورفاهية بعد سجنه لربع قرن في حين كانت المناطق السوداء أفقر من أي وقت مضى. وعندما ترك ماركس مانديلا بعد وقت قصير في السيارة ليشتري كوكاكولا، أُغري بالفرار إلى الغابات، لكنه أدرك الخطر بسرعة.[41]

حارس مانديلا جيمس غريغوري اصطحبه أيضاً في عدة نزهات خارج كيبتاون، تتبعه سيارة شرطة مع أربعة حراس مسلحين ببنادق أوتوماتيكية. نظروا إلى حدائق كيرستنبوش من السيارة، وزاروا مدينة الملح في لانجيبان، بل حتى ساروا على طول الشاطىء قرب المدينة الساحلية باترنوستر، في حين كان الحراس يراقبون عبر الطريق. وبعد أن تبول مانديلا خلف الصخور، مرت به مجموعة من السياح الألمان. واستدعاه غريغوري قائلاً: «لقد فاتهم لتوهم نبأ القرن». [42] ظن مانديلا أن النزهات كانت تهدف إلى أقلمته ـ وربما لجعله يتوق إلى الحرية، وبالتالي يتطلع إلى تسوية. لكنه كان على استعداد للانتظار.

سمح له الآن بالمزيد من زيارات العائلة والأصدقاء ـ بل «زيارات وصل» استطاع من خلالها تقبيل ويني ومعانقة الأولاد. لكن لم يكن هناك تحديد مرن لمعرفة متى سيراهم من جديد. وأولاده الذين أصبحوا الآن آباء، كبروا بعيداً عنه بعد خمسة وعشرين عاماً. فابنه ماكغاثو (أو كغاثو) استغنى عن زيارته عام 1983، بما أنه آثر المدرسة والجامعة. وبعد انهيار زواجه من ريني تزوج مرة أخرى. ثم ذهب ليبقى مع أمه إيفلين في الترانسكي ـ التي أخذها إلى هناك كايسر ماتانزيما، حيث ساعدها في إدارة مخزن تجاري. مانديلا كان أكثر طموحاً بالنسبة إلى مانديلا، ابن ماكغاثو الأكبر، الذي كان ماهراً في المدرسة في سوازيلاند، اعتقد أن مانديلا يجب أن يذهب إلى جوهانسبورغ، «حيث بإمكانه دراسة اللغات بسهولة أكبر» والبقاء بعيداً عن التلقين الديني الذي ربما يثبط التفكير الصافي، الذي هو ضروري لنجاح المرء. [43] (هل كان يفكر بإيفلين جدة مانديلا؟).

كانت ابنة مانديلا الكبرى ماكي (ماكازيوي) قد تزوجت من مدير مدرسة في الترانسكي، إسحاق آمواه. الذي أحضرته إلى السجن عام 1985، بعد ذلك بوقت قصير غادر كلاهما إلى أمريكا للدراسة ما بعد التخرج. قالت للنيويورك تايمز[44]: «أنا قلقة، لكنني لست سياسية». كانت أكثر حزماً من شقيقها

ماكغاثو، وشعرت أن والدها لم يقدرها حق قدرها. كتبت إليه في كانون الثاني (يناير) 1987: «ما المشكلة، هل أثر عليك التقدم في السن، أم أن صحتك تخونك. بحيث أنك لست في موقف تكتب فيه إلى ابنتك المحبوبة؟» طلبت منه التعاطف مع أطفالها والدفاع عن الاستقلال الذاتي لشقيقها: «يجب أن تمنحه الفرصة ليمارس حقه ومكانته كأب». وتابعت في شباط (فبراير) 1988: «أشك في أن ماكغاثو يشعر بالإهمال عاطفياً من قبل أبويه معاً».[45] كانت علاقتهم معقدة بسبب ويني، التي تشكت من أن أولاد زوجها كانوا عاقين. سأل مانديلا ماكي[46]: «لماذا ليس لديك الكياسة لتشكري ماما ويني على الأموال؟» لكن ويني كانت زوجة أب صعبة أكثر مما عرف مانديلا في السجن.

شعر بالمزيد من الثقة بخصوص زيني، ابنته الكبرى من ويني والمتزوجة من الأمير السوازي، والتي أصبح لها الآن ثلاثة أطفال. بدأت زيني دراساتها مع زوجها في جامعة بوسطن عام 1987، حيث دبر ذلك الرئيس المحافظ الجديد سيلبر. ودهشت لجهل الأمريكيين بلادها: كتبت إلى والدها: «بعضهم يعتقد أنها في مكان ما في الكاريبي، وآخرون يعتقدون أنها موجودة في مكان ما قرب نيجيريا. أعتقد حقاً أنه من غير العدل أن نعرف الكثير عن أمريكا». كانت ما تزال نصف تواقة إلى أن لا يكون لها أب مشهور. «لو عاد الأمر إلي ربما كنت شخصاً عادياً جداً يعيش حياة عادية في مكان ما في أرض غير معروفة. كنت أحلم دوماً أن أكون عارضة أزياء ـ أعتقد أنه كانت ستصيبك نوبة».[47]

كان مانديلا قلقاً على زندزي التي كانت عنيدة ومندفعة مثل والدتها، والتي لم تستطع مواجهة الجامعة. كتب لها وهو في حالة إحباط في أيار (مايو) 1987: «كنت أكثر من خائب عندما أبلغتني أمك بأنك لم تذهبي إلى الجامعة. وهذا من بين الأخطاء التي لا يمكن التحدث عنها والتي ارتكبتها في حياتك» قال لها بعد ستة أشهر: «ما فعلته خلال الشهور التسعة الأخيرة هو الأكثر شؤماً».

كان لديه عطف أكبر تجاه الجيل التالي، بمن فيه ابنة زندزي وهي زازي

قال لزندزي في آذار (مارس) 1985: «من المعقول جداً بالنسبة إلى زازي أن تدهش لرفضي مغادرة السجن. لكنها ستكون قريباً قادرة على تقدير الأسباب».[48] ساعدت عائلته المتكاثرة على التعويض عن جحوده في حقول أخرى. كتب إلى ماري بنسون في لندن عن المحسن إليه داڤيد آستور: تبجح قائلاً: «لدي اثنا عشر حفيداً، بينما لديه هو وبريدجيت خمسة فقط».[49]. بعد ذلك بعام كان يخبر فاطمة مير عن حفيديه العظيمين: «أخيراً أصبح لدي شيء وضعني في مرتبة أعلى منك بكل معنى الكلمة».[50]

كانت آفاق مانديلا تنفتح أكثر فأكثر، عبر المزيد من الزيارات، والصحف والأفلام. وشعر بالسرور عندما زارته فريدا ماثيوز أرملة صاحب بيته زرك البالغة من العمر ثمانين سنة في تشرين الثاني (نوفمبر) 1986 «بحرية تامة»؛ وشعرت في المقابلة بسرور لعدم شعوره بالمرارة أو الندم. كتبت إليه فيما بعد: «لم أستطع إلا التفكير بأن المسيح لا بد أنه كان له نفس الموقف بعد صلبه».[51]

كثيراً ما كان يتعزّى بمشاهدة الأفلام، لم يكن يحب أفلام رعاة البقر كثيراً. حيث كانت تعرض بين وقت وآخر في السجن، لكن صار باستطاعته الآن أن يطلب الأفلام المفضلة لديه من الخارج. عام 1986، ضمت اختياراته: شاكا زولو، باليه البولشوي، جوقة أطفال ڤيينا، كأس العالم لكرة القدم في المكسيك، قراصنة بينزانسية. عام 1975، بطولة العالم للوزن الثقيل بين محمد علي وجوي فريزر. كان حريصاً بخاصة على مشاهدة الملحمة الصينية لبرناردو بارتولوشي، وهي الامبراطور الأخير، ومنح في النهاية نسخة 16 ملم من الفيلم من قبل السفير الإيطالي يوم عيد ميلاده.[52]

إلا أن الأفلام لم تكن بديلاً عن الواقع في الخارج، حيث يستمر الاضطراب. ظل الرئيس بوثا يجدد لمدة أربعة أعوام حالة الطوارىء، وأسس «رجال أمنه» دولة بوليسية متمكنة أكثر؛ مع تمركز الجنود الدائم في المناطق، تعززهم شرطة بلدية جديدة وسفاحون يقظون. وهكذا شُلّت الجبهة

الديموقراطية الموحدة بشكل فعال بعد احتجاز 25,000 من أعضائها في ستة شهور، في حين أن 50,000 ناشط قيل إنهم كانوا مختبئين.[53] قال رئيس شرطة الأمن الجنرال ڤان ديرميروي للسفير البريطاني روبن رينويك «في هذه المرة اعتقلنا جميع الذين يجب اعتقالهم».[54]

برغم مستوى القمع، بقيت هناك مقاومة عنيفة. فالجبهة الديموقراطية الموحدة طرحت زعماء جدداً وخططت لاحتجاجات كان من الأصعب قمعها، بما في ذلك مقاطعة المحلات التجارية ودفع الإيجارات. والمؤتمر المنشأ حديثاً لنقابات عمال جنوب إفريقية كان يستعرض عضلاته: ففي آب (أغسطس) 1987 شن عمال المناجم برئاسة زعيمهم سيريل رامافوزا إضراباً لثلاثة أسابيع. كان عرضاً للقوة، على الرغم من فشله في تحقيق مطالبه. وكما قال رامافوزا بعد ذلك: «أحسسنا بالقوة تسري في عروقنا».[55] وفي الشهر ذاته أنشئت منظمة شباب ناشطين سميت سايكو، يقودها الناشط الشاب بيتر موكابا، وهو خريج روبن آيلاند.. وأصبح رؤساء الكنائس معبرين أكثر فأكثر بزعامة ديزموند توتو، الذي أصبح أول أسقف أسود لكيبتاون عام 1986. وصار المقاتلون الفدائيون من المؤتمر الوطني الإفريقي يحققون الآن نجاحاً أكبر، حيث شنوا 231 هجوماً داخل جنوب إفريقية عام 1986 ـ 1987، حسب إحصائيات الشرطة.

لكن الجبهة الديموقراطية الموحدة ضعفت ضعفاً خطيراً بسبب الاعتقالات. ففي آب (أغسطس) 1987 تم اعتقال الناطق الرئيسي باسمها ميرفي موروبي بعد عام من الفرار. وفي شباط (فبراير) عام 1988 حُظرت الجبهة مع سبع عشرة منظمة أخرى.

ونشرت الحكومة عنف «الأسود على الأسود» لتظهر أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان مسؤولاً عن الفوضى. وقرر رجال الأعمال البيض الذين كانوا يخشون من جيشان كبير، قرروا بارتياح أن الحكومة كانت تسيطر أخيراً.

واعتقد الكثير من المراقبين بمن فيهم عالم السياسة المحترم توم لودج أن التمرد تم سحقه.[56]

وبدا المؤتمر الوطني الإفريقي الآن أيضاً وقد تحداه حزب باثيليزي من الزولو إنكاثا، وأدى التنافس بين المنظمتين إلى تصاعد القتل والأعمال الشريرة من الطرفين. وما زال باثيليزي يصور مانديلا صديقاً، ودعا صراحة إلى إطلاق سراحه، إلا أنه ندد بحملة «أطلقوا سراح مانديلا» بوصفها وسيلة للتحايل، وحذر الجيش في السر بأنه سيكون «عديم المسؤولية» في حال الإفراج عنه.[57] وعام 1986 أعلن باثيليزي أنه سُمِحَ له بزيارة مانديلا في بولسيمور. وأجاب مانديلا بلباقة ولكن بحزم عن طريق محاميه إسماعيل أيوب إنه من الأفضل أن يكون اللقاء بعد إطلاق سراحه.[58]

داخل إفريقية، تمت تهيئة باثيليزي منافساً خطيراً لمانديلا. سمح له بالوصول إلى التلفاز والصحافة، وكان حراً في السفر إلى الخارج. واستأجر مستشاري علاقات عامة، ودعا الصحفيين المحافظين لعاصمته يولونديي، وهي عاصمة الزولو؛ ورحب بالمؤيدين الأجانب الأغنياء. وأرسل مجلة مصقولة لامعة سميت دعوة كلاريون إلى شتى أنحاء العالم. ناشراً كلماته الطويلة. وأصبحت آلية انتشاره فعالة أكثر من تلك الخاصة بالمؤتمر الوطني الإفريقي، حيث كان يمكن لشخصياته الرسمية المحصنة في لوساكا أن تُغضب أكثر الصحفيين الأجانب تعاطفاً، الذين وجدوا من الصعب الوصول إليهم؛ حتى النيويورك تايمز أبقيت في إحدى المرات تنتظر في لوساكا لثلاثة أيام.[59] ومجلة المؤتمر الوطني الإفريقي - سيشابا - التي طبعت على ورق رديء في ألمانية الشرقية، كانت موجهة إلى اليسار فقط. والاتصالات المتقطعة للمؤتمر الوطني الإفريقي، أدت بالعديد من الصحفيين والسياسيين الأجانب إلى الاستخفاف بالدعم الشعبي الحقيقي له.

أصبح باثيليزي المفضل لدى المحافظين الغربيين. وتم الترحيب به في

أمريكة وألمانية كالبديل المرغوب به لتامبو ومانديلا، في حين أنه في شباط 1985 استقبله الرئيس ريغان. لكن مارغريت تاتشر، بعد لقائه مع ناصحها الخاص لورينز ڤان ديربوست، هي التي أصبحت أكبر حليف ذي نفوذ له فيما وراء البحار، مرحبة به كبطل للاستثمارات الحرة، ومشجعة رجال الأعمال على وضع آمالهم فيه. امتدحته «كمناوىء شجاع لانتفاضة العنف»، في حين اعتقد وزير خارجيتها جيوفري هاو أنه «واضح البصيرة إلى حد كبير لكنه مستقل بحزم».[60]

لم تتضح الحقيقة الكاملة إلا بعد سبع سنوات؛ وهي أن حكومة بريتوريا كانت تسلح قوات الزولو تسليحاً منظماً ضد المؤتمر الوطني الإفريقي. ووجدت (بعثة الحقيقة والمصالحة عام 1998) أن باثيليزي قد تآمر مع الرئيس بوثا ووزير دفاعه مانغوس مالان «لإنشاء قوة شبه عسكرية هجومية وخارجة عن القانون لنشرها ضد المؤتمر الوطني الإفريقي». مطلع عام 1986، ظهر أن باثيليزي اختار مئتين من جنود الإنكاثا للتدريب السري قرب قطاع كابريفي في الجزء البعيد من ناميبيا، حيث علمهم جيش جنوب إفريقية كيفية استعمال الصواريخ ومدافع الهاون والقنابل اليدوية وترويع الجماعات: بما فيها كيفية مهاجمة البيوت بهدف قتل جميع الساكنين.[61] وبينما كانت الحكومة تأسف علنياً للعنف، كانت قواتها الأمنية بالذات هي التي تلهب النيران، بتسليح وتشجيع الزولو على مهاجمة مؤيدي المؤتمر الوطني الإفريقي.

وفيما وراء الستار، كانت الحكومات الغربية والرئيس بوثا ذاته، يشرعون بقبول أنه ليس هناك حل دون التوصل إلى اتفاق مع المؤتمر الوطني الإفريقي - وإطلاق سراح مانديلا.

25

الزعيم الضائع

1987 ـ 1988

بينما أصبحت جنوب إفريقية أقرب إلى الحرب الأهلية من أي وقت مضى، فإن النداء لإطلاق سراح مانديلا تردد عبر العالم. كانت مقاطعة التمييز العنصري تنتشر، والحملات لعدم الاستثمار والعقوبات كانت تعمل بفعالية. وقضية جنوب إفريقية كانت تلقى انتشاراً أوسع، عبر برامج التلفاز والأفلام، وعروض المسارح، بما فيها فيلم ريتشارد أتينبورو عن ستيف بيكو «نادوا بالحرية (1987)» ومسرحية «اضربوا سارافينا» في برودواي (1988) عن فتاة طالبة كانت تعبد مانديلا.

كان مانديلا أكثر سجناء العالم شهرة، ورومانسية أكثر فأكثر، لأن أياً لم ير وجهه منذ ربع قرن: لم تنشر صورة جديدة له منذ عام 1965. وأيقونة مانديلا التي كانت حرة في التطور كرمز المقاومة البطولية للقمع، بعيدة جداً عن الحقيقة الفيزيولوجية. وأيقونته المعممة بدت وهي تتجاوز جميع المنافسات الطائفية والوطنية لإفريقية. وأصبحت تمثل الزعيم الأسود العالمي، آخر مقاتلي الحرية العظماء. وتمثلت الأيقونة بأكبر من التمثال النصفي الحي حيث أزاح الستار عنها أوليڤر تامبو بجانب قاعة الاحتفالات الملكية في لندن عام 1985: فالشفاه الكبيرة والرأس الكثيف الشعر لا تشبه وجه مانديلا المرهف.. وأُبلغ جيل كامل من الأطفال عن مانديلا كالبطل المتوحد للحرية، المعروف بأسماء الشوارع والأغاني والحفلات الموسيقية. هم لم يعرفوا شيئاً عن الرجل الفعلي

في بولسيمور، ، الذي يتصارع مع حقائق معقدة، هل يمكن لمانديلا الحقيقي أن يعيش الأسطورة إذا ما ظهر في يوم من الأيام.

ساعدت الحملات ضد التمييز العنصري في الغرب، ولا سيما مقاطعة البنوك، ساعدت كثيراً في توسيع العقوبات. وكانت الحكومتان البريطانية والأمريكية ما تزالان ترفضان المعركة الفاصلة في بريتوريا، وتأثرتا جداً باللوبي المحافظ الذي استمر في شجب المؤتمر الوطني الإفريقي شجب إرهابيين أو شيوعيين. لكن الانقسامات بدأت تظهر.

في واشنطن، كان وزير الخارجية جورج شولتز وخبيره الإفريقي تشيستر كروكر يفقدان الصبر مع بريتوريا؛ إلا أنهما شعرا بالإحباط من البيت الأبيض لرونالد ريغان ورئيس الاستخبارات المركزية الأمريكية ـ السي. آي. إيه ـ ويليام كيسي، الذي كان على علاقة صداقة مع الرئيس بوثا، والذي عمل عن كثب مع استخبارات جنوب إفريقية. وعندما أعد كروكر كلمة شديدة اللهجة ضد التمييز العنصري لريغان في تموز (يوليو) 1986، أعيدت كتابتها من قبل مساعده اليميني بات بوكانان بحيث تؤكد على التضحيات التي قدمها الإفريقيون الجنوبيون البيض، وتلقي اللوم في إعلان الطوارىء على «الإرهاب المحسوب من قبل عناصر المؤتمر الوطني الإفريقي». لقد فقدت وزارة الخارجية وبشكل فعال السيطرة على الديبلوماسية الأمريكية. وأسماها كروكر «أكبر لصوصية للسياسة الخارجية للعام 1986»، وتوجب كبح شولتز عن الاستقالة.

لكن الكونغرس، ولي البيت الأبيض هو الذي كان يصنع السياسة الخارجية. بعد ذلك بوقت قصير. في آب (أغسطس) 1986، اقترع مجلس الشيوخ بنسبة 84 إلى 14 لقائمة عقوبات شاملة تفرض الحظر على قروض الاستثمارات الجديدة وحقوق الهبوط في المطارات، وتصدير النفط. كانت تلك ضربة حقيقية لبريتوريا، حيث أغلقت التجارة الدولية في المستقبل. وعندما رأى شولتز تامبو أخيراً ولأول مرة، في كانون الثاني (يناير) 1987، أبلغه

أنه لا يريد للمؤتمر الوطني الإفريقي أن يصبح معزولاً مثل منظمة التحرير الفلسطينية. وأكد له أن على بريتوريا في النهاية التعامل مع المؤتمر الوطني الإفريقي وحذره من أن السوفييت كانوا «الخاسرين بالتأكيد» وطلب تامبو من شولتز عملاً مشتركاً من واشنطن وموسكو ضد بريتوريا.[1] وسببت أنباء اللقاء تشجيعاً إضافياً لمانديلا في السجن.

ووضع التشوش في واشنطن المزيد من التأكيد على دور السيدة تاتشر؛ فهي في موقف أقوى من ريغان للتأثير على بوثا، لكنها بقيت مصممة على مقاومة العقوبات. وعلى الرغم من «الكارثة الكاملة» لمهمة الأشخاص البارزين، في تموز (يوليو) 1986، فقد أصرت على إرسال وزير خارجيتها الرافض جيوفري هاو، ممثلاً المجموعة الأوربية إلى جنوب إفريقية لمحاولة المصالحة مرة أخرى. لكن المؤتمر الوطني الإفريقي، ومن ضمنه مانديلا وتوتو، رفض رؤيته؛ وكان الرئيس بوثا هجومياً وفي مزاج سيِّىء، حيث ألقى محاضرة على هاو بأنه «لن يجبر الجنوب إفريقيين على ارتكاب انتحار وطني». وعندما واجهت السيدة تاتشر في آب (أغسطس) عام 1986 اجتماعاً خاصاً للكومونولث في لندن كانت الورطة واضحة: «حكومة بوثا لم تقم حتى ذلك الوقت بالقفزة الصغرى التي نتطلع إليها جميعاً». هذا ما كتبه هاو فيما بعد». كان مانديلا وزملاؤه ما يزالون في السجن، والمؤتمر الوطني الإفريقي وما شابهه ضمن الحظر».[2]. والسيدة تاتشر ما زالت تقاوم العقوبات، متشجعة بغداء سابق مع لورينز ڤان ديربوست، وأصرت على أن التمييز العنصري «يموت بسرعة على الأقل إن لم يكن ميتاً».[3] لكن توجب عليها قبول سلسلة من العقوبات وافقت عليها المجموعة الأوربية ضمت حظراً على الاستثمارات الجديدة.

استمرت في حث بوثا على إطلاق سراح مانديلا، إلا أنها اعتبرت اعتقاله قضية منفصلة عن الاعتراف بالمؤتمر الوطني الإفريقي، وهذا ما رفضت القيام به حتى ذلك الوقت. وبحلول شباط (فبراير) 1986 فقط سُمح للدبلوماسي

البريطاني جون جونسون بالاجتماع إلى ثلاثة رسميين في المؤتمر الوطني الإفريقي (بمن فيهم ثابو مبيكي) في لوساكا.[4] ولم يسمح لجيوفري هاو بالتحدث إلى تامبو إلا بحلول أيلول (سبتمبر) 1987. وحدث اللقاء في تشيفيننغ المقر الريفي الرسمي لوزير الخارجية.

كان تامبو ـ بلباسه المخيط جيداً ـ مهذباً ومعتدلاً، لكنه كان حذراً جداً ومتشائماً بشأن أي تغيير، وقلقاً بشأن إزعاج حزب التوري (المحافظين). اتفقا بتهذيب على الاختلاف ـ بصفتهما محاميان ـ حول قضية العنف.[5]

في تموز (يوليو) 1987 عينت السيدة تاتشر سفيراً أكثر فعالية إلى بريتوريا؛ روبن رينويك الذي سيلعب دوراً معقداً خلال السنوات الأربع المقبلة. وبوصفه رجلاً حاذقاً وجذاباً وذا ابتسامة مبهمة، فقد كانت لديه معلومات جيدة عن إفريقية، حيث ساعد في التفاوض بشأن استقلال زيمبابوي عام 1979. وفي سره، كان يرى أن المؤتمر الوطني الإفريقي حاسماً بالنسبة لأية تسوية، وبقي على اتصال به سراً من خلال الوسطاء مثل إينوس مابوزا.[6] لكن تاتشر منعته من الاعتراف علناً بالمؤتمر الوطني الإفريقي ـ وسار قدماً مع تأييدها لبوثيليزي. وكانت مهمة رينويك الرئيسية ـ كما أبلغته تاتشر ـ هي حث الرئيس بوثا على الإصلاح، لكن لقاءه الأول لم يكن مشجعاً. وتم استقباله أخيراً، كما قال، «في مكتب للدراسة مضاء بمصباح المقعد فقط، مستحضراً صور ما كان يجب أن يكون، مثل زيارة هتلر في غرفته المحصنة تحت الأرض». ظهر بوثا وكأنه غير قلق بشأن العقوبات، لكنه خائف من فقدان السيطرة على البلاد: ليست لديه النية بإطلاق سراح مانديلا، كما قال، ما لم يكن مريضاً مرضاً خطيراً. اعتقد رينويك أن بوثا سيقاتل حتى النهاية، ورأى القليل من الفرصة في التأثير عليه.[7]

ما زالت السيدة تاتشر تقف ضد المؤتمر الوطني الإفريقي. ففي قمة الكومونولث التي تلت، في فانكوڤر في تشرين الأول (أكتوبر) 1987، استفزها ممثل المؤتمر الوطني الإفريقي جوفي ماكاتيني بسؤال، وردت «بأن المؤتمر

الوطني الإفريقي كان «منظمة إرهابية بكل معنى الكلمة».[8] وشعر الديبلوماسيون البريطانيون بالسخط من تفجرها. وتشكى جيوفري هاو بأنها «أرجعت الأمل بالحوار مجدداً إلى الوراء». وتوجب على رينويك أن يذكّر داوننغ ستريت بأنه يطور اتصالات سرية مع المؤتمر الوطني الإفريقي. ـ واستمر في القيام بها بهدوء ـ وكان عملاء الاستخبارات البريطانية في لوساكا يصادقون زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي.[9] كان تحويل تاتشر المؤتمر الوطني الإفريقي إلى شيطان قد ساعد دعاية بوثا، في حين أحبط المعتدلين في المؤتمر بمن فيهم تامبو، الذي أراد إقامة اتصالات أوثق مع المحافظين وزعماء الأعمال في الغرب. علق رئيس وزراء جامايكا المحافظ إدوارد سيغا بعد اجتماع فانكوفر بقوله: «إذا استمرت في تسميتهم بالشيوعيين فهذا سيكون تحقيقاً للذات».[10]

في الحقيقة، إن الخطر السوفييتي القديم في إفريقية ـ على حاله تلك ـ كان يتبخر بسرعة، «إن جنوب إفريقية ـ عملياً ـ هي خارج منطقة الاهتمام الرئيس للاتحاد السوفييتي فهي في المرتبة الثانوية». هذا ما كتبه فرانك وايزنر، نائب المساعد لشؤون إفريقية في واشنطن في كانون الثاني (يناير) 1984.[11] وبعد أن جاء ميخائيل غورباتشيف إلى السلطة عام 1985 أدرك سريعاً أنه لم يعد بمقدور الاتحاد السوفييتي تحمل مغامرات مكلفة في إفريقية. وأخبر ريغان في قمة ريكجافيك في تشرين الأول (أكتوبر) 1986 أنه يرغب في التراجع عن الصراعات الإقليمية. وعام 1986 اجتمع السفراء البريطانيون في إفريقية لأول مرة مع نظرائهم السوفييت، ودهشوا للمناخ الجديد من الانفراج والابتعاد ـ وهذا ما برز سريعاً في التعاون الواعد باتجاه الاستقلال في ناميبيا. أما بالنسبة إلى جنوب إفريقية، فكانت موسكو تسحب دعمها السابق للثورة. «في الماضي كان من المفترض دوماً أنه ستكون هناك إطاحة ثورية (كلاسيكية) بنظام الأقلية البيضاء كما قال بوريس آسويان، نائب رئيس قسم جنوب إفريقية في موسكو عام 1988: «الآن نقبل أنه يجب أن تكون هناك تسوية سياسية».[12]

كان الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي ذاته يعيد النظر بسياساته الثورية. ففي ذكراه السنوية الخامسة والستين في لندن 1986، أذهل الرئيس جوي سلوفو رفاقه البريطانيين الثوريين بالتحذير من «فلسفة بول بوت»، التي تفيد أن باستطاعتكم «القفز إلى الاشتراكية والشيوعية في اليوم الذي يلي الإطاحة بالحكم الأبيض». وفي اليوم التالي شرح لي: «لم أؤمن أبداً أن مهمة الثوري هي صنع ثورة؛ بل قيادتها فقط. . . لم أستسغ أبداً تصاعد العنف».[13]

ومن سجنه، تابع مانديلا مظاهر الانفراج بآمال كبيرة. كان قد اعتقد منذ وقت طويل أن الحرب الباردة أشرفت على النهاية، كما قال لابنته زندزي عام 1978. وسره لقاء غورباتشيف الودي مع السيدة تاتشر في كانون الأول (ديسمبر) 1984 وبإمكانية لقائه مع ريغان، كما قال للورد بيثيل وسام داش. وعام 1987 استمتع ببرنامج تلفازي ناقش فيه بروفيسوران كانا يزوران جنوب إفريقية، روجر فيشر من هارفارد وجون أريكسون من إدنبورغ، ناقشا التغييرات داخل روسيا، مع أن أكاديمياً من جنوب إفريقية، ديرك كنيرت، من ويتس «بدا مثل شبح السيناتور مكارثي».[14]

كان تامبو قد تشجع في موسكو عام 1986، بمحادثة مع غورباتشيف، الذي وجد لديه معلومات جيدة، ووجده منفتحاً أمام النقاش؛ هو أقرب إلى كيسينجر منه إلى بريجينيف. لم يشعر تامبو أبداً بالضغط لاتباع سياسات ماركسية: قبل ذلك بعام علق أحد كبار الرسميين السوفييت لأول مرة على السياسة الاقتصادية للمؤتمر الوطني الإفريقي، بنصحه بممارسة توكيد أقل على التأميم ـ وهذا ما أدهشه جداً. لم يعتقد تامبو ذاته أبداً أن الإفريقيين الجنوبيين السود سيعتنقون الشيوعية. قال سراً في نيويورك في كانون الثاني (يناير) 1987 «شعبنا سيقرر وهو ليس مهتماً جداً بدولة اشتراكية. ويعلم الشيوعيون أنهم مجرد مجموعة بين الكثير من المجموعات».[15]

كان منطق بريتوريا عن «المذبحة الشيوعية الكاملة» يبدو فارغاً جداً. إلا أن ريغان وتاتشر استمرا في إبراز (البعبع) الشيوعي، حيث ساعد ذلك على تشجيع قسوة الرئيس بوثا وإفزاع رجال الأعمال والسياسيين الغربيين من أي اتصال مع المؤتمر الوطني الإفريقي. وكان الخطر مأساوياً أكثر في ضوء حاجة المؤتمر الوطني الإفريقي الواضحة إلى الإدارة والمهارات المهنية، وهذه حاجة أصبحت أكثر إلحاحاً لدى مواجهتهم احتمال الوصول إلى السلطة. إن رغبة تامبو في ضمان التدريب والخبرة في العمل للشبان من المؤتمر الوطني الإفريقي، وتهيئتهم للحكومة والأعمال، أدت أواخر عام 1986 إلى قيام مشروع جنوب إفريقية للتعليم العالي. وتأسس هذا المشروع من قبل بعض المانحين من ذوي النظرة البعيدة، بمن فيهم مؤسسة الأخوة روكفلر، ديڤيد آستور وشل (كان من السخرية بمكان أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان يقاطعهما) إلا أن الحكومتين البريطانية والأمريكية لم تقدما أية مساعدة.

في الواقع ـ عدم الاتصال الواضح بين المؤتمر الوطني الإفريقي والأفريقانيين لم يكن كاملاً كما كان يبدو. ففي حين استمر بوثا وتاتشر في هجومهما على الثوريين الشيوعيين. كانت بعض الهيئات غير الحكومية من أصحاب المشاريع تقيم جسوراً سرية وعدت بتغيير المشهد السياسي. كانت مؤسسة فورد في نيويورك برئاسة رئيسها الأسود فرانكلين توماس، كانت مسؤولة عن حدوث اختراق ملموس. ففي حزيران (يونيو) 1986 رتبت لقاء سرياً بين أفريقانيين ـ بمن فيهم بييتر دولانج رئيس جمعية برويدربوند ذات النفوذ ـ وزعماء من المؤتمر الوطني الإفريقي ضموا ثابومبيكي، مال ماهاراج، ومقاتل لاهب من أجل الحرية سيريتسي تشوبي. وعندما واجه تشوبي دولانج قفز على قدميه وصاح: «سوف أطلق النار عليك، برويدربوندر». طلب ماهاراج بلباقة من الأفريقانيين أن يتفهموا جذور غضب تشوبي؛ انتهى المؤتمر نهاية مؤثرة حيث اعتذر تشوبي وعانق دولانج. وتلاقى ثابو مبيكي بعد ذلك مع

دولانج في غداء خاص طويل، مما ترك الأفريقاني كما قال مبيكي: «برؤية طبيعية للمؤتمر الوطني الإفريقي بوصف أعضائه كائنات بشرية». [16]

تم بناء جسر آخر من قبل فريديريك ڤان زيل سلابيرت، الزعيم السابق للمعارضة الليبرالية، الذي غادر البرلمان في شباط (فبراير) 1986، وعندما دعا إلى تسوية تفاوضية، قال أمين السر العام للمؤتمر الوطني الإفريقي ألفريد نزو «لقد اختلف مع تقليد الأفريقاني والزعامة البيضاء الذي كرس العرقية». في آب (أغسطس) 1987 نظم سلابرت لقاء في داكار في السينغال حيث التقى خمسون من المفكرين الأفريقانيين بزعماء المؤتمر الوطني الإفريقي وأصدروا بياناً مشتركاً يدعو إلى تسوية بالتفاوض وإلغاء حظر المؤتمر الوطني الإفريقي. ورد الرئيس بوثا بغضب واضح: «المؤتمر الوطني الإفريقي يستعرض عضلاته أمام بساطة «البلهاء المفيدين». وفي الحقيقة فإن جهاز الاستخبارات الوطني ساند اللقاء سراً. وكما شرح فيما بعد مديره نيل بارنارد: «اعتقدنا أنه لن يكون هناك حل سياسي بدون المؤتمر الوطني الإفريقي». وشرح بوثا أنه سعيد من أجل «حرقهم أصابعهم». [17]

كانت بعض الشركات الكبرى تشعر أيضاً بالحاجة لترسيخ نفسها. فشركة المناجم القديمة العهد غولد فيلدز، سيسيل رودس، ما زالت تقف موقفاً رجعياً بزعامة رئيسها رودولف آغنيو في لندن: احتفلت بالذكرى المئوية عام 1987 بتاريخ من قبل المؤرخ اليميني بول جونسون، الذي أغضبه المؤتمر الوطني الإفريقي «للعنف المنظم». [18] لكن وراء هذا الغضب كان آغنيو قد وافق في حزيران (يونيو) 1986 على تحويل الاجتماعات السرية، التي نظمها مستشاره السياسي مايكل يونغ للتقريب بين الأفريقانيين والمؤتمر الوطني الإفريقي. وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1987 التقى فريق من المفكرين الأفريقانيين مع مجموعة من المؤتمر الوطني الإفريقي في فندق كومبليت آنغلر في هينلي، في أوكسفور شاير.

وعبر السنتين التاليتين حدثت لقاءات أخرى أسست الثقة بين

المجموعات، ضمت سريعاً ثابو مبيكي.[19] وفي حين كانت تاتشر تندد بالمؤتمر الوطني الإفريقي بوصفه إرهابياً، كان الأفريقانيون العنيدون يتعلمون التعامل معه.

وحتى هجمات الرئيس بوثا على مانديلا لم تعد كما كانت تبدو. فعام 1987 استجاب وزير العدل كوبي كويتسي على الأقل لطلب مانديلا بإجراء محادثات، عن طريق دعوته إلى مقره الرسمي في كيبتاون. وأبقي اللقاء سراً عن السجناء الأربعة الآخرين في بولسيمور، إلا أن سجانهم الصديق كريستو براند لم يستطع مقاومة التحدث إلى كاثرادا، ملمحاً إلى حركات مانديلا السرية. «لا أستطيعع إخباركم من رأى مانديلا الليلة الفائتة»، لقد ضايقهم لكنه كشف في النهاية أنه كان وزير العدل.[20] كويتسي لم يكن موضع ثقة تامة من قبل الرئيس بوثا الذي قال عنه فيما بعد «كان رجلاً، صغيراً مضحكاً. كنت أشعر دوماً بعد الحديث معه أنها مسألة تشوش مقيتة».[21] لكن بوثا كان بحاجة إلى كويتسي لإخراجه من زاويته، ، حيث استمرا في الصلة بينهما.

وهكذا بدأت أطول مرحلة لمحنة مانديلا في البقاء وحده. ومن الشائع جداً في تاريخ العالم بالنسبة إلى رؤساء الحكومات أن يحافظوا على مواقف متصلبة واضحة تجاه أعدائهم في حين يعقدون محادثات سرية معهم؛ كما فعل نيكسون مع الفيتناميين، أو كما فعل جون ميجر بعد ذلك بوقت قصير مع الجيش الجمهوري الإيرلندي، إلا أن مانديلا خاصة كان في وضع مكشوف.. إذ كان يواجه الحكومة وحده، وهو عارف أنهم يحاولون تفريقه عن زملائه، الذين لم يستطع إقناعهم بآرائه.. ومن زنزانته، صار الآن منغمساً بمحادثات دقيقة، متقاطعة مع محادثات أخرى في بريتوريا، ولوساكا، وبريطانية، لم يكن من الملائم اطلاعهم عليها. فخطوة واحدة خاطئة يمكن أن تدمر زعامته.

صار كويتسي الآن يتطلع بوضوح إلى طريقة لإطلاق سجينه المشهور: وبين عامَيْ 1987 و1990 التقى اثنتي عشرة مرة بمانديلا في السجن.[22] وحثه

مانديلا على إطلاق سراح زملائه كخطوة أولى، بدءاً بـ غوفان مبيكي الذي كان يبلغ الآن السابعة والسبعين، وفي صحة سيئة في روبن آيلاند. والحكومة التي أقلقها احتمال موت مبيكي في السجن، أطلقت سراحه فيما بعد بدون شروط في تشرين الثاني (نوفمبر) 1987، «على أسس إنسانية» كما افترض، لكن كان ذلك أيضاً لاختبار رد الفعل العام. كان مانديلا قد نصح مبيكي أن يتصرف بضبط نفس، لكنه تم الترحاب به من قبل تجمعات كبيرة من الحشود المبتهجة، وقدم نفسه علناً كزعيم في المؤتمر الوطني الإفريقي. بعد ذلك بثلاثة أسابيع وضع تحت الإقامة الجبرية لمدة 12 ساعة، ونقل إلى بورت إليزابيث.

وتشكى آمر الشرطة من أنه كان يشجع الشبان على الاستمرار في النضال وتزويد المؤتمر الوطني الإفريقي بمنبر.[23] وفي لوساكا أدرك المؤتمر الوطني الإفريقي أن «شيئاً ما سار بطريق الخطأ» وأن النظام يشعر بالرعب، مما يحتمل أن يلغي إطلاق سراح مانديلا. لكن كما قال تامبو: «إذا أطلق سراح مانديلا، لا يمكن أن يوافق على أن لا يقول شيئاً».[24]

كانت الحكومة تأمل بوضوح أن إطلاق سراح مبيكي يمكن أن يحدث شرخاً بين الجناح الماركسي للمؤتمر الوطني الإفريقي والمعتدلين؛ وكان هناك توتر أكبر بالتأكيد. فقبل أن يغادر مبيكي روبن آيلاند كان مانديلا قد أخبره وحده أنه كان يتحادث مع الحكومة، بدون إعطاء أية تفصيلات[25]؛ وتبع إطلاق سراح مبيكي سريعاً موجة من الشائعات بأن مانديلا كان يخون رفاقه، حيث ترددت عبر العامين التاليين. وحتى تامبو في لوساكا بدا مذهولاً. لكن مانديلا استمر في التحادث مع الحكومة واثقاً من أن تامبو سيتفهم؛ وأبقى تامبو الحزب متماسكاً.

أواخر عام 1987 اقترح كويتسي أن مانديلا يجب أن يشرع في مناقشات أكثر جدية مع فريق من أربعة أشخاص يترأسه هو ويضم الرسميَّيْن الرئيسين ـ اللذين يمكن أن يتظاهرا بالتحدث عن ظروف السجن. لكن العضو الرئيسي

سيكون رئيس جهاز الاستخبارات الوطني الدكتور نيل بارنارد، البالغ السادسة والثلاثين فقط، والمقرب من الرئيس. . كان جهاز الاستخبارات الوطني قد قام فعلاً باتصال تجريبي مع المؤتمر الوطني الإفريقي في جنيف عام 1984. وبقي على اتصال متقطع بموافقة بوثا. وكان بارنارد واثقاً من أن صفقة يجب أن تتم مع المؤتمر الوطني الإفريقي «قبل أن تصبح ظهورنا إلى الحائط».[26]. عرف مانديلا أن اشتراك بارنارد في المحادثات سيزيد من المخاطر؛ إلا أنه لم يرغب في استعداء الرئيس، الذي كان هدفه النهائي. لذلك وافق على الاجتماع «بالفريق» كما هو في حين أصر على التشاور أولاً مع زملائه الأربعة في السجن في الطابق الأعلى. سألهم منفصلين الواحد بعد الآخر، عن رأيهم بشأن التحادث مع الحكومة، دون أن يلمح إلى بارنارد وفريقه. كان ريموند مهلابا وآندرو ملانجيني مسرورين: فقد رغبا في المحادثات منذ وقت طويل. وأراد سيسولو الانتظار حتى تقوم الحكومة بالخطوة الأولى، وارتاب بخطة ماكرة لاستخدام باثيليزي والآخرين ضد المؤتمر الوطني الإفريقي؛ أخبر مانديلا أنه يأمل في أن يعرف ماذا يجري. أما كاثرادا فكان أكثر قلقاً: اعتقد أن المؤتمر الوطني الإفريقي ربما يظهر وكأنه يستسلم. لكن مانديلا لم يفكر أبداً أنه يتحدث من موقف ضعف، وسار قدماً.[27]

لاقت رغبة مانديلا بالمحادثات صدى جزئياً من تفكير جديد من المؤتمر الوطني الإفريقي في لوساكا، ومن الحزب الشيوعي. قال جوي سلوفو في مقابلة عميقة في آذار (مارس) 1987، «اعتقد أن عملية الانتقال في جنوب إفريقية ستأتي عبر المفاوضات، إذا كان هناك أي احتمال لتسويتها سلمياً غداً، فسنكون أول من يقول دعونا نفعل ذلك».[28] لكن المؤتمر الوطني الإفريقي كان قلقاً من أن القوى الغربية وكذلك بريتوريا لديها جداول أعمال مخبأة، ورأى دلائل تشير إلى أن سياسيي أمريكة وبريطانية وألمانية يعدون خطتهم بالذات التي سيحاولون إجبار المؤتمر الوطني الإفريقي على قبولها؛ وتلقى أيضاً

زيارات من وسطاء غير معروفين في السابق، بمن فيهم ألان وينستين، وهو بروفسور محافظ من جامعة بوسطن (التي لها ارتباطات مع وكالة الاستخبارات المركزية) حيث اقترح محادثات غير رسمية مع وزارة بوثا. في تشرين الأول (أكتوبر) 1987 طرح المؤتمر الوطني الإفريقي وثيقته بالذات: «رد محتمل لمبادرة المفاوضات». كررت الوثيقة الهدف الأكبر: «هزم نظام التمييز العنصري وانتقال السلطة إلى جميع أفراد الشعب». لكنها أكدت أن عليهم أن «يستعدوا، في الوقت المناسب، للاحتمال الممكن للمفاوضات، التي تشرع بها قوى أخرى غيرنا».[29]

صار زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي في المنفى يقومون الآن باتصالات أوثق مع زملائهم في الجبهة الديموقراطية الموحدة داخل جنوب إفريقية. في أيلول (سبتمبر) 1987 وفر «مؤتمر أطفال» في هراري، زيمبابوي، أول فرصة لتامبو وزعماء لوساكا، بمن فيهم جوي سلوفو، للالتقاء بناشطين طاروا من جنوب إفريقية. كان المناخ السائد مسيحياً أكثر من كونه شيوعياً: وأشرف على المؤتمر الأب هادلستون من لندن، مع ناشط الكنيسة اللامع فرانك تشيكين من جوهانسبورغ. توقع هادلستون أن يلفت المؤتمر الانتباه إلى معاناة الأطفال السود؛ لكنه وفر أيضاً اتصالات فذة بين الزعامة في الخارج والداخل. تحدث تامبو بتفاؤل، حيث شجعه الالتقاء مع الأفريقانيين في داكار، إلا أنه لم ير أية إشارات تحرك من جانب ب. دبليو. بوثا، الذي ما زال يصم المؤتمر الوطني الإفريقي بأن أعضاءه قتلة ماركسيون.[30]

وراء الستار أظهر تامبو الآن ولأول مرة قلقه بسبب ما يقوم به مانديلا. كان يعلم أنه يتمتع بثقة مانديلا الكاملة: فعندما جمعت زوجته أديلايد كتاباً عن خطابات تامبو هرّب مانديلا مقدمة مكتوبة بيده تمتدح «العرض الرائع» لسياسة المؤتمر الوطني الإفريقي الذي قدمه تامبو في مقابلة مع طوني هيرد من صحيفة كيب تايمز، وتشرح كيف أن التزامه «ألهمنا بما يتجاوز الكلمات».[31] لكن

تامبو كان قلقاً للسماع عن محادثات مانديلا السرية، وهرّب رسالة إلى داخل السجن طالباً منه معرفة ما في ذهنه. تذكر مانديلا «اللهجة كانت معادية فعلاً، لذلك قررت أن أكون حازماً. . . قمت بإضافة جملة فقط: «اجتماع بين المؤتمر الوطني الإفريقي والحكومة؟!» قال لي مانديلا لاحقاً: «شعرت أن ذلك وصل إلى نقطة يتعين علينا من خلالها أن نكون أقوياء جداً». [32]

في أيار (مايو) 1988 التقى مانديلا بالفريق لأول مرة، في المحيط المريح لنادي الضباط ضمن مجمع بولسيمور. اجتمعوا مرة تقريباً في الأسبوع في الأشهر التالية، وفي بعض الأحيان لسبع ساعات. كان مانديلا يستعد بعناية لكل لقاء، محولاً زنزانته إلى مكتب مُرتجل. كان نيل بارنارد بوضوح العقل الموجه للحكومة، أقسى وأمهر من الآخرين وهو هادىء ولطيف. إلا أنه كان معجباً بخصمه، ثم أخذ لرؤية مانديلا وهو يتذوق الساندويش: «شعرت بشعور عميق من التعاطف تجاه هذا الرجل في ملابس السجن وحذائه. وكان نحيلاً». تأثر مانديلا «بالذكاء المنضبط والتهذيب الذاتي» لبارنارد إلا أنه فوجىء بأفكاره الخاطئة عن المؤتمر الوطني الإفريقي، المجمعة من السجلات المنحرفة للشرطة والاستخبارات». [33] كانت هناك أيضاً تقارير سلبية عن حالة مانديلا العقلية. في أيار (مايو) 1988 كتب الكولونيل جي. جي. لورينز أن حالته العاطفية بقيت مستقرة؛ مع عدم وجود دلائل على مرض عقلي. . إلا أن موقفه إزاء الحكومة الجنوب إفريقية ما زال ثابتاً ورافضاً. إنه لن يكون مستعداً للتخلي عن العنف. [34]

ردد مانديلا وبارنارد النقاشات القديمة، وكرر بارنارد أن الرئيس بوثا لا يستطيع لقاء مانديلا ما لم يوافق على التخلي عن العنف؛ وشرح مانديلا مرة أخرى أن الدولة هي التي بدأت العنف، وأن المؤتمر الوطني الإفريقي سيرد بطريقة سلمية على الوسائل السلمية. وتشكى بارنارد من أن المؤتمر الوطني الإفريقي يريد تأميم كل شيء؛ واستشهد منديلا من جديد بمقالته عام 1956 في (اللبراسيون) التي تطلعت إلى ازدهار الأعمال الإفريقية أكثر من أي وقت

مضى. وأصر بارنارد على أن المؤتمر الوطني الإفريقي يسيطر عليه الشيوعيون، وأن الحكومة لا يمكنها التفاوض ما لم يبتعد المؤتمر عنهم. وشرح مانديلا أن شيوعيي المؤتمر الوطني الإفريقي بعيدون عن أية «امبراطورية شريرة»، وأنه لا يقبل أن تسيّره أية هيئة خارجية. يجب على الفريق أن يدرك ـ كما اقترح ـ أنهم ما داموا قد فشلوا في تغيير تفكيره: «ماذا يجعلكم تظنون أن الشيوعيين سينجحون حيث فشلتم؟». [35]

عرف مانديلا أن بارنارد كان يواصل اتصالات أخرى مع المؤتمر الوطني الإفريقي قال له بارنارد: «سمعنا أن ثابو مبيكي هو شخص يريد المفاوضات. هل لديك أي اعتراض إذا ما تحدثنا معه؟» سأل مانديلا لماذا يُعَد هذا ضرورياً: «إنه شاب، قادر جداً، موهوب جداً ومخلص جداً؛ لكن إذا كنتم ستقومون بنقاش سري معه فإنه سيتسرب قبل أن يخبر جماعته وربما تتسببون في تدميره». كان يفضل أن يتحدث بارنارد إلى تامبو ذاته. لكن بارنارد سار قدماً باتصالاته مع ثابو. [36]

وهكذا أصبح ثابو لاعباً رئيسياً في اللعبة الدقيقة. شعر مانديلا أنه قادر على الثقة به، بما أنه قد راقبه أولاً عندما نظم الطلبة للإضراب ضد الجمهورية عام 1961. تعلم ثابو فن السياسة لأول مرة من والده غوفان، وفر إلى المنفى. وحصل على درجة في الاقتصاد من جامعة ساسيكس وقام بالتدريب العسكري في الاتحاد السوفييتي. ثم عمل عن قرب مع تامبو في لوساكا ولندن، حيث تطور ليصبح ديبلوماسياً كبيراً. وأصبح ماهراً في تطمين الأفريقانيين بأنه يتفهم مشكلاتهم؛ وتعلم ـ كما قال ـ «أن يبدأ من حيث هم». إنه يشرب معهم، وينفث دخان غليونه، ويستمع، ويشارك في نكاتهم، ويتفهم تاريخهم، ويزيل تدريجياً مخاوفهم بخصوص المتطرفين السود. إلا أنه لم يفقد أبداً رؤية الأهداف المحددة للمؤتمر الوطني الإفريقي. وعندما بدأ ثابو بالتحدث إلى

أصدقاء بارنارد، أدرك مانديلا «أنه كان ذكياً جداً وكان يخبر المنظمة. كان على الصواب إلى حد كبير». [37]

تعلم بارناد من جانبه، سريعاً أكثر عن أفكار ثابو من تقارير عن اجتماعات المؤتمر الوطني الإفريقي مع الأفريقانيين في إنكلترة التي رتبها غولد فيلدز ـ حيث أبقاه البروفسور ويلي استرهيوز من جامعة ستيلينبوش على علم بها، بمعرفة المؤتمر الوطني الإفريقي. في اللقاء الثاني في كينت، ترأس ثابو فريق المؤتمر الوطني الإفريقي في حين كان الأفريقانيون قد أضيف إليهم خبير دستوري ورجل أعمال. وفوجىء مبيكي بجهل الأفريقانيين: حاول دون جدوى طمأنتهم بأنهم لا يُعَدون قد خانوا شعبهم، وأن إطلاق سراح مانديلا سيفتح الباب أمام محادثات سلمية. [38] استطاع ثابو محاصرتهم ـ كما تذكر مايكل يونغ. «كان الأمر مربكاً، لم ير الأفريقانيون أي شخص مثله: فقد تحرك في الدوائر الدولية التي كانوا يتطلعون إليها». إلا أن الطرفين اقترب بعضهما من بعض. وقبل الأفريقانيون أن المؤتمر الوطني الإفريقي لا يمكنه التخلي عن العنف من جانب واحد قبل التفاوض ـ وهي النقطة التي رفضها الرئيس بوثا أمام الأشخاص البارزين. وأكد لهم ثابو أنه عندما يطلق سراحهم فإن زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي ـ بمن فيهم والده غوفان، الذي أطلق سراحه لتوه ـ سيكبحون أتباعهم عن العنف. [39]

داخل جنوب إفريقية كان الناس لا يعلمون شيئاً عن المحادثات السرية، أو نشاطات مانديلا الحقيقي بالمقارنة مع الشيطان الأسطوري، أو البطل، لكن اسمه كان يزحف مجدداً إلى العناوين الرئيسية، كما أن حظر صوره قد أُبطل. وظهرت مجدداً صور قديمة من عقد الستين منذ عام 1986. عندما تحدثت «الويكلي ميل القانون» بنشرها من جديد صورة كانت قد ظهرت في كتيب دعاية للحكومة. [40]

وتعززت شهرة مانديلا الدولية في عيد ميلاده السبعين في تموز (يوليو)

1988. ففي لندن خططت البي بي سي لأن تنقل عبر التلفاز حفلة موسيقية كبيرة للروك في 11 حزيران (يونيو) دعيت «الحرية في السبعين» في ستاد ويمبلي، مع ممثلين نجوم من ضمنهم هاري بيلا فونت، ويتني هيوستون، روبيرتا فلاك، وستيفي ووندر. بريتوريا كانت غاضبة جداً بحيث هددت البي بي سي بإخراجها من جنوب إفريقيا كلها؛ وهاجم أربعة وعشرون عضواً من حزب المحافظين في البرلمان البي بي سي لتشجيعها الإرهابيين؛ وكتب محرر عمود وبير لو وايت من حزب المحافظين في «أخبار العالم» أن مانديلا والمؤتمر الوطني الإفريقي كانا يحاولان إقامة «دكتاتورية سوداء على النمط الشيوعي».[41] لكن الحفلة الموسيقية سارت قدماً ـ مع رسالة مهربة من مانديلا ـ حيث شاهدها 72,000 مشاهد و200 مليون مشاهد على التلفاز في ستين بلداً.[42] كتب كاثرادا من بولسيمور إلى بول جوزيف: «هل خطر لك ـ فيما عدا ميلاد السيد المسيح ـ أن أي عيد ميلاد لم يحتفل به ـ بهذا الاتساع ـ كعيد ميلاد نيلسون السبعين».[43] علقت إذاعة جنوب إفريقية بأن الحملة لجعل نيلسون مانديلا فاتناً «قد تصاعدت إلى مستوى جديد من السخافة العاطفية التي غذّاها الجهل».[44]

وحتى صحف جنوب إفريقية المحافظة كانت تدعو إلى إطلاق سراحه عندما أصبحت انفجارات العنف أكثر شؤماً. وقبل عيد ميلاده مباشرة، انفجرت سيارة مفخخة خارج ستاد الركبي في إليس بارك في جوهانسبورغ، مما أدى إلى مقتل اثنين من البيض وجرح خمسة وثلاثين.[45] وحذرت جوهانسبورغ ستار من أنه إذا مات في السجن فإنه سيعامل معاملة القديسين، في حين «أنه متى أطلق سراحه فإن أسطورة مانديلا سيتم تحجيمها من خلال الحقائق السياسية». وحتى الصحيفة الأفريقانية اليوم الموالية للحكومة وهي بيلد قالت: لن يكون هناك وقت أفضل من الآن لإطلاق سراحه: لقد حصل على مكانة أكبر من الحياة، وسيجد من الصعب المحافظة عليها إذا ما أطلق سراحه.[46] وأجاب وزير الإعلام بأن الحكومة لا ترى أن طريقها الواضح هو في إطلاق سراح

obeikandi.com

مانديلا «في هذه المرحلة»، وأن أي محرر ليس لديه المعرفة الدقيقة للحكومة بالظروف.[47] وتبين أن الوزير كذلك لم تكن لديه.

الجنوب إفريقيون السود رأوا مانديلا الآن وبوضوح أكثر كزعيمهم الضائع الذي ينتظر في منطقة بعيدة. بعد عيد ميلاده مباشرة زاره يوسف وأمينة كشاليا، اللذان لم يرياه منذ ستة وعشرين عاماً؛ قال يوسف: «إنه يتذكر كل شيء وهو متيقظ كما كان دوماً. صحته جيدة وهو جذاب مثلما كان دوماً». قالت أمينة علناً: «يبدو نيلسون رائعاً كلياً، ، مع أن لديه الآن الكثير من الشعر الأشيب على رأسه». كانت قلقة أكثر في سرها، لأنه بدا نحيلاً وشاحباً، وقد افتقدت لخديه الممتلئين. لكنها كانت واثقة من «أن لديه قوة داخلية سيطرت على كل شيء». وأعطى آل كشاليا رسالة إلى مؤيديه: «أنا ممتن لكم جداً ولديّ أمل كبير جداً للمستقبل».[48] بعد ذلك بعدة أيام زارته الدكتورة مامغالا رامفيل، شريكة الزعيم الأسود المقتول ستيف بيكو وأم واحد من أبناء بيكو الاثنين. كانت مذهولة لرؤية السجانين يذعنون له، كما غمرها حضوره، «طلة راشحة ورشاقة ـ كانت مهاراته الاجتماعية الكبيرة ظاهرة في كل حركة ـ لقد أشعرني بالطمأنينة بدون أن يعاملني بتنازل».[49]

لكن مانديلا لم يكن في حالة جيدة: كان يسعل كثيراً، حيث ألقى اللوم في ذلك على زنزانته الرطبة. بعد ثلاثة أسابيع من عيد ميلاده، في 4 آب (أغسطس) سمح للسجناء الأربعة في بولسيمور بتمضية عدة ساعات معه. كان مرحاً، مليئاً بالأخبار عن الأصدقاء القدامى، وحازماً جداً. كتب كاثرادا فيما بعد: «المحامي بداخله كان متوقداً وحكيماً و(ديناميكياً) أكثر من أي وقت مضى». لكن كاثرادا شعر بالقلق لأول مرة بشأن صحة مانديلا: «إنه يسعل كثيراً وصوته أعلى من الهمس بقليل».[50] وكان إسماعيل أيوب قلقاً أكثر عندما تقيأ مانديلا فجأة. استدعى الحارس، غريغوري، الذي وصل (كما تذكر) ليجد

مانديلا يناضل من أجل الوقوف على قدميه، وهو يتعرق ويشير إلى الفوضى على الأرض التي أراد تنظيفها.[51]

بعد عدة أيام زار مانديلا طبيب، فحصه بسرعة، حيث سيق بعدها بحماية قافلة عسكرية، إلى مستشفى تايغربيرغ في ستيلينبوش، حيث أخلي طابق بكامله وأحيط بحراس مسلحين. فحصه طبيب شاب لطيف أكد له بعد عدة فحوصات أنه بلياقة تامة. لكن في الصباح التالي ظهر البروفسور دوكوك الفظ. دق على صدر مانديلا، ملاحظاً أن جانباً كان أكبر من الآخر، وقال إن هناك ماءً في الرئة. أدخل إبرة عبر أضلاع مانديلا وسحب بعض السائل المائل إلى البني. ثم أخذه فوراً إلى غرفة العمليات وهو تحت التخدير، وأزال المزيد من السائل لتنظيف الرئتين. وجد علائم مبكرة للسل، الذي اعتقد أن سببه يعود جزئياً إلى الرطوبة. بقي مانديلا في تايغربيرغ ستة أسابيع للعلاج واسترداد عافيته تحت إشراف دوكوك؛ كان واثقاً من أنه كان «بين يدي خبير». وعندما حان وقت مغادرته المستشفى رأى في دوكوك صديقاً وثيقاً.[52]

النشرة الطبية أعطت معلومات ضئيلة، شارحة أن مانديلا لديه «دفق يساري بغشاء الجنب»، أو سائل في الرئة اليسرى، بدون المزيد من التفصيلات. ووصف الأطباء حالته بأنها مُرضية. لكن ويني التي وصلت إلى المستشفى مع إسماعيل أيوب في اليوم التالي، أعطت صورة أكثر مدعاة للقلق، ملقية اللوم على السجن بإهماله. كان التكهن والقلق عميقين، وبدت الحكومة قلقة. ولم يجد وزير الإعلام سبباً يستدعي بقاء مانديلا في السجن. كان وزير العدل كويتسي «مشوشاً بعمق». وكان يعطي للقضية «اهتمامه الشخصي»: أتى بروفسور سويسري مختص بالرئة، وقال إن الفرصة في استرداد كامل للصحة كانت ممتازة. قالت الصنداي تايمز إن الحكومة أدركت بوضوح أن «الأكثر سوءاً من إطلاق سراح مانديلا هو مانديلا ميت».[53]

أعد تامبو في لوساكا خططاً لإطلاق سراح مانديلا الوشيك؛ لكن المؤتمر

obeikandl.com

الوطني الإفريقي ارتاب بأن الرئيس بوثا لديه جدول أعمال خفي، وناقشت لجنة العمل فيه: ذلك في اجتماع هام أواخر تشرين الثاني (نوفمبر). اعتقد المجتمعون أن «النظام ينوي تفجير إعادة تخطيط سياسي والشروع بممارسة مفاوضات عقيمة للتلاعب بالوقت». بريتوريا سوف تكيف الضغط على المؤتمر الوطني الإفريقي للعمل «بمسؤولية»، تدعمها السيدة تاتشر التي خططت لزيارة جنوب إفريقية بعد إطلاق سراح مانديلا، والتي كانت تصور البريطانيين كحَكَم من أجل صيغة دستورية جديدة.

شعر تامبو بالقلق خصوصاً بشأن دور باثيليزي. ومانديلا بعد إلغاء زيارة باثيليزي في عام 1986، بعث برسائل تفيد أنه يريد التحدث إليه.

عارض تامبو لقاء كهذا، لكنه أدرك أن مانديلا سيريد رؤية باثيليزي عندما يطلق سراحه. «يعتقد نيلسون مانديلا أن بإمكانه تعبئة الشعب في صفوفنا، وكان بمقدوره فعل ذلك في الماضي». هذا ما قاله تامبو للجنة العمل. شعر أن مانديلا يجب تحذيره بأن باثيليزي كان يتطلع إلى القبول قبل أن يسير في طريقه بالذات، وأضاف تامبو: «باثيليزي متعطش للسلطة ويريد استخدام نيلسون مانديلا ما دام ذلك يناسبه... مارغريت تاشتر ماكرة بما فيه الكفاية لإدراك أن العداء بين المؤتمر الوطني الإفريقي وباثيليزي سيستمر ما دام نيلسون مانديلا ليس هناك».

كان المؤتمر الوطني الإفريقي مصمماً على الاحتفاظ بقوته العسكرية. كان عليهم ضمان أن «طريق النضال لن يخرج عن مساره بإطلاق السراح». درسوا فكرة تنظيم حشد في سوويتو، «مرتبط بانفجارات في شتى أنحاء المكان». «ورأوا حاجة إلى خطة من أجل حالة عصيان منضبطة». يجب أن يتحدى مانديلا أية قيود. قال تامبو: «إن الكفاح المسلح يجب أن يتصاعد حتى قبل خروج نيلسون مانديلا بحيث لا يعود هناك أي تساؤل حول اشتراط إطلاق سراحه بالتخلي عن الكفاح المسلح». قالت لجنة العمل إن مانديلا يجب أن

يضع برنامج عمل واضح، بالتشاور مع الزعامة: «إن إجماع الآراء بينه وبين الحركة كلها ذو أهمية حاسمة». يجب أن يكون هناك ترحيب شعبي هائل بإطلاق سراحه، مع شعارات واضحة «أهلاً بصورة زعيم الشعب».[54]

لكن السجناء في بولسيمور كانوا مرتابين بشأن احتمال إطلاق سراحهم. «وهذا الشك الذي مرده تجربة سابقة، لا يوفر أي سبب للتفاؤل». كما قال كاثرادا لصديقه ج. إن. سينغ في 16 أيلول (سبتمبر).[55] وأدرك مانديلا سريعاً وهو في المستشفى أن الحكومة لديها خطط مختلفة. وبعد ستة أسابيع في تايغربيرغ تم نقله إلى مستشفى كونستانتيابيرغ الأكثر راحة، وأصبح المريض الوحيد الأسود في مؤسسة بيضاء مكلفة، تمت العناية به بشكل جيد جداً، ولاقى الإعجاب من الممرضات السود والبيض، حتى إنهن أقمن حفلة في غرفته وبقي بعضهن على اتصال معه فيما بعد. كتبت فيونا دنكان مذكرة إياه: «عزيزي السيد مانديلا، لا همبرغر ولا بيتزا ولا موس شوكولا».[56]

لكن مانديلا أدرك في كونستانتيابيرغ أنه لن يطلق سراحه. زاره كوبي كويتسي في يومه الأول، حيث بدأ بارنارد والفريق بعد ذلك باستئناف اجتماعاتهم معه. شرح كويتسي أنه سينقل مانديلا الآن إلى سجن آخر، حيث سيكون «في منتصف الطريق بين السجن والحرية».[57] كان يدخل في متاهة غريبة، على حافة الأحداث ومع ذلك في وسطها، عارفاً أنه يحمل السلام المستقبلي لبلاده في يديه.

26

شيء خاطئ بشكل مرعب

1987 ـ 1989

في زحمة مفاوضاته السياسية، واجه مانديلا أكثر المشكلات التي ليس لها حل من قبل زوجته ويني، التي ما زالت فاقدة السيطرة على نفسها. يبدو أن «أنثى ـ الفيل» توصل الانفلات الآن إلى أقصى حدوده، حيث انغمست في انفجارات عنف وقتل أدت إلى إعطاء صورة باروك (كابوس) لجنوب إفريقية بديلة. أدى تصرفها الجامح إلى حدوث أزمة سياسية كانت ستشمل زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي داخل البلاد وخارجها.

عرف مانديلا ومضة من لا مسؤولية ويني المالية بعد عيد ميلاده مباشرة في تموز (يوليو) 1988، عندما عقدت صفقة مع مقاول أمريكي مقبول ظاهرياً هو روبرت براون ـ الذي كانت له صلات مع جامعة بوسطن ـ لاستغلال اسم مانديلا، مقدمة إليه، كما أعلن بيانه الصحفي: «سلطة كاملة كمحام لأسرة مانديلا على مستوى العالم». كان براون قد زار مانديلا في بولسيمور مع ويني في 22 تموز (يوليو)، لكن مانديلا تم تحذيره من لندن بوجوب الابتعاد عنه. «رفض بشدة الاتفاق مع ويني وأبلغ براون بوجوب التعامل فقط مع تامبو، صديقه وزميله المقرب».[1]

واجه مانديلا مشكلة أساسية أكثر مع عنف ويني، كان من الأصعب مواجهتها. ففي سوويتو وجدت ويني نفسها في الواجهة في معركة الكفاح

obeikandl.com

المسلح. حيث عُدَّ بيتها معقلاً. كانت المناطق تقترب من الحرب الأهلية عندما حمل الشبان السلاح. وكما وصف المشكلة فيما بعد أزهر كشاليا أمين صندوق الجبهة الديموقراطية الموحدة»: بحلول أواسط عام 1985 رأى الآلاف من الشبان الذين لا انتماء لهم والذين ينقصهم التوجيه أو التماسك، والذين تأثر العديد منهم بتجربتهم في الاحتجاز، رأوا أنفسهم جنوداً في النضال من أجل التحرير». لقد ألفوا عصاباتهم المسلحة الخاصة بهم، معرضين للخطر الأقاليم والإقطاعيات والأراضي غير المسموح بالمرور بها. وادعى العديد من العصابات الارتباط بالكفاح المسلح والـ MK، لكن زعماء الجبهة الديموقراطية الموحدة، الذين دمرتهم الاعتقالات الجماعية والاحتجازات لم يستطيعوا ضبطهم. وكما قال كشاليا: «ارتباطاتنا مع مجموعات الشباب على الخصوص أصبحت ضعيفة».[2] وكان لدى الشرطة بوضوح جداولها الخاصة بها. كانت قد تغلغلت في بعض العصابات عن طريق الاستفزازيين من المخبرين والعملاء، حيث حرضت بعضاً ضد بعض، مثيرة الشك والخيانة والردود الانتقامية، مع عدم التدخل ضد ويني.[3]

كان زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي يراقبون ويني بقلق، والتي بدت منذ عودتها من براندفورت أكثر ضراوة وتهوراً. وأصبحت ميالة أكثر للقتال منذ كلمتها عن «الطوق» في نيسان (أبريل) 1986، وشنت حملاتها الخاصة بها ضد الحكومة. عُدَّت نفسها جندياً فدائياً، باللباس العسكري أحياناً، حيث كانت تؤوي لاجئي MK من الشمال، وتدعي أنها تتلقى الأوامر من كريس هاني، الذي كان يقود الـ MK فيما وراء حدود جنوب إفريقية.[4] رأت أن أعمال العنف ضرورية من أجل المعركة. قالت هيلين سوزمان التي ظلت معجبة بشجاعتها الكاملة: «كانت المرأة تعتقد بوضوح أنها تقاتل في حرب».[5]

تخلى الزعماء المحليون عن محاولة ضبط ويني، أو إبقائها ضمن بنيان

منظمتهم. بعد ذلك بتسع سنوات، لامتهم لجنة الحقيقة «لعدم إعادتها إلى المجموعة أو ضبطها عندما بدت الأمور وهي تسير في الطريق الخطأ».[6] لكنها كانت أقسى من أن تنضبط وكان لها أصدقاء أقوياء.

حذرها أصدقاؤها بوجوب حماية نفسها، وأحاطت نفسها منذ عام 1987 بعصابة من الفتيان تدعى «نادي مانديلا الموحد لكرة القدم»، عاشت خلف منزلها، الذي أسموه «لوساكا» أو «البرلمان».[7] كان الزوار يرون العصابات تركض هنا وهناك في الغرف الأمامية بألبسة كرة القدم. بدوا في البداية أنهم يدافعون حقاً عن ويني ضد المنافسين العنيفين. قالت جارتها السيدة دلاميني: «اعتادت أن تكون أماً، اعتادت أن تكون شخصاً محبوباً. أنت تذهب إلى ويني بآلامك، وستساعدك إذا استطاعت ذلك».[8] لكن جيرانها شكّوا بسرعة أن نادي كرة القدم كان يروّع سوويتيين آخرين أكثر من أن يروع الشرطة: كان لأعضائه أسماء خطيرة مثل نينجا، قاتل، عقرب، ضارب السكين، وكانوا يحملون البنادق في كثير من الأحيان. وكلمة كرة قدم بدت ذات معنى سطحي. «فمدربهم الرياضي» جيري ريتشارد سون غادر الجهة مؤخراً، حيث (اكتشف فيما بعد) أن الشرطة قد دفعت له مبلغ 10,000 رند ليصبح مخبراً: كما أدين عدة أعضاء لارتكابهم أعمال القتل أو الخطف. تم تحذير مانديلا في السجن بشأن وجود نادي ويني الخطير، وقال إن من الضروري حله.[9] لكن لم يحدث ذلك. كان نادي كرة القدم عصابة من بين العديد من عصابات اللجان الأهلية التي نمت في جنوب إفريقية، لكنها كانت الأشد خطراً.

بحلول مطلع 1987، كانت الغرفة الخلفية في منزل ويني قد ارتبطت بقصص مريعة عن التعذيب والقتل، والتي ربطها الجيران بويني ونادي كرة القدم. وكان من الواضح، كما ذكرت لجنة الحقيقة، أن «الفوضى الآتية من الباحة الخلفية لبيت آل مانديلا كان لها نتائج سياسية مفيدة للشرطة؛ حيث أوجدت خلافاً ضمن حركة التحرير، لم تكن السلطة ذاتها قادرة على

تحقيقه». [10] وبدت ويني الآن، بعد كل الاضطهاد السابق من الشرطة، بدت لا مشكلة لها معهم في الوقت الذي تجولت فيه مع عصابتها حول سوويتو بحافلتها الصغيرة بحصانة واضحة. قال كشاليا: «كنا نولي الأدبار، ونناضل لإبقاء منظماتنا على قيد الحياة. والسيدة مانديلا كانت تدفع هذا الكومبي Kombi حول سوويتو. نعم، كان ذلك غريباً». [11]

بحلول 1988 كان نادي كرة القدم قد انغمس في حرب مرج مع عصابة أخرى من مدرسة داليوونغا الثانوية المجاورة. وبعد القتال والضرب والاغتصاب، قامت غوغاء من مؤيدي داليوونغا تحمل صفائح النفط بالنزول إلى بيت مانديلا في تموز (يوليو) عام 1988 وأضرمت النار فيه. وقفت الشرطة وقسم الحريق وقفة المتفرج. وصلت ويني وهي شديدة الاضطراب لترى منزلها وقد دُمر، مع أوراق العائلة والرسائل وشريحة من كعكة زفافها. شعر رئيس الكنيسة الشاب فرانك تشيكين الذي كان يرقب المشهد، شعر بالقلق من احتمال انفجار المزيد من أعمال العنف، استدعى مجموعة من الزعماء بمن فيهم سيريل رامافوزا، سيدني موفاماوي؛ أوبري موكوينا، الأخت برنارد نكوبي والمبجل بييرز نودر الذين أصبحوا معروفين باسم «لجنة أزمة مانديلا». ارتابوا في أن «قوة ثالثة» شريرة كانت وراء إحراق المنزل، محاولة إبعاد الجماعة عن معركة التحرير ببث الانقسام بين أفرادها. [12] لكن هدفهم الأول كان إقناع ويني بحل نادي كرة القدم.

علم مانديلا سريعاً وهو في سجنه بالهجوم على بيته؛ وشعر بالخزي لفقدان كنوز الأسرة. كتب إلى ويني في 1 آب (أغسطس) [13]: «إن إتلاف البيت كان عملاً شريراً أمقته وأشجبه بشدة. لقد حرمني السجن من حريتي لكن ليس من ذكرياتي.. والآن أشعر أن بعض أعداء النضال حاولوا حرماني حتى منها». وأخبر محاميه إسماعيل أيوب أنه يريد إبلاغ الشرطة، بدون مقاضاة وبدون حملة ضد المنشقين «إنها قضية سيحلها شعب سوويتو». [14]

بينما كانت تتم إعادة بناء المنزل القديم انتقلت ويني إلى منزل مستأجر مترف أكثر في ديبكلوف، فيه جاكوزي دبره لها صديقها الأمريكي المقاول روبرت براون. وانتقلت معها عصابتها التي ازداد انفلات زمامها، حيث باشرت «عهد إرهاب» كما أسمته الجماعة خلال الشهور السبعة التي تلت. كان الناشط الشاب لولو سوتو ابن نيكو ديموس قد عمل مع ويني حيث ساعد مقاتلي الـ MK الذين أتوا من الشمال. وبعد أن قُتل أحدهم من قبل عصابة منافسة اتُهم لولو فجأة بأنه جاسوس: في 16 تشرين الثاني (نوفمبر) 1988 حضرت ويني إلى منزله بحافلتها الصغيرة، حيث كان لولو في الداخل. وقد ضرب وجرح بشدة، وأبلغت والده أنه سيؤخذ بعيداً. توسل نيكو ديموس إليها، إلا أنها لم تكن «ويني التي عرفتها، كانت عدوانية جداً. وقد تغير وجهها كلياً». غادرت ويني المنزل، ولم تتم رؤية لولو بعد ذلك أبداً.[15] بعد خمسة أيام جاءت إلى المنزل جارة عائلة سوتو وهي نومزا تشابا لالا لتجد أن ابنها سيبونيزو، صديق عائلة لولو، قد تم أخذه أيضاً بعد أن كان بعض الشبان يبحثون عنه، حيث كتب اسمه على علبة كبريت. وهكذا لم يشاهد هو الآخر مرة أخرى.[16] اتهمت لجنة الحقيقة فيما بعد ويني باعتبارها مسؤولة عن اختفاء لولو وسيبونيزو.[17]

كانت ويني تسيطر على منطقتها، وقد رفضت نفوذ مقر البعثة الميثودية في أورلاندو الذي كان يديره قسيس مخلص، بول فيرين، والذي وفر ملاذاً للفتيان الإفريقيين المحليين. أواسط كانون الأول (ديسمبر) 1988 جاء فتى عمره أربعة عشر عاماً يعرف باسم «ستومبي» سيبيي إلى مقر البعثة: وبعد ذلك بوقت قصير غاب فيرين في إجازة تاركاً المكان في عهدة امرأة قوية، غسوليسوا فالاتي، التي نشرت الشائعات بأن فيرين كان شاذاً وكان يتدخل بشؤون الفتيان، وأن ستومبي أيضاً كان جاسوساً. بدأت باستجوابه، وفي 29 كانون الأول (ديسمبر) اختطف هو وثلاثة فتية آخرون من قبل نادي كرة القدم، ونُقلوا إلى الغرف الخلفية لبيت ويني في دييبكلوف حيث ضُربوا بعنف من قبل أعضاء

النادي ـ وعلى رأسهم جيري ريتشارد سون في حين كانت ويني تراقب المشهد. واختير ستومبي بوصفه المخبر وكان يُلقى إلى الأعلى والأسفل وهوجم بوحشية. بعد ذلك بعدة أيام وجدت جثته المتعفنة في قاع نهر في طرف سوويتو وهي مثخنة بالجراح؛ فقد طعن ثلاث مرات في الرقبة. وادعى أحد الفتية فيما بعد وهو كاتيزا سيبيخولو أنه رأى ويني ذاتها تطعنه مرتين في ضوء القمر.[18] لكن جيري ريتشارد سون ادعى أنه قطع حلق ستومبي بمجزة «وكأنه يذبح خرافاً». بناء على تعليمات من ويني كانت مامي صانع القرار الرئيسي. . . كان يطلب إليّ أن أقتل وكنت أفعل ما يطلب مني.[19]

قالت لجنة الحقيقة فيما بعد إن قتل ستومبي «كان إحدى أخطر الأزمات التي عانت منها حركة التحرير الداخلية والخارجية».[20] وقررت لجنة الأزمة وكذلك الأسقف الميثودي المحترم بيتر ستوري، كشف الحقيقة والدفاع عن الفتية الثلاثة الآخرين المخطوفين، الذين كانوا باقين في منزل ويني. في 11 كانون الثاني (يناير) 1989 ـ زاروا ويني، التي أكدت لهم أنها كانت تحمي الصبية فقط! لكن الزوار لاحظوا أن لديهم جروحاً طازجة. أرسلت اللجنة تقريراً نضالياً إلى تامبو في لوساكا، شارحة الدليل وعناد ويني: «بدت وهي تعتقد أنها فوق الجماعة! إنها تظهر احتقاراً كلياً للجنة الأزمة والجماعة في آن واحد». ناشدوا تامبو أن يتحرك، «لمواجهة هذه الحالة المروعة التي تتطور أمام أعيننا».[21] في 14 كانون الثاني (يناير) كتب فرانك تشيكين إلى مانديلا: «طُلب مني أن أناشد تدخلك. . . حتى حياة أعضاء لجنة الأزمة أصبحت في خطر». شعر مانديلا بقلق شديد؛ ارتاب في أن ويني هي المذنبة، لكنه اضطر إلى الوقوف إلى جانبها ـ بوصفه زوجها ـ ما لم تتم إدانتها.[22]

بحلول منتصف كانون الثاني (يناير) كانت سوويتو زاخرة بالقصص عن اختفاء ستومبي، في حين استمرت الهجمات وأعمال القتل. ذهب مئة وخمسون عضواً من زعماء الجماعة للاحتجاج ضد اعتداءات نادي مانديلا لكرة

القدم.[23] في 27 كانون الثاني (يناير) وجد طبيب معروف في سوويتو، أبو بكر أسفات وجد مقتولاً في حجرة العمليات الجراحية، حيث اكتشفته مساعدته ألبيرتينا سيسولو وهو في بركة من الدماء، وألبيرتينا هي زوجة والتر. كان اثنان من الشباب الإفريقيين العاطلين عن العمل قد أتيا إلى العيادة كمرضى، وشوهدا وهما يفرّان بعد القتل؛ وقد أدينا فيما بعد وحُكما. اقترحت ويني أن أسفات قتل لأنه وحده يستطيع البرهان على أن الصبية في منزل فيرين ربما كانوا قد اغتُصبوا.[24] في الحقيقة كان أسفات قد رأى في السابق جروح ستومبي ورفض أن يثبت الاغتصاب الشاذ.

كان على لجنة الأزمة أن تواجه مكاشفة مؤلمة بشأن مقتل ستومبي، حيث تواجه الزوجة الشهيرة لزعيمها الموقر. قال أزهر كشاليا: «كان علينا القيام بعمل جريء وخيالي. كان أحد أصعب القرارات التي اتخذتها. كان الناس في أقصى غضبهم» قال ميرفي موروبي أمين سر النشر للحركة الديموقراطية الجماهيرية التي حلت محل الجبهة الديموقراطية الموحدة. «الشيء الذي لم نستطع تحمله هو أن يقوم شعبنا بشيء على مسؤوليته». دعا موروبي إلى مؤتمر صحفي في 16 شباط (فبراير). ويني لن تغفر أبداً للعصبة «الهندية المتآمرة» كما أسمتها. مشيرة بسخرية إلى «ميرفي باتيل».[25] كان بيانهم مدمراً.

> لقد غضبنا جداً لاشتراك السيدة مانديلا في عملية خطف وقتل ستومبي مؤخراً. . . لو أن ستومبي وزملاءه الثلاثة لم يخطفهم «فريق كرة قدم» السيدة مانديلا لكان حياً اليوم. . . نحن لسنا على استعداد للبقاء صامتين بينما يقوم أولئك الذين يخرقون حقوق الإنسان بالادعاء بأنهم يفعلون ذلك باسم النضال ضد التمييز العنصري.[26]

سئل موروبي كيف سيؤثر ذلك على علاقة ويني بمانديلا فأجاب: «الرفيق نلسون، بالتشاور مع جميع الأطراف يجب أن يتخذ قراراً».[27] شاركت أسبوعية «الشعب الجديد» بالمطالبة بضبط ويني، ويحررها ابن والتر سيسولو

وهو زويلاخي: «إن أي إنسان يدعي تمثيل زعمائنا يجب أن يضع نفسه تحت سلطة الشعب».[28]

في لوساكا ذهل تامبو وقلق بشدة بخصوص مصير كاتيزا سيبيخولو الذي اختفى الآن. تكلم على الهاتف مع فرانك تشيكلين في جوهانسبورغ وأبلغه أن يزور ويني فوراً، ولا يغادر قبل أن تسلّم كاتيزا. بعد خمس ساعات مؤلمة مع ويني، اكتشف تشيكين مكان الصبي، ودبر عناية طبية فورية.[29]

أصدر تامبو انتقاده الخاص لويني، الذي كان ملطّفاً أكثر من انتقاد الحركة الديموقراطية الجماهيرية: «بشعور من الحزن الشديد نجد من الضروري التعبير عن تحفظاتنا تجاه رأي ويني مانديلا فيما يتعلق بنادي مانديلا لكرة القدم».. لقد فشلت في حل نادي كرة القدم ـ كما شرح ـ ولم تتعاون مع الحركة: «تركت حرة وعرضة لارتكاب أخطاء استغلها العدو». لكنه كان يأمل مع ذلك بأن ويني سيعاد دمجها داخل الحركة. بدت الآن وقد تمت السيطرة عليها إلى حد ما. قالت لصحيفة جوهانسبورغ صنداي تايمز: «الرفيق تامبو والرفيق مانديلا قررا أن أفضل شيء تقوم به العائلة هو في البقاء هادئة، من الآن فصاعداً ستوجهنا لوساكا». لكنها أخبرت التلفاز الهولندي في اليوم ذاته: «أنا واثقة أن ستومبي لم يُقتل».[30]

نصحها مانديلا بأن تكون صبورة ولا تجري أية مقابلات، وكتب إليها في 16 شباط (فبراير) طالباً منها أن تضع القضية كلياً بأيدي لجنة الأزمة: «يجب عدم استخدام لباس الميدان مرة أخرى تحت أي ظرف من الظروف». لكنه ألقى اللوم جزئياً على وسائل الإعلام المحافظة بخصوص التحريفات؛ «إن هدفها الحقيقي هو في تدمير الصور، وزرع الانقسامات بين أفراد الشعب، وأن توصل إلى الرند المذبحة التي أصابت مناطق معينة في ناتال منذ عدة سنوات، الآن يجب أن نكون يقظين إلى أقصى الحدود».[31]

تأثرت فاطمة مير التي رأت مانديلا في السجن «بمحنته وقدرته على تقييم

الوضع تقييماً موضوعياً وحبه الذي لا يلين لزوجته». [32] عندما رأته أمينة كشاليا في شباط (فبراير) مع زوجها يوسف وجدته راغباً بشدة بالإيمان ببراءة ويني، وإعادتها إلى المسار. [33] قال ولا عمر الذي رآه في السجن: «كان وقتاً مؤلماً، كان مخلصاً لويني إخلاصاً مطلقاً، مهتماً بلا كلل برفاهيتها، على الرغم من ابتعاد الحركة عنها». [34]

في 23 شباط (فبراير) زار مانديلا القس الميثودي ستانلي موغوبا الذي كان على اتصال وثيق بأسقفه بيتر ستوري. حيث كان قد عرفه في روبن آيلاند. قبل مانديلا أن ويني كانت مخطئة. شرح موغوبا أن ستوري حاول لقاءها، وأنها هي التي خرقت صمت الصحافة. شكر مانديلا الكنيسة على كل ما فعلته: ووافق على «أنه وضع بشع». واقترح أن ويني ربما تطلب الصفح في مؤتمر صحفي، وتعد بالبدء من جديد؛ لكن موغوبا رأى أن الوقت ربما قد فات[35]. كان مانديلا ما زال يأمل بمساعدة ويني. إنها «فتاة رائعة؛ مثلك» هذا ما كتبه لصديقته في 28 شباط (فبراير)، وتابع «لذلك أحث على الصبر وأن تكوني داعمة مثلما كنت دائماً». [36]

لكن في لوساكا، كان تامبو قلقاً جداً الآن على ويني: قالت زوجته أديلايد: «عرفت أن الأمور سيئة عندما أخبرني». «يجب أن نصلي من أجلها». [37] بعد تقارير في الصنداي ستار والصنداي تايمز في جوهانسبورغ، سجل تامبو في دفتر مذكراته!

الصورة ممزقة ويني على المستوى الأعلى
صورة المؤتمر الوطني الإفريقي مدمرة
تحقيق الميجر جنرال جوبرت: كما يلي
«من الصعب جداً إيجاد شهود».
اللولب يسير إلى الأسفل
نيلسون يوازن طلب الطلاق
سفك دماء...

«ستومبي، اكتُشف»
اعترفت لجنة الأزمة أن عليها التعامل مع قضية فتى ميت.
البيان خطير، اتهامات ضد ويني مانديلا.
العملية قُطعت بإعلان الشرطة
مانديلا يجب أن يتحرك لإنقاذ نفسه والمؤتمر الوطني الإفريقي.
يعتقد الناس أن الطلاق وشيك
ويني مانديلا تنكر التصدع
توترات في الزواج
غارات سياسية[38]

في نيسان (أبريل) زار مانديلا راعي الأبرشية بييرز نود ثم طار إلى لوساكا ليقدم تقريره إلى تامبو. حذره نود من أن ويني كانت «ميالة إلى اللاعقلانية». وأنها معادية للجنة الأزمة، وأن «تصرفها اللامسؤول أثار شكوكاً بأنها ربما هي متعاونة مع العدو». سأله تامبو: «هل يمكن للناس أن يظنوا فعلاً أنها تعمل مع النظام؟» أجاب نود إن البعض يظن ذلك، وإنهم غاضبون لأن ويني شرعت بالابتعاد عن منظمة النساء. كان تامبو ساخطاً، حيث أراد حل المجموعة الجديدة: «إن هذا هو ما حاولنا تجنبه ـ الانقسام».[39]

بحلول نيسان (أبريل) تراجعت أزمة ويني من العناوين الرئيسية، حيث تفوق عليها التكهن بخصوص إطلاق سراح مانديلا. استمرت الشرطة بالتحقيق بقضية ستومبي سيبي، في حين استمر السوويتيون بمراقبة ويني بمشاعر مختلطة. كان العديد منهم يحتفظ بتعاطف كبير مع امرأة كانت شجاعة جداً. جارها الأسقف توتو الذي طلب منها أن تكون عرابة لحفيد من أحفاده. كان من بين المتعاطفين. قال بعد ذلك بتسع سنوات: «كانت مفيدة هائلة لنضالنا، أيقونة للتحرير»، مع ذلك «شيء ما سار بطريق الخطأ، سيراً مريعاً، وخاطئاً جداً».[40] لكن لجنة الحقيقة ستجد فيما بعد أن ويني «أصبحت منغمسة في جدال سبب دماراً لا يوصف لسمعتها»؛ ولا شك في أنها كانت «مسؤولة

سياسياً وأخلاقياً عن الانتهاكات الفادحة لحقوق الإنسان التي ارتكبها نادي مانديلا الموحد لكرة القدم». [41]

لم يستطع مانديلا ذاته أن ينسى كيف أن ويني أبقت النضال حياً خلال أسوأ الأيام. وأنها تحملت الوطأة العظمى لهجمات الحكومة أثناء غيابه. وأدرك أنها ارتكبت أخطاء خطيرة، وارتاب في أنها مذنبة، لكنه سيبقى مخلصاً، وتوقع من أصدقائه أن يكونوا مخلصين، إلى أن تتم إدانتها. إن مقتل ستومبي سيبيي، والوحشية اللاقانونية لنادي مانديلا الموحد لكرة القدم، سيخيمان على مفاوضاته السلمية في العقد القادم، مثل باروك (كابوس) بديل للعنف.

obeikandl.com

27

سجين مقابل رئيس

1989 ـ 1990

في 9 كانون الأول (ديسمبر) 1988 نُقل مانديلا من مستشفى كونستانتيابيرغ إلى بارل، بلدة الكروم التي تبعد خمسة وثلاثين ميلاً عن كيبتاون، إلى سجن ڤيكتور فيرستر الذي سمي باسم مدير سابق للسجون. ومثله مثل بولسيمور وروبن آيلاند كان سجناً ذا بيئة جميلة معذِّبة. ولم يؤخذ في هذه المرة إلى زنزانة ـ بل إلى بيت سجّان وهو كبير ومؤلف من طابق واحد أبيض اللون مع حديقة شاسعة وبركة سباحة. وعندما زاره زملاؤه الأربعة من بولسيمور بعد ذلك بأسبوعين دهشوا لأدوات الراحة الحديثة وكتب كاثرادا إلى ابن أخته: «البيت ذاته كبير ومفروش بترف، وفيه سجاد من الحائط إلى الحائط بأكمله. حتى غرف الضيوف كان لها حماماتها الخاصة. والمطبخ حديث فيه مدفأة ومايكروويف، وتجميد شديد، ومحمصة وراوُوق قهوة... وفيه أيضاً غسالة ونشافة».

كان السجانون الودودون هم الآن الذين يعتنون بمانديلا، بما في ذلك طباخ شخصي، وضابط كفيل هو جاك سوارت الذي كان يصنع له فطوره المفضل ـ فطيرة السمك، البيض المسلوق، والشاي مع الخبز المخبوز طازجاً ومن القمح الصافي، وكان يقدم غداء وعشاء كبيرين مع النبيذ للضيوف الزائرين. حافظ مانديلا على عاداته الصارمة: فهو يشرب قليلاً جداً، ويفضل النبيذ الأبيض الحلو من تيديربيرغ، كما وافق على كره منه على طلب نبيذ أبيض

غير حلو لضيوفه. وأصر على ترتيب سريره، وأراد غسل الصحون، وتجادل مع سوارت كما قال جيمس غريغوري، وكأنهما زوجان قديما العهد في الزواج. كان مانديلا محاطاً بالراحة، لكنه صار الآن بعيداً أكثر عن زملائه. وكما كتب كاثرادا: «الحقيقة غير المقبولة تبقى ـ أنه ما يزال سجيناً في سجنه المترف المتوحد. نحن أفضل منه في بعض الأمور».[1]

في عزلته ذات الامتياز، عرف مانديلا أنه كان يُعَد للحرية، إلا أن وضعه كان أصعب بكثير. كان مصمماً على الحفاظ على التحادث مع الحكومة، لكن كان لها جدولها الخاص في التفريق والسيادة، وربما تشوه حقائق وضعه بسهولة. كان باستطاعته التواصل فقط مع حلفائه داخل جنوب إفريقية وفي لوساكا؛ في حين لم يكن لديه اتصال مباشر مع الحكومات الغربية، التي كانت لها أهدافها الخاصة وسوء فهمها. كان كعنكبوت في وسط شبكة ممزقة. لكنه كان لأربعة عشر شهراً استثنائياً في وسط (الديبلوماسية) المعقدة ـ مع زملائه، ورئيسين وزعماء أجانب ـ والتي من شأنها تحويل بلاده.

استمرت محادثاته السرية الطويلة مع فريق الحكومة. وطلب منهم التوقف عن اعتباره جزءاً من المشكلة، وقبوله جزءاً من الحل. لكنهم بقوا خائفين من إطلاق سراحه، وظلوا متمسكين بثلاثة شروط ربما لا يمكنه قبولها: يجب أن يتخلى المؤتمر الوطني الإفريقي عن الكفاح المسلح. ويبعد عن الحزب الشيوعي، ويتخلى عن مبدأ حكم الأغلبية.

ما زال مانديلا يصر على وجوب التحادث مع الرئيس بوثا مباشرة، وأعد مذكرة دقيقة له، حيث ناقشها مع زملائه الأربعة من بولسيمور، ثم سلمها إلى فريق الحكومة. تم قبولها في آذار (مارس) 1989 «كورقة غير رسمية» أكثر من أن تكون وثيقة رسمية، وكتمهيد للمحادثات التالية. حذرت المذكرة من أن جنوب إفريقية انقسمت بين معسكرين متعاديين. حيث السود والبيض يذبح بعضهم بعضاً. وتابعت بتفسير اعتراضات مانديلا على شروط الحكومة الثلاثة:

1 ـ لا يستطيع المؤتمر الوطني الإفريقي التخلي عن العنف في حين أن الحكومة ليست مستعدة لاقتسام السلطة مع السود.

2 ـ إن المؤتمر الوطني الإفريقي لا يسيطر عليه الحزب الشيوعي. المنظمة لم تتبن في أي وقت من الأوقات بل حتى لم تتعاون مع الشيوعية ذاتها ـ ولا تستطيع الابتعاد عنهم، «أي رجل شريف يتخلى عن صديق حياة كاملة بناء على إلحاح خصم مشترك ويستطيع مع ذلك الاحتفاظ بقدر من المصداقية مع شعبه؟».

3 ـ يتوجب على الحكومة أن تقبل مبدأ حكم الأغلبية. «حكم الأغلبية والسلام الداخلي هما مثل وجهين لعملة واحدة».

لكن مانديلا أنهى المذكرة بملاحظة إيجابية. اعترف أن الإفريقيين الجنوبيين البيض كانوا مهتمين بخصوص الطلب الأمامي للمؤتمر الوطني الإفريقي بحكم الأغلبية في دولة وحدوية. وعرض محادثات تمهيدية لإيجاد المناخ الملائم للمفاوضات. سيكون «الوقت الذي يسمو فيه جميع الزعماء فوق مستوى الشروط المسبقة ويصبحون بذاتهم جزءاً من نقاش كبير حول جنوب إفريقية جديدة».[2]

عبر فريق الحكومة عن خيبته «بالمنطق الثوري الذي أدار من خلاله المؤتمر الوطني الإفريقي دعايته على الدوام»، وادعى أن لديه «حقائق استخباراتية قاسية» بأنه منذ عام 1964 كان الحزب الشيوعي «قد عزز قبضته تدريجياً على المؤتمر الوطني الإفريقي». وتشجع أكثر بالجزء الأخير من الوثيقة، الذي أظهر «استعداداً لوضع المصالح الوطنية فوق المصالح المحلية» وتطبيع الوضع، ووافق أن على الجنوب إفريقيين «حل مشكلاتهم بدون تدخل أجنبي».[3] لكن لم يكن هناك تقدم باتجاه المحادثات.

في لوساكا، كان تامبو يشعر بالقلق أكثر فأكثر. وقد هرّب له مانديلا نسخة من مذكرته إلى ب. دبليو. بوثا؛ لكن تامبو لم يعرضها على الإدارة

التنفيذية الوطنية خوفاً من أن يساء فهمها. وقلق أيضاً من أن الالتزام بالسرية وضع مانديلا في موقف غير ملائم. قال: «في حين كان نيلسون مانديلا يحافظ على السرية، فإنهم لم يكونوا كذلك». حاول مانديلا طمأنته برسالة إلى لوساكا عن طريق ببير زنود، راعي الأبرشية الأفريقاني الموثوق. أبلغ تامبو أن البلاد تنحدر نحو حرب أهلية. لكن الحكومة كانت «في مشكلة كبيرة وتبحث عن مخرج». ومحادثات مانديلا بالذات إنما هي محاولة جلب الأطراف الرئيسية إلى الطاولة، والمؤتمر الوطني الإفريقي وحده هو الذي يستطيع معالجة المفاوضات، حيث ستكون «قضية حياة وموت». كان مانديلا قد اجتمع عشر مرات مع فريق الحكومة خلال السنة الفائتة، وشرح: الآن أعطاهم قائمة أشخاص، بعضٌ منهم في السجن، ممن يريد استشارتهم.[4]

بعد ذلك بوقت قصير قام بزيارة مانديلا محاميه إسماعيل أيوب وافترض الاثنان أنهما مراقبان. ذهب أيوب إلى لوساكا ليخبر تامبو «لجنة الرئيس». كانت هناك مناقشات مثيرة للقلق. اعتقد زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي الذين رأوا وثيقة مانديلا أنها ستقف في طريق حملاتهم، وكان تامبو ما زال قلقاً من أن يظهر مانديلا بمظهر الخائن، كما سجل المحضر: «ليس المطلوب منا نحن أن نفاوض... إننا سنظهر القبول بالضعف والاستسلام... أما الآن، فليس هناك أي دليل على أنهم يريدون التفاوض بجدية». كانت هناك مخاوف أيضاً من أهداف السيدة تاتشر. كان تامبو مرتاباً بأنها تحث الآن على المفاوضات في الوقت الذي تبدو فيه الحركة (بالنسبة إليها) في حالة تشتت. لكن جوي سلوفو لاحظ أنه حتى تاتشر ذاتها كانت ترفض زيارة جنوب إفريقية ما لم يطلق سراح مانديلا ويُلغى حظر المؤتمر الوطني الإفريقي.

كان المؤتمر الوطني الإفريقي قلقاً على الخصوص من قائمة مانديلا بالأشخاص الذين يريد استشارتهم، بمن فيهم «المتنفذين الرئيسيين» التي أعطاها للحكومة. اعتقد سلوفو أن هذه اللقاءات يمكن استخدامها لتمزيق

صفوف المؤتمر الوطني الإفريقي، وأن مانديلا ربما «يطاح به من المركز الذي هو فيه». وارتاب كريس هاني أيضاً بأن الحكومة كانت تحاول تدمير مانديلا، من خلال تسريب محادثاتها معه. بقي تامبو قلقاً بخصوص السرية لكنه ما زال يثق بمانديلا: «لندعه يستمر، إلا أن معالجته بأكملها بحاجة إلى تعديل».[5]

هل كان مانديلا يخون؟ كان المؤتمر الوطني الإفريقي داخل جنوب إفريقية قلقاً بخصوص ديبلوماسيته المتوحدة. قال آلان بويساك: «إنه لم يستشر، وليس هناك خطيئة أكبر من ذلك في الجبهة الديموقراطية الموحدة». أراد بعض الزعماء بمن فيهم غوفان مبيكي، زيارة الذين طلب مانديلا التحدث معهم، وإبلاغهم بوجوب عدم رؤيته. أمضى مبيكي عدة ساعات في مقر مانديلا، وشعر بالحزن: «ظهر إما أنه ليس لديه ثقة كافية بي ليخبرني القصة بأكملها، أو أن الطرف الآخر توصل إلى إجراء ما معه شعر أنه لا يستطيع التخلي عنه». أصر مبيكي على «أنه لا يمكن لأية مشاورات مفيدة أن تتم في ڤيكتور فورستر».[6] الشائعات حول صحة مانديلا ومرض السل عززت الشكوك بأنه قد ضعف نفسياً وتم التلاعب به. لم ير أحد صورة له منذ عام 1965. قال أحد المساعدين في لوساكا «عيناه بدتا ميتتين جداً، ظننا أنه ربما تغير فعلاً».[7]

لكن تامبو وجد الآن وسيلة لاختراق حواجز الاتصالات وتحقيق اتصال مباشر أكثر. عام 1988 أرسل ماك ماهاراج، الهندي المحنك من روبن آيلاند إلى جنوب إفريقية مع سيفيوي نياندا، وهو فدائي متمرس من الـ MK عرف باسم «غيبوزا»، لإقامة «عملية فيولا» وهي مهمة عسكرية فائقة السرية يمكن أن ترتبط بالناشطين في الداخل وتوفر «سياسة ضمان» إذا ما فشلت المفاوضات. أُرسل ماهاراج إلى موسكو وأمستردام، حيث حصل على جوازات سفر مزيفة وأسنان جديدة وفقد لحيته. وجُهز أيضاً بحاسوب محمول و(موديم) تم إحضارهما عن طريق مضيفة صديقة في شركة الطيران الهولندية، حيث بإمكانه ـ عن طريقهما ـ إرسال رسائل مشفرة عبر الهواتف. ويمكن لهذا النظام الذي

اخترعه اثنان من الخبراء في المؤتمر الوطني الإفريقي في إنكلترا وهما تيم جينكن وروني بريس، يمكن له أن يقيم اتصالاً ـ في السر ـ بين تامبو ومانديلا.

بحلول نيسان (أبريل) 1989، كان تامبو على استعداد للاتصال مباشرة مع مانديلا في منزله ـ السجن ـ رفض مانديلا الشروع بنشاطات سرية في غمرة محادثاته السرية الدقيقة؛ لكن ماهاراج أرسل رسالة شرح فيها كيف يستطيع إرسال مذكرات إلى تامبو مخبأة داخل أغلفة الكتب، والتي يمكن أن تصل إلى لوساكا عبر نظام حاسوب مُرَمَّز. في النهاية بدأت الرسائل من مانديلا تظهر ظهوراً خارقاً على الشاشة في لوساكا. قال تيم جينكن «الاثنان كانا يتحدثان الآن بثقة، لأول مرة منذ مطلع عقد الستين». ساعدت الرسائل في طمأنة تامبو مجدداً بشأن أهداف مانديلا؛ لكنه لم يستطع أن يشارك زملاءه بمصدر السر الفائق بدون «المخاطرة بالنظام». وما زالت لديه صعوبة كبيرة في إقناع جناحه اليساري بأن مانديلا لم يكن يخون.[8]

في 28 نيسان (أبريل) كان هناك اجتماع متوتر آخر «للجنة الرئيس» في لوساكا، مع المزيد من القلق حول مذكرة مانديلا. أوجز تامبو قائلاً: إن مانديلا على خطأ بإعطاء الحكومة أسماء الأشخاص الذين يريد رؤيتهم، وأمِل بأنه سيخرق سرية محادثاته؛ لكن «ليس لدينا سبب مُحِقٌّ للقول إنه يجب أن لا يستمر» وأضاف: «لا نستطيع كقضية سياسية القول فعلاً إنه لا يستطيع طلب شخص ما ليراه».[9]

وضع تامبو أفكاره الخاصة في يومياته؛

1 ـ نحن لسنا ضد التفاوض من حيث المبدأ، لكن الظروف لم تنضج بعد.

2 ـ مانديلا لا يفاوض بل يسهّل لاجتماع بين ممثل لجنوب إفريقية والمؤتمر الوطني الإفريقي، لتجنب حمام دماء، كما يراه. لقد جعل ذلك واضحاً.

3 ـ المشكلة بالنسبة إلينا، ليس فيما يخبر به الفريق عندما يزوره، ولكن

لأننا لا نعلم ما يقول أحدهم للآخر. هذه معلومات أساسية لا نستطيع بدونها ـ بأية حال ـ الاجتماع إلى النظام، لا سيما لأنهم سيكونون عارفين كلياً عن طبيعة ومحتوى المحادثات خلال تلك الشهور الكثيرة.

4 ـ لذلك نوافق على أنه يجب أن يستمر في الاتصال لكن يجب أن يخبرنا بشأن المناقشات معهم.[10]

القلق والارتباك في لوساكا لم يكونا مفاجئين. ففي كلمات بربارة ماسيكيلا التي كانت هناك في ذلك الوقت: «هناك دوماً جنون الارتياب في المنفى. أنت تعلم أنها على وشك الحدوث، لكنك لا تستطيع ضبط أعصابك. يجب أن تقوم بخطوة إلى الأمام ربما تكون خاطئة. هناك تخمين وتخمين ثان. الناس ضحوا بشبابهم بأكمله من أجل النضال، وهم يرفضون أن يقوموا بالقفزة: يستطيع بعض الناس أن يضعوا أنفسهم في الوضع الجديد، لكن بعضهم الآخر لا يستطيع».[11]

شكوكهم كان لها أساسها الصحيح. كانت الحكومة تأمل بالتأكيد أن تفصل مانديلا وتقسّم المؤتمر الوطني الإفريقي. وأن تضع صفقة منفصلة مع باثيليزي. لكنهم أخطؤوا في قراءة قدرة مانديلا وتماسكه. قال جورج بيزوس، الذي كان يرى مانديلا كثيراً في منزله (لاحظ أن حوض الزهور بالذات كان فيه جهاز تنصت) قال: «إنهم لم يتعاملوا مع أشخاص سود من هذا الوزن. اعتقدوا أن بإمكانهم إفساده، مثل ماتانزيما أو مانغوبي. إنه لم يخدعهم، كان خطؤهم في التقدير هو الذي أدى إلى إطلاق سراحه. وبما أنهم بدؤوا بالتفاوض، لم يعد بإمكانهم التراجع، بسبب انفلات الزمام. في ڤيكتور فيرستر كان مانديلا هو الذي يمسك بالوضع».[12]

سيسولو الذي كانت لديه اتصالات متقطعة مع مانديلا في بولسيمور شارك في ذلك الرأي: «لقد أساؤوا تقديره، لقد اعتبرونا أشخاصاً همجيين بمن

فيهم ماديبا. عندما رأوا لهجة معقولة، أخطؤوا في فهم الشخص. من السهل إساءة تقدير ماديبا عندما يكون لطيفاً بدون معرفة عناده في الموقف. . . لقد نظروا إلى لين الخط اللين: إنه ليس عدوانياً، إنه ليس همجياً. ثم أمكن تخيل الاحتمالات الموجودة هناك: الحصول على مانديلا، كان الحزب الوطني على استعداد للنقاش لأن الزعامة ستأتي منهم، وليس من المؤتمر الوطني الإفريقي.[13]

مهما كانت توقعات الحكومة، فقد وقعت جميعها في التشوش: لأنه في كانون الثاني (يناير) 1989 عانى ب. دبليو. بوثا من سكتة دماغية أقعدته لمدة شهر، في حين أن الوزير المتطرف العنيد كريس هينيس أصبح رئيساً بالوكالة، حيث بث المزيد من الكآبة بين الديبلوماسيين الأجانب. قال روبن رينويك: «بشاربه الحزين كان يذكرني دوماً بالفظ (حيوان ثديي شبيه بالفقمة)»[14] بعد شهر استقال بوثا من زعامة الحزب الوطني، مفترضاً بدون حكمة أن بإمكانه البقاء كرئيس دولة.

توجب على الحزب انتخاب زعيم جديد، ولم يختر المرشح المعتدل، وزير المالية الليبرالي باريند دو بليسيز، بل وزير التعليم المحافظ بوضوح إف. دبليو دوكليرك. كان يبدو بالنسبة إلى معظم الزعماء الأجانب عنيداً متصلباً، بمن فيهم تاتشر. وكما قال أمين سرها الخاص تشارلز بوويل[15]: اعتقدت أنه مجرد شخص دموي آخر من البوير، قاوم دوكليرك العديد من إصلاحات ب. دبليو. بوثا، أصيب بصدمة عندما قال وزير الخارجية بيك بوثا إنه على استعداد للعمل تحت إمرة رئيس أسود في المستقبل. لم يكن دوكليرك مهيباً، كما لاحظت مراسلة الفايننشال تايمز باتي وولدمير: «رجل صغير، بجلد سيِّىء وذوق أسوأ في اللباس، إنه يتكلم الإنكليزية بطريقة سيئة، يدخن بشدة، ويبدو مراوغاً إلى حد ما». تشجع الديبلوماسيون البريطانيون لأنه استمع، وكان من السهل الوصول إليه، ولا ينتمي لأية «جهة». وكان المؤتمر الوطني الإفريقي

يأمل عندما وعد المؤتمر الحزبي للحزب الوطني «بقفزة كبيرة إلى الأمام»، وأصر على أن لديه تفويضاً بالتحدث إلى أي شخص.[16] لكنه أظهر القليل من الأمل بتغيير جريء في السياسة.

تطلع مانديلا وتامبو معاً إلى العالم الخارجي وبخاصة بريطانية لتجنب حمام دماء عن طريق ضغط العقوبات. لكن تامبو أصبح ساخطاً بسبب تصلب السيدة تاتشر، ولا سيما بعد أن وصفت المؤتمر الوطني الإفريقي بأنه إرهابي وذلك في قمة الكومونولث في فانكوفر في تشرين الأول (أكتوبر) 1987. أرادت أن تزور مانديلا في السجن، لكن تامبو عارض ذلك بشدة، خوفاً من أن تشرع في إبعاده عن المؤتمر الوطني الإفريقي: «لن نسمح بذلك» قال تامبو في كانون الأول (ديسمبر) 1988 وتابع: «يجب أن تخرجه من السجن». كان تامبو طائراً بخصوص المواقف البريطانية كما شرح في لندن في كانون الثاني (يناير) 1989: «لا أدري ما الذي سيغير المواقف الديبلوماسية في لندن، إنهم عديمو الحساسية إلى حد كبير. أعتقد أنها مذبحة رهيبة. من الصعب جداً إيجاد العذر للسيدة تاتشر بقولها إن المؤتمر الوطني الإفريقي عبارة عن إرهابيين، لأننا نحن الضحايا. إنها عمياء عميً كاملاً: إنها تستطيع رؤية عنف المؤتمر الوطني الإفريقي فقط. بريطانية هي التي أوصلتنا إلى هذه العنصرية.

كان هناك المزيد من الشائعات بأن بريطانية تخطط لتقوم بدور الوسيط في مفاوضات لاحقة في لندن، حيث ستحث دول جنوب إفريقية المؤتمر الوطني الإفريقي على الاتفاق.[17] أواخر آذار (مارس) تجولت تاتشر في إفريقية لمدة أسبوع، منتهية في ناميبيا، التي كانت تتحرك نحو الاستقلال، وحيث حذرت بحدة بيك بوثا من القيام بهجوم معاكس على سوابو. لم تستطع زيارة جنوب إفريقية، كما قالت، ما لم يطلق سراح مانديلا. إلا أن موقفها لم يكن مشجعاً بالنسبة للمؤتمر الوطني الإفريقي. . تحدثت عن رجل واحد واقتراع واحد، لكن ليس بالضرورة ضمن دولة موحدة.[18] بحثت مع باثيليزي والزوار

الآخرين إمكانية إقامة دساتير فدرالية بديلة، مثل النظام السويسري للكانتونات. كانت هناك دلائل متزايدة لمبدأ «فرق تسد».

كان المؤتمر الوطني الإفريقي في حيرة أكثر فأكثر بعداء تاتشر في حين كان الكثيرون جداً من الأفريقانيين على صلة معه ويريدون أن يشرع دوكليرك بالمحادثات؛ كان من بينهم بيتر دولانج من البرودربوند، جوهان هينز، رئيس كنيسة الإصلاح الهولندية، ويلي إسترهيوز من جامعة ستيلينبوش والكاتب ويمبي دوكليرك، شقيق الرئيس. تساءل ثابو مبيكي: «لذلك لماذا تسير السيدة تاتشر في اتجاه مختلف، حيث قبلت بوضوح حقوق المجموعة ورفضت المحادثات مع المؤتمر الوطني الإفريقي؟». ما زال مبيكي يأمل بأن تلعب تاتشر دور صانع سلام. عند لقائه مجدداً بالأفريقانيين القياديين (بمن فيهم ويمبي دوكليرك) في مؤتمر في غولد فيلدز في نيسان (أبريل)، اعتقد أن السيدة تاتشر ربما تكون وسيطاً بين المؤتمر الوطني الإفريقي وحكومة جنوب إفريقية؛ لكنها قررت أن أي «محاولة للعب دور مباشر من الخارج ستلاقي عدم الترحيب». [19]

حقق المؤتمر الوطني الإفريقي اختراقاً جديداً في حزيران (يونيو) 1989 عند اجتماع مؤتمر للمحامين في أوكسفورد شاير، مولته مؤسسة فورد وترأسه المحامي ـ الفيلسوف رونالد دوركين. حول مفهوم القانون في جنوب إفريقية. حضره كبار القضاة في جنوب إفريقية ومحامو المؤتمر الوطني الإفريقي، ولورد بريطاني في القانون هو اللورد أوليڤر ـ مع تامبو وثابو مبيكي بعيداً عن الأضواء. لكن تاتشر نأت عنه. والوزراء البريطانيون الآخرون بمن فيهم جيوفري هاو، كريس باتن، وليندا تشوكر أرادوا الاعتراف بالمؤتمر الوطني الإفريقي: «السيدة تاتشر وحدها التي توقفهم، إنها محافظة». قال أحد موظفيها. [20]

كان مانديلا رافضاً لانتقاد السيدة تاتشر علناً. لقد أعجب بالسيدة القوية التي كانت بإمكانها التعامل مع غورباتشيف، وأدرك أنها ربما يكون لها نفوذ فذ على بريتوريا. تأثر بتقارير سفيرها روبن رينويك، وفي آذار (مارس) 1988

أرسل رسالة عن طريق محاميه في كيبتاون هيمي برنات مرحباً بموقف السيدة تاتشر ضد التمييز العنصري. «على الرغم من الاختلاف في الرأي حول قضية العقوبات». [21] لكن بعد تسرب الرسالة تسرباً مضللاً كتب مانديلا إلى رينويك في 10 نيسان (أبريل) منكراً بشدة أنه كتب مباشرة إلى تاتشر: «كنت سأفضل فعل ذلك في مجال النقاش وجهاً لوجه معك في السجن». مع ذلك اختتم قائلاً: «يسعدني أن أطلب إليك إيصال أفضل تمنياتي لرئيس الوزراء». [22]

صار المؤتمر الوطني الإفريقي يعلق الآن آمالاً أكبر على الإدارة الأمريكية الجديدة برئاسة جورج بوش. وقد ألزم الرجل الجديد الموكل إليه شؤون إفريقية في وزارة الخارجية، هيرمان كوهين، ألزم نفسه سريعاً وعلناً بمنح الحقوق السياسية المتساوية لجميع الجنوب إفريقيين، ووصف التمييز العنصري «بأنه كارثة شائنة للحقوق الإنسانية». بحلول أيار (مايو) كان بوش يبعد نفسه عن بريتوريا بالتحدث إلى وفد من الجنوب إفريقيين السود برئاسة الأسقف توتو، وبدعوة ألبيرتينا سيسولو لتقديم تقرير عن حقوق الإنسان. [23]

أصبحت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية أكثر تشككاً في وصف الجناح اليميني للمؤتمر الوطني الإفريقي بأنه شيوعي خطر. في آذار (مارس) 1988 عندما كان بوش نائباً للرئيس صدر تحليل سري للمؤتمر الوطني الإفريقي (حيث نشر جزئياً عام 1996) أظهر احتراماً واضحاً لزعامة تامبو. وفي حين كان سبعة عشر من بين سبعة وعشرين عضواً من الهيئة التنفيذية شيوعيين محتملين، ـ كما قال التقرير ـ فإن هناك حفنة من الأعضاء السود الملتزمين داخل جنوب إفريقية. وتامبو كان يعمل منذ وقت طويل على تحدي وتحديد نفوذ الحزب الشيوعي الجنوبي إفريقي: «إن النظام الإجماعي للمؤتمر الوطني الإفريقي كما قالت السي آي إيه، قام بعمل جيد جداً؛ وأصبح المؤتمر الوطني الإفريقي أقل مناصرة للجبهة الديموقراطية الموحدة، والمعارضة الداخلية. ومن المحتمل أن يستمر في «اتباع سياسته الثنائية المسار في الحفاظ على روابط وثيقة مع دول

الكتلة [السوفييتية] في حين يوسع الاتصالات في الغرب». بالإجمال إن المؤتمر الوطني الإفريقي واجه تحديات الأعوام القليلة الماضية «بالحفاظ على تماسك تنظيمي، والاحتفاظ بموقفه المسيطر في الحركة ضد التمييز العنصري، وتوسيع اتصالاته مع الغرب».[24] لكن بعد ذلك بعشرة شهور، في كانون الثاني (يناير) 1989، لاحظت السي آي إيه أن «الأزمة» في جنوب إفريقية لن تتوقف «مما يمنع تحولاً جذرياً... مثل الإطلاق غير المشروع ـ والمستبعد إلى حد كبير ـ لسراح زعيم المؤتمر الوطني الإفريقي السجين نيلسون مانديلا».[25]

بدت واشنطن ولندن وهما تلعبان لعبة مزدوجة بتعزيز الزعيم باثيليزي. ورأى المؤتمر الوطني الإفريقي في ذلك دعماً لسياسة دوكليرك بخصوص حقوق المجموعة التي من شأنها أن تجعله قادراً على إطلاق سراح مانديلا في حين يبث الانقسام في القبائل، وبذلك يحافظ على سيطرة الحكومة عليها. اعتقد سيسولو بعد ذلك أنه: «ليس تاتشر فحسب، أعتقد أن أمريكة وألمانية تعملان أيضاً ضمن خطة محددة لتعزيز باثيليزي بكل طريقة ممكنة، وتلقي تقارير عن رد فعل مانديلا».[26] بدا مانديلا وهو أكثر ثقة بباثيليزي؛ بعد تلقي تحياته في عيد ميلاده السبعين، شكره بحرارة وتمنى استئناف علاقته الودية مع تامبو. مؤكداً الحاجة الملحة للوحدة: إن أي عمل أو تصريح يزيد من الانقسام ـ كما حذر ـ سيكون خطأ قاتلاً.[27] لكن تامبو الذي خانه باثيليزي في إحدى المرات، خشي من أن زعيم الزولو سيستغل الصداقة مع مانديلا.

ماذا كان يخطط دوكليرك؟ في أيار (مايو) حاول تامبو أن يقيّمه بخطه الدقيق في دفتر ملاحظاته:

- سياسي نموذجي للحزب الوطني ـ محافظ ـ مختلف عن ب. دبليو حيث يعتمد على الجدل والمنطق بدلاً من استخدام أصبعه وإسكات النقاش.
- لذلك هو قادر على أن تقنعه الحقيقة.

إلا أنه اعتقد أيضاً أن دوكليرك كان «حازماً بشأن حقوق المجموعة ـ ليست قابلة للتفاوض»؛ وأن «حكم الأغلبية غير مقبول بتاتاً»، بالنسبة إليه. كان الزملاء قد نصحوا تامبو بوجوب أن يكون «حذراً وواعياً ولا يهرع إلى المفاوضات «كن حريصاً بخصوص ما تتخلى عنه الآن، ربما تتمنى لو أنك لم تفعل ذلك إذا ما تحول توازن القوة لصالحك في المستقبل».[28]

استمرت ارتباطات دوكليرك مع الحكومة البريطانية بإقلاق المؤتمر الوطني الإفريقي. في حزيران (يونيو)، تجول في أوربا ليطمئن الزعماء في الخارج، بمن فيهم السيدة تاتشر، التي قالت فيما بعد: «هناك مناخ جديد في جنوب إفريقية». لكن المؤتمر الوطني الإفريقي صار قلقاً الآن من أنها أرادت حلاً يقوم على «حماية المجموعة»، يدعمه باثيليزي، كما شُرح في «تقرير عن المشاورات» في 6 حزيران (يونيو). قال ديبلوماسي المؤتمر الوطني الإفريقي عزيز باهاد: «لا يمكننا أن نرى كيف ستكون حَكَماً شريفاً، في الوقت الذي ترتبط فيه ارتباطاً وثيقاً بالنظام».[29]

في جنوب إفريقية صار دوكليرك يسيطر الآن على الحكومة. فقد أشرف على مؤتمر حزبه الفدرالي وكشف خطة لخمس سنوات من العمل استعداداً للانتخابات في أيلول (سبتمبر) 1989. وعدت الخطة بوضع حد للتمييز وإدخال دستور ديموقراطي، لكنها وضعت المزيد من التأكيد على «حقوق المجموعة» التي من شأنها في النهاية أن تقسّم السكان غير البيض. كان الرئيس بوثا قد وضع على الهامش بجلاء، ورد بشدة برفض حضور مأدبة احتفال على شرفه.

كان التمرد الأسود الداخلي يظهر الآن علائم إحياء قوي بعد الإجراءات الصارمة المدمرة. وأعلن تامبو أن 1989 «هي سنة العمل الجماهيري من أجل سلطة الشعب»، وتبعت دعوته موجة جديدة من الاحتجاج. في كانون الثاني (يناير) شرع السجناء في روبن آيلاند بإضراب طويل الأمد عن الطعام، مما أقنع

الحكومة في النهاية بإطلاق سراح تسعمئة متهم، بمن فيهم زعماء رئيسيون في الجبهة الديموقراطية الموحدة. في شباط (فبراير) تجمعت هذه الجبهة من جديد، بالتحالف مع نقابات العمال في كوساتو COSATU في «حركة ديموقراطية جماهيرية» شنت سريعاً حملة تحد ضد المؤسسات المعزولة عنصرياً، بدءاً من عمليات وصول مرضى سود إلى مستشفيات البيض ـ حيث وافق الأطباء والممرضات على علاجهم. الكنائس كانت تتحول إلى ناشطة أكثر فأكثر، مع وجود الأسقف توتو في الطليعة. وأصبح الكفاح المسلح فعالاً أكثر، مع هجمات على رجال الشرطة وأبنية الحكومة، بلغت الذروة في هجوم ناجح بمدافع الهاون على محطة رادار في أيار (مايو). كتب توم لودج: «كانت تحسناً ملحوظاً في قَدَر الحركة». في حين أن الحكومة الجديدة، التي كانت تواجه الانتقاد الدولي والأزمة الاقتصادية المستمرة، بدت وهي تفتقد المصادر والحزم من أجل المزيد من القمع العسكري الذي لا يرحم.[30]

كان ب. دبليو بوثا ما يزال رئيس دولة، على الرغم من ضعفه سياسياً؛ وفي فترته الانتقالية القلقة بالذات تلقى مانديلا دعوة كان ينتظرها منذ سنتين. بوثا كان يسأل في معظم الأحيان (كما قال لي) رئيس استخباراته نيل بارنارد: «متى سيأتي مانديلا لرؤيتي؟» ليتم إخباره أن الوقت لم يحن بعد. لكن أواسط 1989 قال بارنارد إن مانديلا أراد التحدث إليه، وإن الوقت قد حان. وافق بوثا على «نقاش عام».[31] في 4 تموز (يوليو) أخبر الجنرال ويلمز المهذب مانديلا بأنه سيرى الرئيس بوثا في «دعوة مجاملة» في الصباح الباكر من اليوم التالي. مانديلا الحريص دوماً على صورته كان مصمماً على أن يعطي الانطباع الصحيح؛ طلب لباساً جديداً، أعاد قراءة جميع ملاحظاته، وحفظ عن ظهر قلب ما سيقول.[32] كان الاختبار الأكبر لمنزلته، لتحدي رجل معروف بتنمره والتلويح بأصبعه: السجين يواجه الرئيس. قال أحد زملائه: «كان يشعر دوماً أن الحكومة عاملت السود كأطفال، كان مصمماً على لقاء الرئيس على أساس المساواة».[33]

نقل مانديلا أولاً لتناول الفطور مع الجنرال ويلمز ثم إلى المرآب تحت مكاتب الرئيس في توينهويز، بجوار البرلمان. ولدى دخوله سراً في المصعد، وجد كوبي كويتسي ونيل بارنارد وآخرين وهم ينتظرونه بقلق في حجرة الانتظار. قام الميجور ماريز، آمر السجن، بإعادة ربط رباط حذائه بعناية. تذكر مانديلا «كنت متوتراً لأنني كنت أتوقع شجاراً».[34]

لكن بوثا كان في ألطف أحواله. اتجه نحو السجين الشهير الذي لم يلقه أبداً، ويده ممدودة بود ولطف. جلسا إلى الطاولة مع كويتسي وبارنارد؛ في حين أن بوثا ـ ودهش مانديلا ـ صب الشاي بنفسه! تحدثا براحة لنصف ساعة عن تاريخ جنوب إفريقية وثقافتها: عن حرب البوير، والرؤساء الإفريقيين وماتانزيما في الترانسكي. واقترح مانديلا أن الأفريقانيين كانوا فعلاً «أول مقاتلي الحرية». وقارن نضاله بالذات (كما فعل ذلك كثيراً) بالتمرد الأفريقاني ضد الحكومة في الحرب العالمية الأولى. وشرح كيف أنه كان يعرف الأفريقانيين أفضل في السجن. قال بوثا إن بإمكان مانديلا المساعدة للتوصل إلى حل سلمي؛ لكن يجب أن لا ينسى ما يمكن أن يقدمه الأفريقانيون من مساعدة. في النهاية، طلب مانديلا ـ بتوتر أكثر ـ إطلاق سراح جميع السجناء السياسيين، حيث رفض بوثا ذلك بتهذيب. لكنهما اتفقا حول الحاجة إلى السلام. وأعدا بياناً مقتضباً، وافترقا بلطف. تذكر مانديلا: «كانت من ألطف المقابلات بالنسبة إليّ، لقد عاملني باحترام، وبأسلوب صحيح جداً. تلك هي الصورة التي أخذتها عنه».[35] اعتقد نيل بارنارد أن المناخ كان مرحاً إلى الدرجة التي جعلت المسألة «مسألة وقت فقط» قبل إطلاق سراح مانديلا. لكن كان هناك بعض التوتر عندما تناول مانديلا موضوع إطلاق سراح سيسولو فوراً. بدا بوثا متعاطفاً، لكن توجب على بارنارد أن يبلغ مانديلا في طريق العودة إلى السجن أن هناك حاجة للوقت لإقناع البيروقراطية، وهذا ما أثار غضب مانديلا بشدة؛ صوّر اللقاء أحد المساعدين، مسجّلاً مشهداً لطيفاً غير رسمي. كذلك سجله

على المسجلة موظفو بوثا، لكن بارنارد أتلف الشريط فيما بعد «مما أثار غضب بوثا، الذي ادعى أن بارنارد (طعنني في الظهر)».[36]

رأى مانديلا أن بوثا يعبر (الروبيكون) الذي ابتعد عنه قبل ثلاث سنوات. وعلاقته مع «المتباكي» برهنت على أنها راسخة رسوخاً غريباً. وصف البيان الرسمي بلطف اللقاء بأنه «زيارة ودية غير رسمية» استفاد فيها الرجلان من الفرصة لتأكيد دعمهما للتطورات السلمية في جنوب إفريقية». وافق مانديلا عليه، في حين شرح أنه أظهر «عدم التحول عن الموقف الذي اتخذته خلال السنوات الثماني والعشرين الماضية». وهو أن الحوار وحده مع المؤتمر الوطني الإفريقي من شأنه إحلال السلام في البلاد.[37] لكن الوعد بدعم التطورات السلمية لم يكن فارغاً: سوف يثق مانديلا وبوثا أحدهما بالآخر أكثر من أن يثق أي منهما بـ دوكليرك؛ وإن العديد من زملاء بوثا، بمن فيهم بارنارد سيصرون على أن بوثا فعل لتحقيق المصالحة أكثر بكثير مما فعله دوكليرك.[38]

معظم الصحفيين والسياسيين افترضوا أن الرئيس بوثا تحدث مع مانديلا بهدف سلب دوكليرك فرصة الظهور. إذا كان الأمر كذلك، فهو من غير طائل. بعد ستة أسابيع استقال بوثا في كلمة غاضبة على شاشة التلفاز، متشكياً من أنه: «تم تجاهلي من قبل وزراء يخدمون في وزارتي» وخلفه - رغم إرادته - دوكليرك.

الرئيس الجديد لم يظهر حتى ذلك الوقت أية رغبة في إحداث تغيير أساسي للتوجه. كان قلقاً (كما قال شقيقه ويمبي) بشأن السياسة اللاعملية للتمييز العنصري وليس لا أخلاقيتها.[39] لكنه كان عملياً ذا بصيرة واضحة وكان مدركاً جداً للأزمة الاقتصادية. وأدرك بسرعة كم كانت خياراته مقيدة: كل الطرق تؤدي إلى مانديلا.

في سجنه في المنزل كان مانديلا أكثر قدرة على الاتصال. العائلة والأصدقاء. في تموز (يوليو) احتفل بعيد ميلاده الواحد والسبعين، حيث

أمضى أربع ساعات مع ويني وخمسة عشر عضواً آخرين من العائلة، بمن فيهم الأولاد والأحفاد. كما أُحضر زملاؤه الأربعة أيضاً من بولسيمور لرؤيته ـ لأول مرة منذ كانون الأول (ديسمبر) سُمح لكاثرادا بلباس جديد تماماً لهذه المناسبة. كتب: «هناك عناء كبير في تعزيز الشخصية الإنسانية، والأهم من ذلك هي القدرة على اختيار شيء. . . إن ذلك يعطي للمرء شعوراً جميلاً حتى بالقدرة على تحديد لون ربطة العنق، أو نموذج اللباس». شجع وصول الألبسة الشائعات حول إطلاق السراح، مع أن كاثرادا بقي مرتاباً كما هي الحال دوماً. «ليس هناك أي شيء إطلاقاً يشير إلى أن شيئاً سيحدث في المستقبل القريب» هذا ما قاله لإدي دانيلز.[40] كان هناك توقع خاص بأن سيسولو سيطلق سراحه. منذ 15 آذار (مارس) أصبح في زنزانات مانديلا القديمة في بولسيمور، منفصلاً عن الثلاثة الآخرين. مازحه كاثرادا قائلاً: «انتبه إلى Ides آذار (مارس)». لكن الحكومة ما زالت قلقة بشأن إطلاق سراح سيسولو قبل الانتخابات الوشيكة: طلب الفريق من مانديلا عدة مرات تحذير سيسولو من افتعال أية مشكلات.[41] لكنه لم يطلق سراحه.

اهتاجت الحكومة. في 19 آب (أغسطس) التقى مانديلا مجدداً بالفريق، ، الذي ترأسه كما في السابق كويتسي وبارنارد، اللذين نظما وثيقتهما الخاصة أو «الورقة غير الرسمية» رداً على مذكرته إلى بوثا. اعترفت الوثيقة أن الطرفين لديهما نقاط اتصال بشأن «مرحلة ما قبل التفاوض»، في حين رفضت العديد من أقوال مانديلا: لكنها اقترحت مناقشات بعد الانتخابات في أيلول (سبتمبر).[42]

هناك في لوساكا، صار تابو معرضاً الآن لضغط أكبر، محاولاً جمع المؤتمر الوطني الإفريقي وحلفائه معاً. بقي موالياً كلياً لمانديلا. ما زال يصر على تسمية نفسه رئيساً بالوكالة، مبقياً الرئاسة فارغة من أجل (صديقه). قالت باربارة ماسيكيلا: «أعترف بأن مانديلا لا بد وأن يكون عملاقاً، لو كان تابو يريد أن يصبح رئيساً لاعتنى أكثر بنفسه».[43] لقد أصبح الآن مرهقاً بوضوح في

الوقت الذي طار فيه باستمرار بين زامبية وأوربة وأمريكة مناضلاً من أجل الاعتراف والدعم. كان أطباؤه يحذرونه باستمرار بوجوب الراحة. وهو بنفس عمر مانديلا، لكن الضغوط خارج السجن كانت أكبر، كما تكهن مانديلا. وواجه تامبو أصعب مهماته في جعل المؤتمر الوطني الإفريقي يقف وراء الالتزام بالمحادثات، التي كان مانديلا قد شرع بها.

من أجل فتح الطريق أمام المفاوضات، توجب على تامبو أن يجمع المؤتمر الوطني الإفريقي مع دول خط المواجهة ببيان محدد. في 21 آب (أغسطس) اجتمعت منظمة الوحدة الإفريقية في زيمبابوي وصادقت على وثيقة أعدها تامبو بعناية وعُرضت على مانديلا بمسودتها. كان «إعلان هراري» تصالحياً واضحاً في اللهجة والمحتوى في آن واحد؛ ففي حين ظل يدعم الكفاح المسلح، أكد على أن العداءات يمكن وقفها بعد إطلاق سراح السجناء السياسيين، وإلغاء حظر المؤتمر الوطني الإفريقي، وإبعاد القوات عن المناطق. وقد أبعد الإعلان نفسه بوضوح عن الجناح الثوري الذي يؤمن «بالاستيلاء على السلطة». وجاء فيه أن الزعماء الأفارقة «عبروا باستمرار عن تفضيلنا لحل يتم التوصل إليه بالوسائل السلمية». في الحقيقة كان الكفاح المسلح عديم الفعالية؛ ففدائيو MK كانوا يتدفقون عبر الحدود إلى جنوب إفريقية ليقعوا فقط في الكمائن، أو يُلقى القبض عليهم ويعذبون في الوقت الذي شدد فيه جيش جنوب إفريقية من استخباراته عن طريق المخبرين والاستجوابات.(44) كان المؤتمر الوطني الإفريقي يتطلع إلى العقوبات، أكثر من تطلعه إلى الحرب للضغط على بريتوريا لتقبل بالتفاوض.

رأى مانديلا في إعلان هراري اختراقاً حاسماً، واضعاً المسؤولية على بريتوريا لتوفير الشروط اللازمة للمحادثات، في حين تكهن بإطار سلمي من أجل إطلاق سراحه.(45) ورحب العالم به. علقت الفانينشال تايمز «إنه يوفر المناخ والإطار معاً للمفاوضات حيث يتوقع أن يلعب فيها دوراً رئيسياً».(46) كان ذلك نصراً شخصياً لتامبو، لكنه كاد يقتله. فقبل عدة أيام من الاجتماع

انهار بسبب سكتة دماغية خطيرة، وتم نقله بالطائرة إلى مستشفى لندن، حيث بدأ «السيد ريجينالد» علاجه الطويل وفترة النقاهة، والتعلم مجدداً وتدريجياً كيف يتكلم ويمشي. حُرم مانديلا من أوثق اتصال لديه مع العالم الخارجي.

كان دوكليرك يتحرك الآن بسرعة أكبر. ففي الانتخابات العامة في 6 أيلول (سبتمبر) حقق الحزب الوطني نصراً غير مؤكد، بنسبة 48٪ من الناخبين، في حين أن الحزب المحافظ اليميني، والحزب الديموقراطي الأكثر تحرراً حققا مكاسب. لكن دوكليرك رأى في النتيجة تفويضاً بإحداث تغيير. ثم الضغط عليه من جميع الأطراف لإطلاق سراح مانديلا ـ من قبل المصرف المركزي، والحكومات الغربية، والمثقفين الأفريقانيين الذين ضموا شقيقه بالذات ويمبي، الذي كان يجتمع مع المؤتمر الوطني الإفريقي في بريطانية. كان ويمبي في حالة توتر مراقباً تحول دكليرك خطوة خطوة: «لم أستطع تصديق أذنيّ عند سماعي بعض الأشياء التي قالها في السر».[47] كان دوكليرك يظهر نفسه بسرعة على أنه أكثر واقعية وعقلانية من بوثا. قال لروبن رينويك: «لقد تعلمت درس روديسيا، لا تتأخر جداً في التفاوض مع الزعماء الحقيقيين».[48] في تلك الأثناء كان الأفريقانيون ينعزلون أكثر من أي وقت مضى، بوصفهم أكباش فداء العالم؛ ففي فيلم عن قنبلة شديدة الانفجار عام 1989 بعنوان «لاح مميت» كان الأوغاد ذوي لهجات أفريقانية.

كانت المحادثات بين المؤتمر الوطني الإفريقي والرسميين في الحكومة مستمرة ضمن زخمها بالذات، حيث قال بارنارد العقل الموجه، وبدون إعلام كامل لـ دوكليرك. وصلت الاتصالات إلى تقارب جديد بعد أسبوع من الانتخابات في لقاء مثير في سويسرا. فقد التقى نائب بارنارد لرئاسة الاستخبارات مايك لو وجاسوسه الأكبر مارتيز سبار ووكر، التقيا سراً في غرفة في فندق بالاس في لوكيرن مع ثابو مبيكي وزميله في المؤتمر الوطني الإفريقي جاكوب زوما. قال مبيكي مازحاً عند اللقاء: «حسناً، ها نحن هنا، الإرهابيون

الدمويون ـ والشيوعيون كذلك». تحدث هو ولو خلال الليل، معربان بوضوح عن استعدادهما للتفاوض. أَمَرَّ لو رسالة إلى دوكليرك شخصياً في تاينهيوز. شعر دوكليرك بالصدمة في البداية لدى سماعه عن الاختراق: من أعطى لو السماح بالتفاوض؟ لكن عندما أبرز لو تفويضه ـ بالتحقيق وليس التفاوض ـ استمع دوكليرك بشوق (لاحظ لو) وأخذ الكرة وهرب بها».[49]

عرف دوكليرك أن عليه إطلاق سراح زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي، لكن مانديلا كانت تسلط عليه معظم الأضواء، كما أظهر المراسلون السريون. بعد أسبوع من الانتخابات اجتمع مانديلا بكويتسي من جديد، وأبلغه أن على دوكليرك أن يؤكد على إطلاق سراح عشرة سجناء سياسيين، بمن فيهم سيسولو وكاثرادا ـ حيث سيكون تصرفهم السياسي «مكبوحاً»، في حين حث السجناء على عدم إثارة الحشود مثلما فعل غوفان مبيكي وهاري غوالا.[50]

كان المؤتمر الوطني الإفريقي داخل وخارج جنوب إفريقية قلقاً بشأن الموقف المكبوح. إذ أراد أعضاؤه توليد «نشاط قوي». في 9 تشرين الأول (أكتوبر) أصدرت الزعامة في لوساكا خطتها الخاصة للعمل، التي أكدت على أن الزعماء الذين يطلق سراحهم يجب أن يعيدوا تأكيد التزامهم ويعبئوا الدعم لإعلان هراري. وعندما ناقشته لجنة العمل، اعتقد ثابو مبيكي أن الزعماء الطليقين يجب «أن يأخذوا مكانهم في قمة النضال». وأصر كريس هاني على أن الرفاق «لا يمكنهم تحمل تشتيت روح الشعب». وحذر جاكوب زوما من أن الحكومة قد أربكت عمداً مانديلا وهاري غوالا. واعتقد جوي سلوفو أن مانديلا سيطلق سراحه فقط نتيجة «للنشاط المكثف».[51]

لكن بينما كان المؤتمر الوطني الإفريقي يتحدث، أعلنت الحكومة في 10 تشرين الأول (أكتوبر) أنها ستطلق قريباً سراح سبعة سجناء، بمن فيهم سيسولو وكاثرادا، بلا شرط. «رفض كاثرادا تصديق ذلك ما لم يره معلناً على التلفاز».[52] لكن أطلق سراحهم، ضمن أجواء كانت بعيدة عن الكبح.

فالمؤيدون ساروا عبر المدن، والأعلام الممنوعة للمؤتمر الوطني الإفريقي والحزب الشيوعي أعيد نشرها. ووعد سيسولو أن مستقبل البلاد السياسي «ستقرره زعامة الحركة»، ودعا إلى تكثيف العقوبات الاقتصادية.[53] بقي المؤتمر الوطني الإفريقي حذراً جداً بشأن أهداف الحكومة وراء إطلاق السراح. قالت «الدولة الجديدة» إنها تمثل مناورة سياسية نفذت ببرودة أعصاب «وهي محاولة يائسة لأخذ المبادرة من الشعب». لكن إذا كان الأمر كذلك، فإن المناورة لم تظهر أية علامة من علامات النجاح؛ ولم يظهر أي من السجناء الثمانية الذين أطلق سراحهم أي ضعف في التصميم. قال أندرو ملانجيني: «إذا كان من الضروري بالنسبة إليّ العودة إلى السجن، فسوف أذهب غداً».[54]

لقد واجهوا بعض الصعوبة في التأقلم مع الحياة الطبيعية بعد ربع قرن في السجن: لم يعد بإمكان سيسولو أبداً النوم في الظلام بعد أن اعتاد المصباح الكهربائي في زنزانته. ولم يستطع كاثرادا القيادة عبر شبكة طرق السيارات التي تمتد في جوهانسبورغ طولاً وعرضاً.[55] لكنهم فوجئوا أيضاً بانعدام التغييرات. عاد سيسولو إلى المنزل الصغير ذاته الذي عاش فيه دوماً مع زوجته ألبيرتينا، حيث بقي كما هو عند مغادرته(*).

«معظم سوويتو لم يتغير منذ أتيت لأول مرة للعيش هنا في عقد الثلاثين ومع بعض الاستثناءات فإن البيوت كعلب الكبريت هي كما كانت، هذا ما قاله سيسولو. إن الحكومة التي لا تعالج القضية الأساسية للإسكان اللائق لا تكون ملتزمة جدياً بالتغيير السياسي».[56]

حريتهم فتحت أمامهم اتصالات جديدة مع الغرب: حتى الرئيس بوش كتب إلى سيسولو ليهنئه. أراد مانديلا أن يسافر سيسولو وزملاؤه إلى لندن لرؤية

(*) لقد نبهني كي أُحْكِمَ إقفال سيارتي عندما زرته بعد ست وعشرين سنة، فقال «تذكر كيف سُرِقَ معطف باتريك دَنْكَنْ هناك».

السيدة تاتشر، لكنهم قاوموا، لاستمرار ارتيابهم بجدول أعمالهم، ولهم بعض الحق في ذلك.[57] بقيت تاتشر معارضة كلية للعقوبات.. ففي قمة الكومونولث في كوالا لامبور في تشرين الأول (أكتوبر) أصدرت بيانها الخاص المنفصل الذي ترك وزير خارجيتها الجديد جون ميجر (حسب أقوال موظفيه) وقد «تلقى صفعة» و«هو مذهول».[58] وقبل إطلاق سراح سيسولو مباشرة، رحبت تاتشر من جديد عمداً بباثيليزي، كحليف لها ضد العقوبات.

مع أنه بقي في كوازولو ـ ناتال إلى حد كبير فإن حزب باثيليزي (الإنكاثا) أصبح يشكل تهديداً أكبر في الوقت الذي اقترب فيه المؤتمر الوطني الإفريقي من الاعتراف. في 19 تشرين الثاني (نوفمبر) احتفل حشد من 70,000 من الزولو في دوربان بالسنة العشرين لحكم ملكهم. والملك الذي هو ابن أخت باثيليزي دعا إلى محادثات مع المؤتمر الوطني الإفريقي؛ لكن الهجمات المميتة على مؤيدي هذا المؤتمر استمرت. واستمرت السيدة تاتشر في تصوير الإنكاثا كقوة مستقلة عن بريتوريا، لكن الاستخبارات الأمريكية كانت مدركة لروابطها مع الحكومة وتطور «قوة ثالثة». كانت السيدة تاتشر تدعم باثيليزي علناً، في حين كان معروفاً بأنه يتآمر سراً مع بريتوريا بإشاعة عدم الاستقرار في البلاد.

جاء في تقرير للسي آي إيه «أفريكا ريفيو» في كانون الثاني (يناير) 1990 :

> نعتقد أن قوات أمن جنوب إفريقية قد دربت وسلحت مجموعات إنكاثا شبه العسكرية. ومن خلال مصادر متنوعة هناك دلالة على أن قوات أمن الحكومة ساعدت ـ في أدنى الحدود ـ الإنكاثا باختيار السماح باستمرار العنف.[59]

صار مانديلا الآن هو الزعيم المعارض الرئيسي الباقي في السجن. وهذا عزز سلطته وزعامته الفذتين.. كان من الصعب على أي كان اتهامه بخيانة شعبه، بما أنه أمضى في السجن مدة أكثر من أي شخص آخر. وبقي يحث على المفاوضات. وأراد العديد من المتشددين والمتهورين ضمن المؤتمر

الوطني الإفريقي، أرادوا تكثيف الكفاح المسلح لتحقيق «الاستيلاء على السلطة»، ورأوا في استمرار العنف بداية «الثورة المتدفقة». لكن مانديلا حذر جميع زائريه بشأن مخاطر الحرب الأهلية، قال لألبيرتينا سيسولو: «في أي بلد، حتى لو كانت هناك حرب، يبقى هناك وقت للمفاوضات».[60]

كان مانديلا يراقب الرئيس دوكليرك بعين الصقر. لقد تأثر لتنازلاته. وسمح دوكليرك بمسيرة احتجاج كبيرة في كيبتاون في 13 أيلول (سبتمبر)، يقودها توتو ويويساك دون أن تتدخل الشرطة. وفي الشهور التالية ألغى العديد من قيود «التمييز العنصري التافه»؛ بما فيها الشواطىء، والحدائق، والمغاسل والمطاعم المنفصلة وحل الشبكة شبه العسكرية، نظام إدارة الأمن الوطني، التي سيطرت سراً على المناطق. في خطاب توليه في 20 أيلول (سبتمبر) كان دوكليرك قد وعد بالتحدث إلى أية مجموعة ملتزمة بالسلام، وطلب مانديلا لقاءه فوراً، حيث كتب له مؤكداً أن الوقت قد حان «للتفاوض حول تسوية سياسية فعالة»، في حين أكد على أنه لا يستطيع التشاور مع المؤتمر الوطني الإفريقي، ورفض إلغاء روابط المؤتمر الوطني الإفريقي مع الحزب الشيوعي[61] «ليس هناك مقاتل من أجل الحرية يحترم نفسه يتلقى الأوامر من الحكومة. . . حول من يجب أن يكون حلفاؤه في النضال من أجل الحرية».[62] في تلك الأثناء استمر مانديلا في التحدث إلى فريق الحكومة، الذي أضيف إليه الآن وزير دوكليرك للشؤون الدستورية جيريت فيلجيون، في حين انتظر رد الرئيس ووسّع اتصالاته بالذات.

صار باستطاعة مانديلا الآن الترحيب بأصدقائه في بيته ـ السجن بطريقة مريحة أكثر بكثير ـ لقد دهشت فاطمة مير ـ التي كانت تراجع سيرة حياته التي كتبتها ـ من البيئة السلمية؛ حيث لاقاها غريغوري هي وإسماعيل أمام البوابة الرئيسية بثياب عادية. وحيث مرا على صفوف أكواخ الموظفين وصولاً إلى البيت المؤلف من طابق واحد حيث عانقهما مانديلا. بدا أفضل لياقة مما كان

عليه عندما رأته لآخر مرة، إذ كان شاحباً، في روبن آيلاند قبل سبعة عشر عاماً. «طويل، مبتهج بدون أي علامة للسمن على شكله النحيل. وشعره مرقش باللون الرمادي، ووجهه ليس فيه تغضن: وهو يبتسم كثيراً وبسرعة، وعيناه تدوران في الزوايا؛ وضحكته عميقة وعفوية». وفي بيته «فإن كل شيء يوحي بالراحة».

سألت فاطمة نفسها: «ماذا يعني ذلك كله؟ يبدو لي أنه ليس فقط المحرومون من حقوقهم في جنوب إفريقية يرون آمالهم تنعكس فيه فحسب، بل إن الحكومة أيضاً كانت تأمل بحل مشكلاتها عن طريقه». كان مانديلا قلقاً ـ كما أخبرها ـ من أن الشعب يتوقع الكثير جداً بعد إطلاق سراحه؛ لكن «إذا أمكن التغلب على كل هذه التوقعات الهائلة، فإن باستطاعتي العمل جيداً».(63)

صار بإمكانه استئناف لقاء الأصدقاء من كل مستوى في حياته. وأحدهم كان أول صاحب عمل استخدمه عام 1941، وهو المحامي لازار سايدلسكي. قدمه مانديلا لسجانه بوصفه «الرجل الأبيض الوحيد الذي هو معلمي». ولاحظ سايدلسكي أن مانديلا كان يعطي الأوامر لسجّان أبيض. وذكّر مانديلا كيف حذره قبل خمسين عاماً من أنه إذا بدأ بالعمل السياسي فسوف يجد نفسه في السجن: «انظر إلى أين انتهيت!».(64)

أحضرت صديقة مانديلا الجديدة ما مامفالا رامفيل ولديها (بناء على إلحاحه) حيث تحدث معهما عن (التنس) و(التلفاز). اتفقت هي ومانديلا حول معظم الموضوعات. لكنها جادلت ضد سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي في إحياء الزعماء القدامى من خلال مؤتمر الزعماء التقليديين، حيث اعتقدت أن ذلك كان Sexist وضد الديموقراطية. شعر مانديلا بالانزعاج، ودافع عن تلك السياسة في زيارتها التالية، شارحاً كيف أن المؤتمر الوطني الإفريقي بحاجة إلى إحضار الزعماء ضمن إطار سياسة التحرير.(65)

زاره إيدي دانييلز، صديقه القديم من روبن آيلاند، والذي أصبح الآن

مدرساً وتزوج من امرأة سكوتلندية؛ تجمعت مدرسة دانييلز بكاملها لتعطيه رسائل إلى مانديلا وذلك قبل زيارته. قال دانييلز: «ذهبت إلى هناك لرفع معنوياته، ولإبعاد ذهنه عن مسؤولياته الضخمة». وقرأ قصيدة «Invictus» (أنا سيد مصيري)؛ عانق كل منهما الآخر وأنشدا «ماري من آرجيل». وجد دانييلز وجه مانديلا أكثر توتراً نتيجة القلق بخصوص قراراته الوحيدة، في ظل توتر وضغط هائلين: «لكن بقي نيلسون ذاته رغم ذلك».[66]

كان لدى مانديلا بعض المخاوف من أن لا يميز جنوب إفريقية التي تركها قبل ثلاثة عقود. «أخشى أحياناً أنه في وقت عودتي، سيكون العالم قد اختفى». كتب ذلك إلى مالكي مطعم كابيتانز، الذي كان يلازمه في عقد الخمسين. لقد سمع أن الكابيتانز قد تم إغلاقه: هناك الكثير من حراشف النباتات وال tummies داخل وخارج البلاد التي ستغضبها الأخبار المشؤومة». (المطعم بقي، ورسالته وجدت موضوعة على الحائط).[67]

عرف دوكليرك الآن أن عليه أن يطلق سراح مانديلا، ويعترف بالمؤتمر الوطني الإفريقي لكن عليه إقناع وزارته بذلك. في مطلع كانون الأول (ديسمبر) جمعهم لمدة يومين في مكان للصيد قرب بوتشوانا من أجل bos beraad أو مؤتمر أدغال. جادل بعض الوزراء بعناد ضد الخطة، وبخاصة ماغنوس مالان، وزير الدفاع الصقر الذي عارض إضفاء الشرعية على الحزب الشيوعي الذي حاربه منذ فترة طويلة. لكن الخطر الأحمر، لم يَعُدْ كما كان سابقاً. فقد انهار جدار برلين في الشهر الفائت، مما أعطى دوكليرك دافعاً جديداً للعمل. قال لشقيقه ويمبي بعد ذلك بوقت قصير: «بدا وكأن الله قد ساعد، هناك تحول جديد في تاريخ العالم. يجب علينا أن ننتهز الفرصة. وخطر أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان يستخدم كحصان طرواده من قبل قوة عظمى قد تضاءل تضاؤلاً جذرياً».[68]

بعد مؤتمر الأدغال مباشرة وافق دوكليرك على طلب مانديلا بعقد

اجتماع. وأعد مانديلا أيضاً مذكرة بعناية جعلها عصرية أكثر من المذكرة السابقة إلى بوثا. مرحباً بدعوة دوكليرك للمصالحة والتزامه بالسلام. لكنه كان قلقاً من أن الحكومة كانت مستمرة في التمييز العنصري بوسائل أخرى، عن طريق التآمر مع الوطنيين السود واختيار زعمائهم. قال مانديلا إن الصراع العنيف كان يستنزف قوام حياة البلاد، ويمكن تحقيق السلام فقط عبر المحادثات مع المؤتمر الوطني الإفريقي بدون شروط مسبقة. وفي مرحلة أولى، وطبقاً لإعلان هراري، دعا دوكليرك لوضع حد لحالة الطوارىء، وإلغاء الحظر وإبعاد القوات عن المناطق.[69]

في 13 كانون الأول (ديسمبر) تم نقله أيضاً إلى تيونهيوز لرؤية الرئيس ـ مع كويتسي وبارنارد من جديد. كان المناخ أكثر راحة مما كان عليه مع بوثا. كان دوكليرك قد درس الخلفيات النفسية لشخصية مانديلا، لذلك لم يفاجأ (كما أخبرني) بكياسته وشهامته؛ وما أثر فيه كان معرفته بتاريخ ومعاناة الأفريقاني؛ كمماثل لأبناء شعبه.[70] عرف مانديلا شيئاً عن تاريخ دوكليرك السياسي، وسمع من أصدقاء سود أن لديه سمعة جيدة كمحام مبجل. حاول رؤية المشكلات من خلال وجهة نظر دوكليرك، وفوجىء لإصغاء دوكليرك إليه وتجاوبه معه. انتقد مانديلا التزام الحزب الوطني بـ «حقوق المجموعة» التي يراها العالم بحق كتوسيع للتمييز العنصري. شرح دوكليرك أنه كان يحاول تهدئة مخاوف البيض من سيطرة السود. وهذا ما قاله مانديلا لـ ب. دبليو. بوثا والمؤتمر الوطني الإفريقي إن من الواجب فعله. أصر مانديلا على أن «حقوق المجموعة» من شأنها أن تصعد فقط مخاوف السود، قال دوكليرك، في هذه الحال «علينا تغييرها».

كرر مانديلا آنذاك أنه لا يستطيع قبول أية شروط، وأن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب إلغاء حظره. دوكليرك لم يقدم أية وعود، لكن مانديلا غادر الاجتماع وهو مطمئن. اعتقد (كما أبلغ لوساكا) أن دوكليرك كان بعيداً فعلاً عن سابقيه، حيث بإمكانه القيام بعمل معه.[71] ومن جهته بدا دوكليرك كأنه لم يتأثر

بمن واجهه ـ حسب قول مساعده ـ لكنه أخبر شقيقه ويمبي أن مانديلا «كان رجلاً ذا نموذج هائل. . . إنه سياسي يمكن الاعتماد عليه».[72]

سمح لمانديلا الآن برؤية كل أنواع السياسيين من بيته ـ السجن ـ فيما عدا الديبلوماسيين والصحفيين، لأن بريتوريا كانت تخشى من أن تحاول الأمم المتحدة أو الحكومات الأجنبية التدخل. تجمع سجناء روبن آيلاند الذين ما زالوا يقضون فترة سجنهم، وزعماء الحركة الديموقراطية الجماهيرية، والمحامون، والموظفون، وأعضاء نقابات العمال، والأكاديميون وزعماء الشباب. تجمعوا كلهم عند بيت مانديلا، إنه لم يعد يشابه السجن، كما قال محاميه جورج بيزوس، بل المكتب الذي يسيّر منه رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي أعماله. قال صديقه القديم الدكتور موتلانا: «كان يعقد الاجتماع وكأنه بطرس الأعظم في روسيا».[73] أمضى مانديلا وقتاً طويلاً مع محاميه من كيبتاون، دولا عمر، وهو مسلم ذو عينين كبيرتين مفعمتين بالعاطفة عمل في تفصيلات إطلاق سراحه المحتمل.

سبب مانديلا بعض الذعر ضمن المؤتمر الوطني الإفريقي عندما استقبل ريتشارد مابونيا في تشرين الثاني (نوفمبر)، وهو رجل أعمال أسود غني ومالك لخيل السباق كان قد اتهم بالتواطؤ مع الحكومة. لكن مانديلا تذكر بامتنان كيف أن مابونيا أقام حفلة له ولأصدقائه عام 1960[74] أخبره مانديلا (كما ذكر مابونيا) أنه قلق بشأن مشكلات إدارة عمل كبير، واقترح أن التأميم لم يكن الطريق الأفضل لمنح السلطة للسود. إن جنوب إفريقية مستقلة ويجب أن لا تصبح مفلسة اقتصادياً ـ مثل بعض جيرانها[75] ـ. هذا أزعج الكثيرين من زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي، الذين رأوا أن ميثاق الحرية قد تمت خيانته. لكن بعد شهرين أصدر مانديلا بياناً أكد فيه التزام المؤتمر الوطني الإفريقي بتأميم المناجم، والبنوك، وصناعات الاحتكارات. تلك بقيت السياسة الرسمية، لكن تامبو وآخرين في لوساكا كانوا يدرسون أفكاراً حول اقتصاد مختلط؛ ومثل

الفقرة الرابعة القديمة لحزب العمال البريطاني، فإن التأميم لن يتخذ حرفياً جداً. (عندما سأل رجال الأعمال تامبو عن ذلك، أجاب أن سياسات المؤتمر الوطني الإفريقي كانت مشابهة لسياسات روبيرت موغابي في زيمبابوي؛ وفي حين أن موغابي كان يعظ بملكية الدولة، فإنه لم يؤمم شيئاً). على أية حال لم يكن رجال الأعمال قلقين. في أواخر كانون الثاني (يناير) 1990، كانت بورصة جوهانسبورغ تسجل أعلى ارتفاع لها.[76]

سمح لمانديلا حتى الاتصال بالهاتف إلى لوساكا والتحدث مباشرة إلى الأصدقاء المحظورين الذين أصبحوا الآن بعد حوالي ثلاثين عاماً على اتصال أوثق بالبلاد. منح سيسولو وزملاؤه الآخرون الذين أطلق سراحهم جوازات سفر للطيران إلى لوساكا، حيث استقبلوا بحماسة. عانق سيسولو ابنه ماكس بعد سبعة وثلاثين عاماً، وتم لم شمل غوفان مبيكي مع ابنه ثابو.[77] إن الفروع الثلاثة للنضال التي كانت منفصلة بعضها عن بعض لما يقارب ثلاثة عقود ـ من منفيين وسجناء وناشطين داخليين، بدأت تنضفر.

لكن الزعماء المتصلبين، داخل وخارج جنوب إفريقية، ما زالوا يصرون على أن مانديلا ربما يخون ويخدع الثورة. وعندما زاره ثمانية عشر ناشطاً داخلياً أواخر عام 1989 ـ بعضهم كان قد رآه لآخر مرة في ثياب السجن في روبن آيلاند، ذهلوا للباسه النظيف ومحافظته على شكله، ومديحه لـ دوكليرك. قال إريك مولوبي لنفسه: «هذا الرجل قد انتهى». كان المقاتلون الفدائيون ضمن الـ MK قلقين أكثر حتى قبل أن يشرعوا بمعاركهم الحقيقية، فإن مفاوضات مانديلا من شأنها أن تحبط «استيلاءهم على السلطة».[78] كانت المناقشات (الأيديولوجية) ضمن جنوب إفريقية تنتشر إلى العلن، في وقت خففت فيه الحكومة من سيطرتها على الاحتجاجات والأعلام الحمراء؛ وبرزت النقاشات القديمة في روبن آيلاند من جديد إلى العلن في الوقت الذي أصبح فيه مفهوم السلطة أكثر واقعية. كان غوفان مبيكي يعمل مع «جماعة» ماركسية

في الكاب الشرقي، حيث أصبح أكثر صراحة، وبقي عنيداً متصلباً. ذكّر مبيكي أتباعه في مطلع كانون الأول (ديسمبر) أن «هدف الطبقة العاملة هو أخذ قيمة الفائض الذي أوجدته بأكملها».[79]

لكن مانديلا اهتم بتسريب نسخة من مذكرته إلى دوكليرك المؤلفة من عشر صفحات إلى لوساكا، وإيضاح أنه لا يلزم نفسه بأي شيء. قال ناطق باسم المؤتمر الوطني الإفريقي: «إنه لا يفاوض، إنه يسهل العملية أمام الحكومة لتجلس مع المؤتمر الوطني الإفريقي». وكان مانديلا يستخدم عزلته الرائعة ليوحد أكثر من أن يفرّق.

قال كاثرادا أمامه: «هناك مؤتمر وطني إفريقي واحد، وهو موجود منذ عام 1912 وما يزال موجوداً اليوم»[80] معظم زوار مانديلا رأوا فيه مُصالحاً وصانع سلام، يسعى إلى وضع حد للخصومات القديمة. وهو يبقى ـ فوق كل شيء ـ العضو المخلص للمؤتمر الوطني الإفريقي، مصمماً على الحفاظ على وحدة الحزب، كما أوضحت ذلك كل بياناته وكلماته.

زادت الآمال بإطلاق سراح مانديلا، ثم تراجعت خلال السنة الجديدة لعام 1990. في 8 كانون الثاني (يناير)، وبعد أن زارته ويني لثلاث ساعات خرجت لتقول: «لا أظن أننا نتحدث عن شهور.. هذا هو الشيء الحقيقي». لكن بعد ثلاثة أسابيع كان هناك المزيد من المشكلات ـ حسب شرحها ـ بخصوص إلغاء حظر المؤتمر الوطني الإفريقي «إن ثمن إطلاق سراحه هو تغيير التاريخ في هذا البلد».[81]

يتوقف مستقبل البلاد الآن على رجلين. بقي الرئيس دوكليرك منفرداً بنفسه خلال عطلة عيد الميلاد في الصيف، وهو يستعد للقرار الذي لا يستطيع تجنبه. كانت الضغوط من الخارج ما تزال تتصاعد والأزمة الاقتصادية تزداد حِدَّة. أخبر دوكليرك شقيقه ويمبي فيما بعد: «على الصعيد الدولي إننا نتأرجح على حافة الهاوية».[82] وعدت السيدة تاتشر، عن طريق سفيرها روبن رينويك ـ

وعدت دوكليرك أنه عندما يطلق سراح مانديلا فإنها سترد على ذلك بإلغاء العقوبات، بما فيها الحظر على الاستثمارات الجديدة.[83] بحلول منتصف كانون الثاني (يناير)، كان دوكليرك يكتب باليد الكلمة التي سيلقيها لدى افتتاح البرلمان في 2 شباط (فبراير). استشار مستشاريه المقربين فقط، وليس مؤتمر حزبه أو زوجته ماريك ـ وهي أفريقانية متمسكة بالأعراف تشوشت بسبب صحته وسياساته، وهي التي قارنت مانديلا بالسجين النازي رودولف هيس[84] ـ عندما هنأته الوزيرة البريطانية لشؤون التطوير فيما وراء البحار ليندا تشوكر لشجاعته، أجاب أنه يعاني مشكلة في إقناع «امرأة أخرى»؛ تبين فيما بعد أن الزواج كان في الحقيقة يعاني من مشكلات.[85] وفي اليوم الذي سبق كلمته تخاصم دوكليرك أيضاً مع وزير دفاعه ماغنوس مالان حول إضفاء الشرعية على الحزب الشيوعي؛ لكن دوكليرك أصر على أن الإبقاء على الحظر سيجعل الحملات السياسية تستمر إلى الأبد. في منتصف ليلة 1 شباط (فبراير) أرسل إلى السيدة تاتشر رسالة بأنها لن تخيبها كلمته[86](*). في النهاية اجتمع البرلمان لسماع الكلمة. ورغم كل التكهنات، فإنها أذهلت كل شخص تقريباً. ففي بضع دقائق نقض دوكليرك سياسات سابقيه كلهم تقريباً خلال العقود الثلاثة الماضية. «جميع المنظمات السياسية، بما فيها المؤتمر الوطني الإفريقي والحزب الشيوعي لجنوب إفريقية ستصبح شرعية. جميع السجناء السياسيين غير المحكومين بجرائم عنف سيتم إطلاق سراحهم. جميع الإعدامات ستتوقف. والحكومة اتخذت قراراً حازماً بإطلاق سراح مانديلا بدون قيد ولا شرط».[88]

لقد انتصر مانديلا، في حين كان حريصاً على إرجاع ذلك لشعبه. قرأت ويني رسالة منه إلى حشد في جوهانسبورغ: «أنتم الذين جعلتم الحكومة

(*) هناك من ادّعى فيما بعد أن مسوّدة خطاب دي كلارك قد تم التفاوض عليها مع الحكومة البريطانية، وهذا ما يُنْكِرُهُ رنويك Renwick بشدّة.[87]

تستسلم لضغطكم. . . وليس الرئيس دوكليرك». لكنه أضاف: «إن المجموعة الدولية هي التي فرضت جزئياً هذه التنازلات». تحول موقف المؤتمر الوطني الإفريقي على الفور. فأصدر بياناً من ستوكهولم (حيث كان تامبو يسترد عافيته) قائلاً إن كلمة دوكليرك ذهبت «شوطاً بعيداً نحو إيجاد مناخ يوصل إلى المفاوضات». [89]

أصبحت جنوب إفريقية فجأة بلداً جديداً. فالسري أصبح علنياً، الأشخاص المحظورون أبرزوا أنفسهم، رفرفت الأعلام الحمراء وأعلام المؤتمر الوطني الإفريقي، ونشرت الصحف صوراً لمانديلا. كل شخص تساءل عن صحته وقدراته، ومتى سيطلق سراحه. كانت هناك شائعات أنه يؤخر ذلك بنفسه، لكنه أخبر بيزوس: «افتح الباب، وسترى في أي طريق أسير». داخل بيته؛ السجن، كان يقوم بآخر استعداداته لمواجهة الجموع والصحافة. صديقه المصور بيتر ماغوبان أعطاه كتيباً نشرته مجلة تايم عن كيفية التعامل مع وسائل الإعلام. [90]

بعد أسبوع من إلقاء الكلمة استدعى دوكليرك مانديلا إلى مكتبه وأبلغه أنه سيطير إلى جوهانسبورغ ليطلق سراحه في اليوم التالي. تبع ذلك جدل متوتر. أراد مانديلا أسبوعاً آخر ليعد المؤتمر الوطني الإفريقي الاستقبال (كان هذا له ما يبرره كما أصبح واضحاً)، لكن قوى الأمن خشيت من أن ذلك سيخلق «توترات لا يمكن ضبطها». في الحقيقة كان نيل بارنارد رئيس الاستخبارات قلقاً جداً من أن ينظم المؤتمر الوطني الإفريقي مظاهرات جماهيرية من شأنها بث الفوضى في البلاد بأكملها، مثل أتباع آية الله خميني عندما عاد إلى إيران عام 1979. [91] أصر مانديلا أيضاً على أنه يجب أن يسير خارج بوابات السجن، إلى جانبويني، ويتحدث إلى شعب كيبتاون. كان دوكليرك رافضاً بشدة لأي تأجيل: كان خائفاً من أن المظاهرات ستثيرها مواضيع الأخبار مثل العنوان الرئيسي في كيبتايمز ذلك الصباح: «مانديلا يطلق إطلاق السراح من بارل». [92]

تشاور مرتين مع زملائه، الذين قالوا إن التأجيل فات أوانه، إلا أنه وافق على إطلاق سراح مانديلا عند بوابة السجن. عندما عاد مانديلا إلى السجن اعتقد سجانه غريغوري أن فمه أصبح أكثر قسوة وعيناه أكثر برودة. لقد قرر أن يطلق سراحه بجلال ووقار؛ وكما لاحظ كوبي كويتسي «الجلال هي كلمة حاسمة بالنسبة إلى مانديلا».[93]

كان المؤتمر الوطني الإفريقي قد عين لجنة استقبال لتضع الخطط؛ وفي تلك الليلة أتوا إلى بيته للقيام بالتغييرات النهائية على كلمته. كتب مانديلا على لوح الكتابة الجلدي ـ المقلَّد الذي صنعه السجناء له ـ لكن الكلمة كانت العمل الجماعي للمؤتمر الوطني الإفريقي، كما أنها كانت واضحة جداً من خلال أسلوبها. أمضى محاميه من كيبتاون دولا عمر ساعتين معه، ووجده مكباً، هادئاً، عميقاً في التفكير. «لقد عرف كل شيء كان يحدث».

في الصباح التالي استيقظ مانديلا في الرابعة والنصف. وبعد الفطور وفحص طبي اجتمع مجدداً مع زملائه من المؤتمر الوطني الإفريقي بمن فيهم سيريل رامافوزا وتريغور مانيويل لوضع اللمسات النهائية على الكلمة. حزم كتبه وأوراقه، المتكدسة خلال السنوات في بولسيمور، في اثني عشر صندوقاً، وودع حراسه، كانت اللحظة الأكثر إثارة في حياته كما أخبر عمر الذي لاحظ أنه «لم يظهر أية عاطفة، كان متماسكاً جداً».[94] كان مانديلا منشغلاً بالتفاصيل ـ كما شرح ـ أكثر من أن يدرك كم كانت المناسبة هامة.

خطط وفد من المؤتمر الوطني الإفريقي يضم ويني وولتر سيسولو للمجيء بالطائرة من جوهانسبورغ في طائرتين مستأجرتين؛ ويني ستلاقي زوجها في السجن، وتسير معه خارجاً في الساعة الثالثة. لكن الطائرة الثانية وصلت متأخرة، ولم يخرج مع ويني من بوابة السجن حتى ما بعد الرابعة، ليواجه مشهداً فاجأه كلياً.[95] ففي سن الواحد والسبعين، بعدما يزيد عن عشرة آلاف يوم في السجن، كان ينضم إلى بلاد كانت قد نمت وترعرعت بدونه.